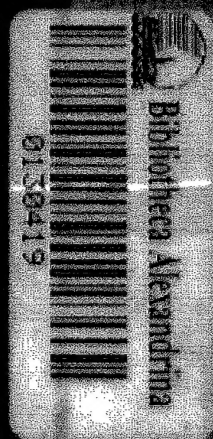


كان واسموتها

بلاوي



جمال بدوي

الجزء الأول

كان والخواليد

مشاهد حيه من سايفع التاريخ الحديث



كان وأخواتها

**مشاهد حية من
تاريخ مصر الحديث**

**تأليف
جمال بدوي**

الطبعة الأولى
أكتوبر ١٩٨٦

رسوم الغلاف بريشة الفنان نسيم
خطوط الغلاف بقلم : محمود ابراهيم
حروف الجمع على أجهزة الجمع التصويرى بالوفد
الطبع على ماكينات مؤسسة انترناشيونال برس

إهداء

إلى روح الزعيم

مصطفى النحاس

تحية عرفان من مصرى عاشق لوطنه ..
إلى روح الزعيم الذى أفنى عمره فى خدمة وطنه ..
ثم غادر الدنيا - كما دخلها - طاهرا من الرجس .

هذا الكتاب بقلم محمد فؤاد سراج الدين رئيس الوفد

قرأت هذا الكتاب مرتين ، المرة الأولى على حلقات أسبوعية فى باب « كان واخواتها » فى صحيفة الوفد الذى يحرره الأستاذ جمال بدوى مؤلف هذا الكتاب وذلك على مدى خمسة وسبعين اسبوعا متتالية ، والمرة الثانية بعد أن جُمعت هذه الحلقات فى ملازم وأعدت للطبع . وكانت متعتى بالقراءة الثانية لا تقل عن متعتى الأولى بها ، وذلك لطرافة الموضوعات التى انتقاها المؤلف من تاريخ مصر الحديث بدءا من عهد محمد على إلى عهد الثورة وكذلك للأسلوب الشيق الذى عرف به جمال بدوى .

وقد عالج المؤلف الموضوعات التى تناولها فى كتابه من زاوية جديدة لم تعرفها الصحف من قبل ونجح تماما فى أن يتلافى الجمود الذى يصاحب دائما الموضوعات التاريخية .

ولاشك أن هذا الكتاب قد أدى خدمة جليلة لشباب هذا الجيل إذ عرفه بالكثير من تاريخ بلاده وسير زعمائه ، الأمر الذى تعتمد المسئولون تجهيله به فى معاهد العلم لأسباب سياسية معروفة .

ان ما اقترفه هؤلاء المسئولون فى حق الشباب
المصرى يعتبر جريمة لا تغتفر لابد ان يحاسبوا عليها
اشد الحساب .

لقد وفق الأستاذ جمال بدوى فى اختيار عنوان كتابه ،
عندما وصفه بأنه « مشاهد حية من تاريخ مصر
الحديث » . كما وفق فى إعادة الحياة إلى هذه الأحداث
القديمة التى مر عليها عشرات السنين ونسيها الناس
وإن كان معظمهم يجهلونها أو يجهلون معظمها لأن أحدا
من الكتاب - قبل جمال بدوى - لم يهتم بعرضها
والتعليق عليها .

إن هذا الكتاب إثراء جديد للمكتبة المصرية كانت فى
اشد الحاجة اليه ويذكر لصاحبه بالفضل ويزيد من
فضله مواصلته لكتابة هذه الحلقات ، فالقارئ أيا كان
شيخا أو شابا فى اشد الحاجة إليها . وإنى واثق بأن
هذه الدراسات الشيقة ستؤدى غرضها فى تنوير
المواطن المصرى بتاريخ بلاده وحياة العظماء من رجال
مصر الأوفياء بعد أن أزال عنهم جمال بدوى غبار
الجحود والتجهيل ، وكشف عن جهادهم النبيل فى سبيل
مصر الخالدة .

● مقدمة ●

بين يدي القارئ

هذه مشاهد من تاريخ مصر الحديث يسعدني أن أضعها بين يدي القارئ الكريم لكي ينتفع بها وتساعد على تفسير أمور كثيرة تجرى من حوله ، فانا لم أكتبها بهدف تسلية القارئ أو الترويح عنه ، ولكن بهدف إزعاجه حتى يعرف نفسه ، وعندما أمسكت بالقلم لأكتب هذه المشاهد فإنني ما تخيلت نفسي شاعرا بربابة يحكي لرواد مقهاه امجاد ابى زيد الهلالي ومغامرات الزناتي خليفة .. ولا تخيلت نفسي مدرسا يلقي تلاميذه معلومات محفوظة عن عظمة خوفو وهو يبني الهرم الأكبر .. أو شجاعة أحمرس وهو يطارد الهكسوس في قفار آسيا .. ولكني عرفت نفسي واحدا من أبناء هذا الشعب الطيب الصبور ، حمل على صدره أحجار الهرم وارتفع بها مداما فوق مدمك ، وحمل على كتفه القوس والسهم والسيف والبندقية وسار خلف تحوتمس ورمسيس وصلاح الدين وقطرز وبيبرس ومحمد علي .. وأمسك الفأس ليشق ترعة المحمودية والابراهيمية والاسماعيلية ليعم الرخاء والنماء أرض مصر .. ثم حفر قناة السويس ليربط الغرب بالشرق دون أن يعي أنه سيكون هدفا للغرب والشرق .

لم يكن همي عند كتابة هذه المشاهد تسجيل امجاد الملوك والخلفاء والولاة الذين حكموا مصر ، فكتبُ التاريخ تفيض - والحمد لله - بهذه المعلومات ، ولكن كان همي هو البحث عن أثر هذه الاحداث القديمة في المصريين المحدثين ، لإيماني بأن تاريخ مصر حلقات طويلة متماسكة ، وأن أحداث اليوم هن بنات الامس ، ولاقتناعي بأن أحداث التاريخ تجرى بقوة دفع مطرد .. فكل حادث يملك في داخله عوامل ذاتية تدفع به إلى الامام فيتولد منه حادث جديد مشابه له في الشكل ولكنه يخالفه المحتوى والمضمون ..

وهكذا .. تسير - دوما - عجلة التاريخ ، ومن هنا تبطل المقولة المشهورة بأن التاريخ يعيد نفسه .. فهي مقولة تخالف طبيعة الأشياء ، وتناقض حركة الحياة التى تسير فى خط مطرد نحو الأمام .. ولو تخيلنا أنها تسير نحو الوراء لكان شأنها شأن عقارب الساعة إذا دارت فى عكس الاتجاه المتعارف عليه منذ اخترعت الساعة ..

وأنا حينما أنظر إلى الشقاء الذى عاناه أجدادنا المصريون وهم يحملون أحجار الهرم ، فلا أقول إن التاريخ يعيد نفسه حين أراهم وهم يحفرون ترعة المحمودية أو قناة السويس رغم أن الشقاء واحد فى الحالىن ، ولكن الحالة النفسية التى كان عليها المصرى مختلفة : فهو فى الأولى تحرك بدافع العقيدة التى تتحدث إليه عن قدسية الملك ، أما فى الثانية فقد تحرك بدافع من الكبراج .! فلو وصفت ذلك بمقولة إن التاريخ يعيد نفسه ، لكان معنى ذلك أن الزمان ثابت لا يتحرك .. وأن المصريين متجمدون .. أو متحركون على إيقاع «مَحَلْكَ سِرْ» وهو إيقاع يقضى على الكائن الحى بالضمور والانقراض . وهناك بالطبع ، شعوب تجمدت حركتها فانقرضت ، والتاريخ يدلنا على أمم لحقتها لعنة الفناء فباتت مجرد ذكرى ، ولكن هذا السلوك لا ينطبق على المصريين الذين عاشوا على ضفاف النيل منذ آلاف السنين ، واستطاعوا أن يقاوموا عناصر الفناء ، ومن هنا نشأت خصيصة التواصل التاريخى عند المصريين ، وهى خصيصة لا تتمتع بها أمم كثيرة معاصرة ، فانت حين تتحدث عن الجزر البريطانية أو فرنسا أو أسبانيا أو المجر .. لا تستطيع أن تحقق وجود ظاهرة التواصل التاريخى فى تلك البلاد .. ولا تستطيع أن تقول إن الشعوب التى تعيش الآن فوق هذه الأراضى هى أحفاد الشعوب التى كانت موجودة قبل ميلاد المسيح ، ذلك أن هذه البلدان تعرضت لموجات هجرة عنيفة من جانب القبائل الجرمانية والمغولية فغلبت على الشعوب الأصلية حتى أزاحتها وقضت عليها .

● ولكن .. برغم الهجرات والغزوات العديدة التى تعرضت لها مصر ، فقد حافظ المصريون على تماسكهم وترابطهم ووحدتهم

الاجتماعية والسياسية ، فالعقيدة قد تتغير ، ويتبدل الدين ، ويتحول اللسان ، ولكن يبقى المصريون محافظين على نقاء سريرتهم ومعدنهم .. وعاداتهم وتقاليدهم .. ولا أقول نقاء عنصرهم ، لأن نظرية نقاء العنصر نظرية رجعية فاسدة ، وإذا صحت بالنسبة للشعوب المغلقة التي تعيش في أدغال إفريقيا أو فيافي آسيا أو على حافة المحيط المتجمد .. فإنها لا يمكن أن تصبح على شعب يشغل قلب العالم ، وتتفتح بحاره وصحاريه على كل الاتجاهات الأربعة .. فقد كان أمرا مقضيا أن يختلط بشعوب أخرى ، بل أقول إن هذا الاختلاط كان من عوامل بقائه ، فقد اكتسب العنصر المصرى - إن صح هذا التعبير - صفات وراثية قوية على النحو الذى يعرفه علماء الأجناس والسلالات ، وهذه الميزة حُرمت منها العناصر المتعجرفة التى عاشت فى مصر أسيرة نقاء العنصر ، فذوت وضعفت حتى انقرضت ، وأنت تستطيع أن تجد ذلك إذا بحثت عن أحفاد العناصر التركية المتخترسة التى استوطنت مصر ولكن بمعزل عن شعبها ، ولم يسمح لها غرورها واستعلاؤها بالتزاوج من الفلاحين المصريين ، فلن تجد لهم ذكرا ، على عكس القبائل العربية التى اختلطت وامتزجت فكتبت لنفسها البقاء .

وهذه الخصيصة التى يتمتع بها التاريخ المصرى - خصيصة التواصل والاستمرار - هى التى جعلتنى أفسر أمورا معاصرة بأحداث قديمة ، وخصوصا عندما يتطرق الأمر إلى العلاقة الجدلية بين الحاكم والمحكومين ، عندئذ يكون من اليسير تفسير هذه القضية فى ضوء معطياتها المباشرة ، ويكون من الواجب تأصيلها تاريخيا وربطها بالظروف العملية التى حتمت قيام سلطة مركزية تشرف على توزيع مياه الرى على زراع الأرض .. ثم احترام الزراع لهذه السلطة وخضوعهم لما تصدره من قوانين وأنظمة .. فنشأ عن ذلك مولد الحكومة المستبدة التى تفرض سلطانها بقوة القهر ، ثم قبول الناس لهذا الاستبداد لأنه مرتبط باستمرار الحياة ودوام النماء .. وعلى هذا فإنه يصعب الفصل بين المشاهد والأحداث المتشابهة من تاريخ مصر حتى لو باعدت

بينها آلاف السنين ، ورغم أنني أضع بين يدي هذا الكتاب مشاهد متناثرة من تاريخ مصر الحديث ، إلا أنني أدعو القارئ الكريم إلى أن يكمل بنفسه بقية المشوار ، فينقب في بطون الكتب عن أصول هذه المشاهد وجذورها المدفونة في تربة مصر منذ فجر التاريخ الانساني ، عندئذ سوف تكتمل أمامه أجزاء الصورة ، وتتصل حلقات السلسلة التي أشرتُ إليها في صدر هذا الحديث . عندئذ يعرف المصري نفسه .. ويجد الجواب عن كثير من الأسئلة الحائرة التي تتزاحم بها أحداث اليوم .. وهذا هو الهدف الرئيسي من إعداد هذا الكتاب .

تبقى بعد ذلك ملحوظة .. فسوف يجد القارئ الكريم أنني أهملت ذكر المصادر والمراجع ، وهي مسألة يهتم بها كُتّاب التاريخ ، وكان من السهل أن أفعل ذلك .. ولكنني وجدت ذلك سيبدو عملاً مظهرياً ، فما أسهل أن أسجل أسماء مئات الكتب التي رجعت إليها .. ولكنني لم أفعل لأنني لا أكتب رسالة جامعية تحتم على ذكر مصدر الحدث ، ولكنني أقدم تحليلاً للحدث نفسه .. ولذلك تغافلت عن ذكر المصدر إذا كان الأمر يتعلق بالأحداث ، لأنها ملك للجميع ، وذكرها مشاع في عديد من الكتب ، ولكنني تعمدت ذكر المرجع حين كان الأمر يتعلق برأي أو وجهة نظر تفسر الحدث نفسه ، أو تستخلص منه نتيجة بعينها .. فهي ملك لصاحبها وحده .

● وفاء وعرفان ●

وفي ختام هذا التقديم فإن واجب الوفاء يقتضيني أن أتقدم بالعرفان لكل المؤرخين والباحثين والكتّاب الذين رصدوا تاريخ مصر بعين فاحصة ، فقد أفدت منهم وتعلمت على أيديهم الكثير . كما أتقدم بخالص التقدير والاحترام للأستاذ الكبير محمد فؤاد سراج الدين زعيم حزب الوفد الذي جاء إصراره وجلده وإيمانه عاملاً مؤكداً في عودة حزب الوفد إلى الساحة السياسية بعد فترة ركود دامت ثلاثين عاماً ، وكان ظهور جريدة «الوفد» فرصة

ذهبية لظهور هذه المشاهد على صفحاتها الغراء . ومن ثم كانت
مثار مناقشات مثمرة بينى وبين هذا الزعيم الذى يحفظ فى ذاكرته
وعقله أدق الأسرار عن مرحلة زمنية تشغل نصف القرن .
ويسعدنى أن أقدم امتنانى إلى أخى وصديقى وزميلى مصطفى
شردى رئيس تحرير «الوفد» الذى أتاح لهذا الباب التاريخى
«كان وأخواتها» أن يحتل مكانا مرموقا على صفحاتها منذ
عدها الأول . كما لا يفوتنى أن أشيد بملاحظات الأصدقاء
والأخوة الذين لم يخلوا على عبارات التشجيع التى كان لها
أبلغ الأثر فى تقويم هذه المشاهد وإظهارها فى أكمل صورة .
وأرجو الله أن يمدنى بعونه حتى أستطيع مواصلة الرسالة التى
أحملها بين جنبى تجاه بنى وطنى .. إنه سميع مجيب .

جمال بدوى

مصر الجديدة أكتوبر ١٩٨٦

عنزة السيدة نفيسة

بات

المجتمع المصري ، خلال العصرين المملوكي والعثماني نهبا للخرافات والخزعبلات والاساطير التي كانت تنسجها عقول خبيثة تستغل سذاجة الناس وضحالة وعيهم وتستنزف ما في جيوبهم وقد استيقظت القاهرة ذات صباح على قصة خرافية تزعم ان عنزة صعدت فوق مئذنة مسجد السيدة نفيسة رضى الله عنها واخذت تكلم الناس وتحضهم على فعل الخيرات وتحذهم من ارتكاب الموبقات وتطورت القصة بعد ان تناقلتها السنته العوام فاضافوا اليها بعض التوابل والمشهيات واكتملت لها عناصر الاثارة والتشويق واستقرت القصة فى الشارع المصرى على النحو التالى كما رواها الجبرتي :

كان بعض الجند المصريين قد وقعوا اسرى الحرب فى بلاد الفرنجة ، وذات يوم اشتروا عنزة ليذبحوها فى مجلس الذكر الذى عقده قريانا الى الله كي يفك اسرهم ويعيدهم الى ديارهم ، ولكن الحارس القائم على امرهم ابى عليهم ذلك واستولى على العنزة ومضى بها الى بيته . فلما اوى الى فراشه رأى فى منامه رؤيا مزعجة فادرك على الفور ان العنزة مباركة ، فلما اشرق الصباح اعاد العنزة الى الجند ثم اطلق سراحهم وزودهم ببعض المال كي يستعينوا به على الرجيل الى بلادهم ، فاستقلوا مركبا الى مصر ومعهم العنزة المباركة ، فلما بلغوا القاهرة ذهبوا من فورهم الى مسجد السيدة نفيسة وقضوا ليلتهم بجوار ضريحها وفى الصباح وجدوا العنزة قد اعتلت المنارة وسمعوها تكلم الناس ، وكان للمسجد خادم ذكى اسمه الشيخ عبداللطيف ادرك الفائدة العظمى التى ستعود عليه من ترويح قصة العنزة فاشاع بين رواد المسجد ان السيدة نفيسة خاطبته من مقصورتها واوصته بالعنزة خيرا ، وذاعت الخرافة بين اهل القاهرة فتوافدوا على المسجد لرؤية العنزة والتبرك بها والتبرع لها بما تجود به اريحيتهم وانفتح باب الرزق الرغيد امام الشيخ عبداللطيف فوضع تسعيرة محددة لكل درجة من درجات القرب من العنزة ادناها الرؤية المجردة واعلاها المسح على جسمها والحصول على بركاتها ، وانهالت الهدايا والنذور على الشيخ عبداللطيف فكان يخبرهم بان العنزة لا تاكل الا قلب اللوز والفستق ولا تشرب الا ماء الورد

المحلى بالسكر المكرر ، فيحمل الناس اليه اطنانا من هذا وذاك حتى تكدست لديه اكوام من اطيب الطعام والشراب ، وبلغت القصة مسامع الاميرات وزوجات الكبراء والقادة فكن يتسابقن إلى صنع القلائد الذهبية والاقراط والاساور ويبعثن بها الى الشيخ عبداللطيف ليزين بها جسد العنزة المباركة .



وكان الامير عبدالرحمن كتحدا من اشد الامراء حزما وحسما واكثرهم وعيا ورفضا لهذه الخزعات فارسل الى الشيخ عبداللطيف يرجوه ان يتعطف بزيارته في قصره وبصحبته العنزة حتى يتمكن اهل بيته من رؤيتها والتماس البركة منها ، وسعد الشيخ عبداللطيف بهذه الدعوة التي ستفتح امامه قصور الامراء والكبراء .. وحدد يوما لهذه الرحلة الميمونة فتجمع ارباب الطرق الصوفية في موكب مهيب لمصاحبته من مسجد السيدة نفيسة الى قصر الامير كتحدا المجاور لمسجد احمد بن طولون وامتطى الشيخ عبداللطيف بغلته وحمل العنزة في حجرة تحيط به الاعلام واليارق وتتقدمه الطبول والزمر .. وتهادى الموكب عبر شوارع الصليبة وسوق السلاح والناس يتجمعون من كل انحاء القاهرة لرؤية العنزة المباركة وهي تتربع في دهشة من هذا الحشد الغريب ولا تدري شيئا مما يدور حولها حتى اذا بلغ الموكب باب القصر نهض الامير هو وضيوفه من العظماء والوجهاء لاستقبال العنزة المباركة ، واستاذن الامير في ان تمضى العنزة الى جناح الحريم فرحب الشيخ عبداللطيف واعطاه العنزة فحملها الخدم الى المطبخ حيث انهالت عليها سكين الجزار فذبحتها وسلختها وتسابق الطباخون الى سلقها وتحميرها ، بينما اتخذ الشيخ عبداللطيف مكانه في صدر المجلس يروى للامراء مزيدا من الخرافات عن كرامات العنزة .



وحان موعد الغداء فامر كتحدا بعد السباط ، فدخل الخدم يحملون اطباق الفتة تعلوها هبر من اللحم الشهى .. وانهالت ايدي الامير وضيوفه تنهش اطيب اللحم .. وبين الحين والحين كان الامير يحث الشيخ عبداللطيف على تناول المزيد من اللحم قائلا : كل ياشيخ عبداللطيف هذه القطعة السمينة .. فيلتهمها

الرجل ممثنا .. والأمراء من حوله يتغامزون ويكتمون ضحكاتهم ،
حتى فرغوا من الطعام وشرب القهوة فنهض الشيخ عبداللطيف
مستأذنا في الانصراف ومعه العنزة . فقال له الامير عبدالرحمن ..
اى عنزة تقصد ؟؟
فقال خادم المسجد : العنزة المباركة التى دخلت جناح
الحريم !
فقال الامير : العنزة لم تدخل جناح الحريم مطلقا .. ولكنها
دخلت بطنك يا كاذب .. يا فاجر .. يا فاق .. وهذا دليل على ضلالك
المبين .



وبهت الرجل من هول المفاجأة التى وقعت على رأسه
كالصاعقة .. وحاول الافلات بجلده .. ولكن الامير امسك بخناقة
وامر مماليكه بضربه ستين عصا على رجليه .. ثم امر بجلد العنزة
فطرحه على عمامته وطاق به الجند شوارع القاهرة ليكون عبرة
لغيره من الافاقين والنصابين الذين يحتالون على الناس
بالاساطير التى تستغل عواطفهم الدينية .. والدين منها براء .

ياخفى الأنطاف

فى

الثانى والعشرين من اكتوبر ١٧٩٨ انطلقت اول قنبلة من المدافع الفرنسية المثبتة فى حصون القلعة ، فسقطت فى صحن الأزهر وتناثرت شظاياها ففتكت بالجموع التى احتشدت فيه ، ثم توالى سقوط القنابل حتى أوشكت جدران الجامع أن تتداعى على الاشلاء الممزقة والجثث المتراكمة . وكان وابل القنابل يتساقط من اعلى القلعة فيدمر الاحياء المجاورة للجامع العتيق ، ويحيلها ركاما ، وكان الأزهر فى حد ذاته هدفا مطلوبا ، فمنه انطلقت جذوة الثورة على الحملة الفرنسية ، وإلى رحابه لجأ الثائرون ، فاصبح بؤرة للوطنية المتأججة الى جانب كونه معقلا للعلم والدين . وكانت القلعة ، منذ بناها صلاح الدين الأيوبي على التلال المشرفة على العاصمة ، حصنا عسكريا منيعا ، هدفه حماية القاهرة من تهديدات الغزو الصليبي على الحدود الشرقية ، وربطها بحزام من الأسوار والابواب الضخمة التى لاتزال بقاياها قائمة عند بوابة الفتوح وبوابة المتولى وباب النصر وفم الخليج .. ولكن القلعة لم تستخدم ابدا فى تحقيق الهدف العسكرى الذى انشئت من اجله ، ولم تفلح القلعة مرة واحدة فى صد الغزاة الذين توافدوا على مصر ، بدءا بالجيش العثماني ، ومرورا بالحملة الفرنسية ، وانتهاء بالقوات البريطانية التى زحفت على القاهرة بعد اخمد الثورة العربية وهزيمة الجيش المصرى فى التل الكبير .. !! فيم إذن فائدة القلعة ..

● ● ●

لقد استقر فى عرف المؤرخين الذين رصدوا تاريخ القلعة ، انها لم تكن أكثر من حصن منيع لحماية حكام مصر ، وقمع الشعب اذا فكر فى التمرد او العصيان .. فالقاهرة بحكم موقعها على رأس الصعيد وعند مفترق الدلتا ، هى مفتاح الحكم فى مصر ، من يملكها يملك مصر كلها ، ومن يملك القلعة يملك القاهرة ، وكانت الفجوة القائمة بين القلعة والقاهرة على اتساع الفجوة القائمة بين الحكام الغرباء والمحكومين المغلوبين على امرهم ، فالقلعة تقف فى عليائها وقفة الشموخ والتحدى .. بينما العاصمة ترقد فى

سلامة وطمأنينة على ضفة النيل وبين أحضان الروابي الخضراء التي تحيط بها .. تكد وتكدح ثم تنام ملء جفونها وحكامها لا ينامون .. عيونهم دائما مفتوحة على المجهول .. وترصد كل مايجرى فى الأزقة والحوارى المكسدة تحسبا لما يخبؤه الغد . ولقد أدت القلعة الغرض الحقيقي منها .. ووفرت عنصر الأمان لحكام مصر على تعاقب الأجيال .. منذ الأيوبيين والمماليك والعثمانيين حتى أبناء محمد على .. كلهم عاش فى حصونها .. واحتتمى بقلعتها .. واستعلى على شعبها .. فلا يهبط الى المدينة إلا مضطرا .. وكان أول الهابطين هو الخديو اسماعيل بعد أن بنى قصر عابدين وجعله مقرا رسميا للحكم ، أما نابليون فقد أدرك المهمة الحقيقية للقلعة ، فمنذ دخوله القاهرة بدأ فى ترميم أبراجها ، وتدعيم حصونها استعدادا لليوم الموعود ..



ولقد أتى اليوم المرتقب ، عندما ثارت القاهرة على الفرنسيين ، فلم يتورع نابليون عن صب نيرانه الحامية على الجامع الأزهر وماجاوره من أحياء مكتظة بالأهالى .. يقول الجبرتى فى وصف هذه المذبحة : « فلما سقط عليهم ذلك وراؤه ، ولم يكونوا فى عمرهم عابنوه ، نادوا بإسلام من هذه الآلام ، ياخفى اللطاف نجنا مما نخاف ، وهربوا من كل سوق ودخلوا فى الشقوق ، وتتابع الرمي من القلعة والكيهان حتى تزعزت الأركان ، وهدمت فى مرورها حيطان الدور ، وسقطت فى بعض القصور ، ونزل فى البيوت والوكائل ، وأصمت الأذان بصوتها الهائل .. وبعد هجعة من الليل ، دخل الفرنج المدينة كالسيل ، ومروا فى الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، ثم دخلوا الى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالاروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع ، والودائع والمخبآت ، بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبارجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا فيه تغوطوا ، وبالوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب وكسروا أوانيها وألقوها بصحنه ونواصيه ، وكل من

صادفوه به عروه ومن ثيابه اخرجوه .. وخرجت سكان تلك الجهة يهرعون ، وللنجاة بانفسهم يطلبون ، وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد ان كانت اشرف البقاع ، وكثير من الناس ذبحوهم ، وفي بحر النيل قذفوهم ، ومات في هذين اليومين اأم كثيرة لا يحصى عددها
إلا الله » .

سنوات الحيرة

السنوات الخمس التي تلت جلاء الحملة الفرنسية
عن مصر، من أروع حلقات التاريخ
المصرى كفاحاً ونضالاً وحركة وحيوية ..

كانت

ولكنها تبقى - مع ذلك - أشد هذه الحلقات مدعاة للدهشة
والحيرة .. كانت هذه السنوات بمثابة لحظة اشراق بعد ليل طويل
حالك السواد ، وكان المتوقع أن يسفر الفجر الوليد عن حركة
تحرير كبرى يتخلص فيها الشعب المصرى من أغلال النظام
القديم ، ويتحرر من رق الترك والمماليك .. ولكن الثمرة الناضجة
وضعت على طبق من الفضة وقدمها السيد عمر مكرم بالهناء
والشفاء الى الضابط الألبانى المغامر محمد على ، ليحكم مصر مع
أبنائه وأحفاده قرناً ونصف قرن بالتمام والكمال .. وكاننا يابدر لا
رحنا .. ولا جينا .. !

والأمر المؤكد أن المصريين أفادوا من الحملة الفرنسية برغم
النكبات والكوارث التي سببتها لهم ، فالحملة التي ضمت كتيبة
من العلماء ، وحملت مع المدفع المطبعة والصحيفة والمعمل ،
تركت بصماتها على العقل المصرى ، وتسامع المصريون بأفكار
الثورة الفرنسية التي هزت عروش أوروبا ، وترددت بينهم أسماء
فولتير وروسو ومونتسكيو وأضربهم من آباء الفكر الليبرالى
ودعاة الحرية والمساواة ، وحق الشعوب فى التمرد على الطغاة
والمتجبرين ، ولا شك أن المصريين شاهدوا ولمسوا وتأثروا
بالنمط السياسى الجديد والتقاليد الجديدة التي جاء بها
الفرنسيون ، فلما غادروا مصر كانت الشراذم التركية والمملوكية
تتهدى لاستعادة مجدها الغابر .. كانت تمسك فى يدها الأغلال
والأصفاد لتضعها فى عنق الشعب المصرى مرة أخرى ، ولم يكن
من المعقول أن يتم لهم ما أرادوا بعد أن تجلى جبنهم وخورهم
وتخاذلهم أمام الفرنسيين ، لقد هربوا جميعاً من الساحة كالفرثان
المذعورة ، وتركوا المصريين وجهاً لوجه أمام قدرهم .. وأثبت
المصريون أنهم رجال من خلال الثورات والهبات التي قاموا بها
ضد الاحتلال الفرنسى ، ودفعوا ثمن الحرية بالدم والعرق
والدموع .. أفليس من حقهم بعد ذلك أن يستمتعوا بالحرية .. ؟
ليس من حقهم أن يتطلعوا إلى عصر جديد تتحدد فيه العلاقة

بين الحاكم والمحكومين على أسس جديدة ، ومفاهيم جديدة تختلف عن تلك التي كانت قائمة في العصر الوسيط .. ؟

● ولكن أى تحرر كان يريده المصريون .. ؟

● وماهو مفهوم الحرية الذى ينشدون .. ؟

هذا هو السؤال الصعب الذى تحار فى فهمه العقول .. ولكى نكون منصفين مع آبائنا وأجدادنا ، ولكيلا نقسوا فى أحكامنا عليهم ، يجب أن نضع فى اعتبارنا اختلاف المفاهيم بين عصرنا وعصرهم ، إذ من الخطأ الكبير أن نحكم على عصرهم بآراء عصرنا .. ومن الظلم والاحجاف أن نحاسبهم بتقاليد عصرنا ، التى تضع اعتبار الاستقلال الوطنى فوق كل اعتبار ، ولم تكن مثل هذه المفاهيم شائعة أو مطروقة فى زمانهم ، ولعل أوضح دليل هو تصرف الزعيم عمر مكرم الذى حمل لواء الثورة .. ولكنه انتهى بها الى احضان السيادة العثمانية ، وكان فى كل مافعل منسجما مع افكار عصره .. معبرا عن آراء مواطنيه التى لا ترى الأمان إلا فى ظللال السلطان ، ولا تتصور الانفصال عنه .

وإذا كان الأستاذ الرافعى قد ارتفع بالشعور القومى المصرى فى ذلك العصر الى مرتبة نظيره فى فرنسا وماحدثه من ثورة استقلالية كبرى ، فإن الدكتور حسين مؤنس يحذرنا من الاسراف فى هذا التقدير ، لأن المصريين لم يكونوا يطلبون الحرية والاستقلال كما نفهمهما الآن ، ولم يكن عمر مكرم نفسه يفهم الحرية باكثر من انها رفع المظالم وتخفيض الضرائب .

ويرى الدكتور مؤنس أن عمر مكرم لم يكن فريدا فى فهمه هذا .. بل كان مثله فيه كمثل كل الوجهاء وذوى اليسار والسطوة من اهل البلاد ، فمهما بلغت مطامعهم لم يكن أحد منهم يفكر فى ان يتولى بنفسه حكومة البلاد ، بل كان أقصى أمانهم أن يتقربوا إلى اولى الامر ، وأن يحظوا منهم بالعطف والرعاية ، وتلك نتيجة طبيعية للوضع السياسى الذى وجد الشعب المصرى نفسه عليه ، فى ظل الحكومات التى توارثت عليه من قديم الزمان ، إذ اضعف فيه ثقته بنفسه ، وجعله يخشى المسئولية ولا يقدر على اعباء الحكم ، فيكتفى بأن يكّله الى الأجانب ويتولى هو المعاونة والمساعدة ، وهذا مافعله عمر مكرم .. فقد ترك الامر طواعية لمحمد على وسلمه كل مقومات الحكم ، كأنه كان يشعر فى نفسه بأنه غير كفء له .

نجم الزعامة المصرية

كان

السيد عمر مكرم أقوى شخصية مصرية ظهرت على المسرح السياسى فى مطلع القرن التاسع عشر، ومع ذلك لم يفكر فى

تنصيب نفسه حاكما على مصر، والعلماء الذين صعدوا معه الى القلعة فى مايو ١٨٠٥ لخلع الوالى العثمانى خورشيد باشا، لم يخطر ببالهم ان يضعوا الصولجان فى يد ذلك الزعيم الصعيدى الاسيوطى الأزهرى، ووضعوه فى يد الضابط المقدونى المولد، العثمانى النشأة: محمد على، فضيعوا على مصر فرصة العمر، وحكموا عليها بأن ترزح قرنا ونصف قرن تحت نير اسرة اجنبية تضاف الى سلسلة الاسر التى حكمت مصر من قلاوونية وإيوبية وفاطمية وإخشيدية وطولونية.. وقبل كل هؤلاء كان حكم الرومان، وقبل الرومان كانت الاسر البطلمية الاغريقية التى استوطنت مصر بعد فتح الاسكندر لمصر عام ٣٣٣ قبل الميلاد. وبين المقدونى الاول والمقدونى الحديث واحد وعشرون قرنا عاشتها مصر تحت حكم الاجانب، ولم يستطع زعيم مصرى ان يخرق الستار الحديدى ويجلس على عرش بلاده.

إياك ان تقع فى شرك الذين يعلقون هذه الظاهرة على مشجب الاسلام، بحجة أنه يجمع بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية فى شخص الحاكم، وأن الرعية عليها ان تسمع وتطيع بصرف النظر عن جنسية الحاكم ولونه.. وأقول لك إن الاسلام برىء من هذه الأكاذيب التى روجها المرجفون لإخضاع الشعوب وتطويعها لحكم الجبابة والطغاة.. والاسلام لم يقل ان حكم مصر خلال لكافور الاخشيدى وابن طولون المنغولى وخوش قدم الالمانى الاصل.. وحرام على أبنائها..!!



لو تتبعنا تاريخ هذه الأسرات والدول، فسوف نكتشف بينها فجوات ضعف وانحلال كان من الممكن أن يسدها مصرى أصيل. مثلما حدث فى اعقاب جلاء الفرنسيين عن مصر وعودة الأتراك إلى حكمها وماحدث من صراع دموى بينهم وبين المماليك.. فى هذه الفترة المضطربة ظهر نجم الزعامة المصرية ممثلا فى شخص

السيد عمر مكرم .. ومع ذلك لم يفكر المصريون فى تنصيبه حاكما عليهم .. الأمر الذى يشكل علامة استفهام كبيرة ..؟؟
ولقد حاولت أن أتمس الجواب فى كتابات الباحثين والمؤرخين فلم أجد عند الاستاذ الراحل مايشفى الغليل ، وهو برغم إعجابه الشديد بالسيد عمر مكرم ، وبرغم مبالغته فى تقدير حجم الشعور القومى الذى بزغ أثناء تواجد الحملة الفرنسية فى مصر ، فإنه لم يشرح لنا سر انصراف الحركة الوطنية الوليدة عن ابنها البار التقى النقى .. واقبالها على الضابط المقدونى المجهول الأصل .. !

الدكتورة نعمات أحمد فؤاد ، فى كتابها القيم « شخصية مصر » حاولت أن تقدم تفسيراً خلاصته أن الموقف السياسى فى تلك الفترة الدقيقة كان يتطلب معرفة القوى الموجودة فى الساحة ووزنها بميزان دقيق ، كما يتطلب مهارة فى اللعب بها ، ومعها ، وقد عرف التاجر المقدونى من أين تؤكل الكتف ، ولم يكن علم هذا عند ابن البلد الطيب عمر مكرم .. وتضيف الى ذلك انبهارنا التقليدى بالغريب ..

أما الدكتور عبد العزيز الشناوى استاذ التاريخ الإسلامى .. فيقدم لنا فى كتابه عن عمر مكرم تفسيراً من خلال الظروف الثقافية والفكرية التى كانت تسود المجتمع المصرى يومئذ ، فالمجتمع كان مجتمعاً دينياً ، ولم يكن ينظر الى السلطان العثمانى على أنه حاكم أجنبى دخيل مستعمر ، بل نظر اليه على أنه سلطان الإسلام . وكان سلطان تركيا سعيداً جداً بهذه النظرة المقدسة ، فجعل من الدين ستاراً يخفى وراءه أغراضاً استعمارية ، والدين منها براء ، وكان الشعب المصرى متشبعاً بفكرة الوطن الإسلامى أكثر من تشبعه بفكرة الوطن القومى ، وبعبارة أخرى كانت العاطفة القومية ممزجة متشابكة مع العاطفة الدينية بحيث يصعب الفصل بينهما ، وكانت السياسة العليا للدولة العثمانية منذ غزو مصر فى عام ١٥١٧ تقضى بأن يكون والى مصر عثمانياً صرفاً ، بمعنى أن يكون عثمانى المولد والنشأة واللسان والعقلية ، فإذا تم اختيار عمر مكرم أو غيره من زعماء البلاد واليا لمصر ، لكان معنى ذلك - فى ضوء مفاهيم المجتمع الدينى - ثورة على النظام الذى أخذت به الدولة ، ونقضاً لمبدأ أساسى وضعه

سلطان الاسلام وخروجا على طاعته ..



وكان من الممكن أن يكون هذا التفسير مقبولا لو أن الشعوب التي حكمتها الامبراطورية قد استسلمت نهائيا ، واستنامت لتلك المفاهيم التي أشار اليها الأستاذ الفاضل ، ولكن الذي حدث أن الشعوب العربية لم تكف عن الشغب والتمرد والعصيان في مصر وسوريا ولبنان .. وثورة الدروز في القرن السابع عشر معروفة .. وفي مصر وجدنا في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر من يقود جيشا ليضم سوريا ، ويعلن الانفصال عن الامبراطورية ، وأعنى بذلك حركة على بك الكبير ، فالخروج على سلطان الدولة العثمانية كان أمرا شائعا .. بل أن محمد علي نفسه لم يكد يستقر على عرش مصر حتى شق عصا الطاعة على سادته ، وقاد جيشا مصريا واسطولا مصريا ليُنْزِلَ بهما عرش الأستانة .. فما المانع من عصيان الدولة العلية ونقض مبادئها بتعيين مصري على عرش مصر .. ؟؟

مهرجان الدم

تحدث

يوم أول مارس ١٨١١ موعدا لسفر الحملة المصرية بقيادة الأمير طوسون لإخماد الحركة الوهابية في الحجاز ، وخرج شعب القاهرة كعادته في هذه المناسبات ، الى الشوارع المحيطة بالقلعة لتوديع الجيش وسط اهزيج الفرح ودقات الطبول ، ولكن صيحات الفرح تحولت الى صرخات استغاثة ، وطفى صوت الرصاص على دقات الطبول ، وتحول الموكب السعيد الى مهرجان للدم .

في صباح ذلك اليوم تصدّر محمد على قاعة الاستقبال الكبرى في قصره بالقلعة ، وتوافد عليه العظماء مهئينين مباركين ، وانتهازا المماليك فرصة لإظهار ولائهم للعهد الجديد ، فقد خدمت الحروب الطاحنة التي دارت رحاها في صعيد مصر بين فلولهم وقوات محمد على ، ويئس المماليك من احراز نصر حاسم فهبطت عزيمتهم و اعربوا عن رغبتهم في إلقاء السلاح ، وتظاهر محمد على بقبول الصلح فاعطاهم الامان ، وسمح لهم بالعودة الى القاهرة ليعيشوا في قصورهم بين حريمهم وغللمانهم حياة الرغد واللهو والفجور ، ولم يفتح المستبد الداخلي بهذا الاستسلام وراى ان الحل الوحيد هو استئصالهم من الجذور ، حتى لا تبقى امامه قوة مناوئة تصرفه عن الهدف الاكبر وهو الانفراد بحكم مصر .

● ● ●

ذهب البكوات المماليك الى القلعة يرفلون في ثيابهم المزركشة الفضفاضة وقد تمنطقوا بالسيوف الذهبية البراقة دون البنادق ، واستقبلهم محمد على بالبشر والترحاب وابدى لهم من طرف لسانه جلاوة اسكرتهم ونزعت من نفوسهم كل ريبة ، وهم الذين تربوا منذ نعومة اظفارهم على الشك والمكر والخداع ، ولكنهم في هذا المضمار كانوا مجرد تلاميذ في حضرة الداهية الاعظم الذي قراوا عليه يوما صفحات من كتاب ميكافيللي فسخر منه وقال : انا اعرف اكثر منه .. !

ودوى النفير ايزانا بتحريك الجيش ، فانتصب محمد على

واقفا ، ونهض الامراء المماليك يستأذنونهم فى الانصراف ، فاوحى اليهم أنه سيكون أكثر حبورا لو أنهم شاركوا فى المهرجان كى يراهم شعب القاهرة وهم فى صحبة الجيش ، وتلقف المماليك الطعم شاكرين ، واعتبروا مطلبه زيادة فى الكرم وحسن النوايا ، وبدأ الموكب سيره حسب الخطة المرسومة : فى المقدمة جوق الطبول والموسيقى ثم طليعة الفرسان ، وبعدها كتيبة الجنود الالبان بقيادة صالح قوش أحد اربعة رجال اشتركوا مع محمد على فى تدبير المؤامرة ، وبعدهم جموع البكوات المماليك على صهوات جيادهم المظلمة ، وتهادى الموكب من باب القصر ثم انحرف يسارا ليجتاز طريقا ضيقا وعرا منحوتا فى الصخور ويتدرج فى الانحدار حتى باب العزب الذى يفضى الى ميدان الرميّة (صلاح الدين حاليا) . وعبرت الفرق الاولى باب العزب ، ثم انغلق الباب غلقا محكما ، وفى سرعة خاطفة تسلق الالبان بأسلحتهم النارية قمم الصخور المتاخمة للطريق ، بينما كانت جموع المماليك تتقدم نحو الباب ولا يدرون شيئا مما يجرى حولهم ، وفى نفس الوقت كانت صفوفهم الخلفية تواصل سيرها حتى اذا اكتمل عددهم انغلق الباب الذى دخلوا منه فباتوا محصورين فى هذا الخندق الصخرى الضيق ..

* * *

وفجأة .. دوت طلقة نارية فكانت اشارة بدء المذبحة ، وبعدها انفتحت افواه البنادق كالسيل المنهمر يحصدهم حصدا فلا يستطيعون فككا ، وصدمتهم المفاجأة وانسدت فى وجوههم ابواب النجاة من هذا الجحيم المستعر ، وتلاطمت خيولهم وساعد دوى الرصاص على إثارتها فازدادت هياجا كانها حُمّر مستنفرة فزّت من قسورة .. واخذت الخيل تلفظ سادتها عن ظهورها وتدكهم باقدامها دكا وكانها تنفذ دورا مرسوما لها فى المؤامرة ، ومن حاول منهم تسلق الصخور عاجلته رصاصته يهوى بعدها الى الحفرة صريعا او جريحا فتدهسه الخيل النافرة ، اما الوحيد الذى نجا بحياته فهو امين بك الذى كان فى مؤخرة الراكب ، فما إن سمع دوى الرصاص حتى ركض بجواده نحو اسوار القلعة ثم لكز الحصان بقوة فهو يهوى به الى الوادى السحيق وتهشم الجواد ونهض الامير فاطلق ساقيه للريح فى صحراء المقطم ، ولم يكف عن الجرى حتى وصل لبنان لا ئذا باميرها بشير الشهابى .

على موائد اللّنام

لم تكن مذبحة القلعة هي فصل الختام في الماساة المروعة التي خطط لها محمد علي بإتقان ، فالبكوات المماليك الذين ذهبوا الى احتفال القلعة وحصدتهم رصاص الألبان كانوا ٤٠٥ فقط ، اما بقية المماليك فكانوا - وقت المذبحة - آمنين في قصورهم المنبثة في الجمالية والأزبكية والناصرية ولا يدرون شيئا مما جرى لزعمائهم ، فما إن سكن غبار المذبحة حتى انقض الجند الألبان على قلب القاهرة يذبحون المماليك في عقر دورهم ويستحيون نساءهم ، وينهبون أموالهم . كانت تعليمات الإبادة صريحة حتى لا يبقى على ظهر الأرض من المماليك دينار ، ولقد نفذ الألبان المهمة الموكولة اليهم وقد تملكته شهوة السلب والانتقام من أعدائهم الألداء ، حتى باتت القاهرة في ذلك اليوم المشئوم اشبه بمدينة مفتوحة امام غزوة تترية ، وعاث الجند فسادا في المدينة الآمنة ، ولم يسلم المصريون من هذه المحنة القاسية ، فاصابهم بعض ما اصاب المماليك من عمليات النهب والسلب وهناك الاعراض ، ورغم ان اهل القاهرة سارعوا الى اغلاق حوانيتهم ولجأوا الى بيوتهم بمجرد سماعهم نبأ المذبحة ، إلا ان الوحوش الكاسرة لم تفرق بين قصور المماليك وبيوت المصريين ، فاستباحوا كل ما تصل اليه أيديهم واستمرت الفوضى ثلاثة أيام بلياليها ، ولم تتوقف إلا بعد أن نزل محمد علي بنفسه الى شوارع المدينة ، وتمكن من كبح جماح جنوده واعاد الانضباط الى المدينة التعيسة . وفي نفس الوقت الذي دارت فيه عمليات الإبادة في القاهرة ، كانت هناك عمليات مماثلة في الاسكندرية وبقية المدن التي يتواجد فيها المماليك ، ولم يفلت منهم إلا من أسعده القدر بالهروب الى الصحراء بحثا عن كهف مظلم أو قبر مهجور يأوى اليه .



وانطوت الى الأبد من تاريخ مصر صفحة المماليك بعد خمسة قرون أو تزيد عاشوها في احضان مصر المحروسة ، يتقلبون في اعطاف نعيمها وينهلون من رضاب نيلها ، اولئك هم الصعاليك الذين جاعوا الى مصر غلمانا يباعون في أسواق النخاسة ، فما هي

إلا عشية وضحاها حتى أصبحوا ملوكا يدين الناس بالطاعة لهم ،
ويدعون لهم بالنصر والعز والتأييد . وقن الدعاء للحاكم - إن لم
تكن تعلم - قن مصرى قديم أتقنه المصريون منذ دالت دولتهم ،
وخبا عزهم ، وأصبحوا غرباء فى ديارهم ، ثم باتوا كالايتام على
موائد اللئام .. ولكن هؤلاء اللئام لم تكن صفحة حياتهم خالية من
ومضات المجد والعظمة ، فهم الذين دافعوا عن مصر والشرق
الاسلامى يوم اطبقت عليه جحافل المغول من الشرق ، وجيوش
الصليبيين من الغرب ، وهم الذين فتنوا بجمال العمارة ، وتلك
آثارهم تدل عليهم فى المساجد والمدارس والأضرحة والأنسلة .
ولو سرت يوما فى القاهرة المعز ، فاعلم ان كل ما تقع عليه عينك من
اثر عظيم - بما فيها الأزهر نفسه - إنما من وحى عشقهم لل عمران
والتشييد .



فوارحمتاه على اولئك الصناديد الذين تزيّوا على صهوات
الحياء ، وانصهروا فى غبار المعارك ، ولم يعرفوا إلا لغة الحرب ،
فأذلوا كبرياء هولاء فى عين جالوت ، واسروا لويس التاسع فى
المنصورة ، وحرروا القدس من دنس الصليبيين ، وأزالوا آخر
قلاعهم فى عكا ، ومسحوا وجودهم عن خريطة الشرق الاوسط .
وواصفاه عليهم حين خلدوا الى النعيم واللهو ، والمجون ،
وانحبسوا فى مخادع الحريم والغلمان ، فلانت قناتهم ، وذابت
صلابتهم ، وانطفأ وهجهم ، وصدئت سيوفهم من طول مانامت فى
اغمارها ففقدوا مبرر وجودهم ، ولم يبق منهم سوى ثياب مزركشة
مضحكة ، وخيول مطهمة ، وسيوف مطعمة بالماس والزمرد ،
وكلها أشياء تصلح للعرض فى المتاحف ولا تصلح لمواجهة
تطورات العصر الحديث .

وقبل أن يَفنى الممالك على يد محمد على ، كانت عوامل الفناء
الذاتى قد حكمت عليهم بالموت البطيء ، لقد ظنوا ان العالم
سوف يتوقف عند اللحظة التى شهدت امجادهم ، وتقوقعوا داخل
شرنقة الغرور والاستعلاء والجهل ، وماردوا انهم صنعوا اكفانهم
بايديهم ، ودخلوا مرحلة الفناء البطيء حين تجاهلوا حركة
التاريخ .. فلما أجهز عليهم محمد على لم يجدوا احدا يبكى عليهم
أو يأسف على ماساتهم .

إنها عبرة التاريخ لمن يريد أن يعتبر .

عبد مأمور

محمد بك الدفتردار احد السواعد القوية التي اعتمد عليها محمد علي في تثبيت حكمه وتشديد قبضته على الشعب المصري ، وقام

كان

فى هذا السبيل بدور لا يقل كفاءة عن الادوار التي قام بها ابراهيم باشا أكبر أبناء الوالى ، والكتخدار محمد لاطوغلى نائب الوالى ، وصالح قوش بطل مذبحة القلعة ، وغيرهم من اركان النظام الجديد ، وكلهم جاءوا برفقة محمد علي ، جنودا فى جيش الاحتلال العثمانى الذى وصل مصر فى فترة الفوضى التي اعقبت خروج الحملة الفرنسية ولكنهم لم يخرجوا من مصر ابدا .. واصبحوا سادة البلاد والمتحكمين فى مصيرها على مدى قرن ونصف قرن من الزمان .

وكان محمد الدفتردار وحشا كاسرا يحمل بين جنبيه قلبا صخريا لا تعرف الرحمة أو الشفقة سبيلا اليه ، كان عاشقا للدماء ، يطرب لمشهد الرؤوس وهي تطير فى الهواء ، ولا يتورع عن ارتكاب ابشع المذابح لأوهى الاسباب ، فكان مجرد ذكر اسمه يثير الفزع والرعب فى نفوس سامعيه . وكان محمد على يستخدم هذا النوع من البشر لفرض سيطرته وإحكام قبضته على ربوع مصر ، ومنع المصريين من التمرد على نزعتة الاستبدادية ، فجعله من خاصته المقربين ، ولكى يضمن ولاءه الى الابد رَوَّجَه ابنته زهرة هانم ، فاصبح واحدا من اعضاء الأسرة المالكة ، وحدث أن كان الدفتردار يطوف على بعض القرى عندما تقدم منه فلاح بائس عارضا شكواه فقال : لقد تأخرت عن سداد الضريبة المستحقة على قدرها ستون قرشا ، ولكن ناظر الارض أبى إلا الدفع ، فاستولى على بقرتى الوحيدة وامر جزار القرية بذبحها ثم قسمها ستين جزءا وامر بتوزيعها على الفلاحين بواقع قرش واحد للجزء ، واعطى الجزار راس البقرة لقاء عمله ، وبعد أن جمع المبلغ مضى وتركنى دون أن أتذوق حتى ولو قطعة واحدة من لحم البقرة التي كنت اعتمد عليها فى زراعتى .. وكانت تساوى ضعف المبلغ الذى جمعه .

فلما فرغ الفلاح من قصته مضى الدفتردار الى القرية ، واطلق

المنادى يطلب من اهلها التجمع فى الجُرن . والتف الفلاحون فى شبه حلقة ، بينما بعث الدفتردار فى استدعاء الناظر والجزار الذى ذبح البقرة ، ثم أمر الجند بتكبير الناظر بالحبال والقائه فى وسط الحلقة ، وتوجه بالحديث الى الجزار قائلا : كيف سمح لك ضميرك بذبح بقرة هذا الفلاح المسكين وهى كل ما يملك من حطام الدنيا ؟ فارتعد الجزار ولكنه تمالك نفسه وقال للدفتردار : انى يامولاي ، عبد مامور .. ولم افعل سوى ما امرنى به الناظر .. فسكت الدفتردار برهة كانها دهر والقى بسهام نظراته النارية على الناظر المطروح ارضا ، وقال للجزار : لو امرتك بان تذبح الناظر مثلما ذبحت البقرة .. فهل تفعل ؟ فقال الجزار على الفور : لقد قلت يامولاي انى عبد مامور ، اطيع الاوامر التى تصدر الى من سادتى .. عندئذ انتصب الدفتردار واقفا وصرخ فى وجه الجزار : اذن فانى امرك ان تذبح هذا الوغد .. فخف الجزار مسرعا واخرج السكين من جيبه ، وانقض على رقبة الناظر فحزها حتى فصل راسه عن جسده .. وساد الوجوم اهل القرية .. وجمدت الدماء فى عروقهم وظلوا واقفين مذهولين امام هذا المشهد الرهيب .. وبعد ان فرغ الجزار من مهمته نهض منتظرا باقى الاوامر . فقال له الدفتردار : والآن امرك ان تقطع جثته ستين اربا .. ماعدا الراس .. ومضى الجزار فى تنفيذ الامر بهمة ونشاط حتى فرغ من تقطيع الجثة ستين اربا .. وهنا التفت الدفتردار نحو اهالى القرية صارخا : على كل منكم ان يشتري قطعة ويدفع قرشين .. وصدع الاهالى بالامر .. اخذ كل منهم قطعة من لحم الناظر ووضع قرشين . فلما تجمع مبلغ مائة وعشرين قرشا تناولها الدفتردار . ودفع بها الى الفلاح المنكوب ليشتري لنفسه بقرة جديدة .. ثم التفت الى الجزار وقال : « كما انك اخذت راس البقرة جزاء لك على تعبك ، خذ بالمثل راس الناظر جزاء لك على تعبك فى ذبحه وتقطيعه » وانطلقت منه ضحكات فظيعة كانها زلزال مدمر .. ثم نهض وغادر القرية ومن خلفه جنوده .. بينما اهل القرية ذاهلون .. وكأنهم يشهدون كابوسا كريها ..

لقد ظن هذا الوحش البشرى انه اقام عدلا ، ومحا ظلما .. !! ومادرى ان العدل الذى يتحقق عن طريق الإرهاب والعنف هو عين الظلم .

سياسة بلا أخلاق

كان أمير البحر أحمد فوزى باشا قائداً للأسطول التركي في الوقت الذي بلغ الصدام فيه ذروته بين مصر وتركيا . كان محمد علي قد أدان الجيوش التركية مرارة الهزائم المتتالية في الشام والأناضول ، وباتت القوات المصرية على مرمى حجر من عاصمة الامبراطورية العثمانية فزلزلت دعائمها وهددت بزوالها . وفي هذا الوقت الحرج مات السلطان محمود - سلطان الأتراك - وخلفه غلام في السابعة عشرة اسمه عبد المجيد ، أسلم زمام الدولة إلى خسرو وعيّنهُ صدراً أعظم . والمصريون يذكرون هذا الرجل الذي جاء إلى مصر واليا من قبل الدولة العلية مع بداية ظهور محمد علي ولكنه فشل في اقتلاعه من مصر ، فعاد إلى بلاده خائباً وهو يقطر حقداً على محمد علي .

وكما جرت عليه العادة في دول الشرق منذ القدم ، فإن فترات الانتقال من حاكم إلى حاكم تكون نعمة على البعض ، مثلما هي نكبة على البعض الآخر ممن لا يكون هواهم مع النظام الجديد ، فتعمل الدسائس والمؤامرات عملها في الإيقاع بهم وتصفيتهم جسدياً وسياسياً ، وكان القيودان أحمد فوزى باشا من هؤلاء الذين يتوقعون الشر من جانب خسرو باشا بسبب (خصوصية) قديمة بينهما . لذلك لم يكد فوزى باشا يتلقى أمر استدعائه إلى الأستانة حتى أوجس في نفسه خيفة ، وأدرك أنه إما مقتولاً وإما معزولاً . فاشار عليه بعض أعوانه بفكرة اللجوء إلى مصر وتسليم الأسطول التركي إلى محمد علي غنيمة خالصة فينال حظوته ويضمن لنفسه موقعا أثيرا في دولة النجم الصاعد ، واستحسن الرجل الفكرة فاقبل بالأسطول الضخم سرا من مياه الدردنيل إلى الاسكندرية وعلى ظهره أكثر من ٢١ ألف بحار وجندي . واستقبل محمد علي الأسطول التركي بالجفولة والترحاب ، فبانضمامه إلى البحرية المصرية أصبحت مصر أقوى دولة بحرية في البحر الأبيض المتوسط . ولقى فوزى باشا عند سيده الجديد الحظوة التي كان يتوقعها .

ولكن الرياح لم تجر بما كان يشتهي أمير البحر التركي ، ولا بما

كان يتمنى محمد علي ، فقد لعبت الدول الأوروبية - بزعامة انجلترا - لعبتها المعروفة لإجهاض نهضة محمد علي وقصصته اجنحته التي امتدت الى الحجاز وفلسطين وسوريا والمورة والاناضول ، واسفرت المؤامرة الأوروبية عن إبرام معاهدة لندن التي اعادت الجيوش المصرية الى معاقلها الأصلية . وبعدها أصدر السلطان العثماني فرمانا ينظم شكل العلاقة الجديدة بين مصر ودولة الخلافة ، وكان من بين بنوده إعادة الاسطول التركي والعفو عن جميع رجاله باستثناء القبودان احمد فوزى باشا ، فكان لابد من تسليمه حتى يلقي جزاء خيانتته .

واسقط في يد محمد علي ، فلا هو يستطيع مقاومة امر السلطان ومن خلفه الدول الأوروبية المتحفزة ، ولا هو يستطيع تسليم الرجل الذي التجأ إليه فتضيع هيئته أمام أتباعه ومعظمهم من الترك ، وشعر السلطان بحرج موقف محمد علي وأراد أن يسهل عليه الامر ويخرجه من المازق فبعث إليه بأنه ليس من الضروري تسليم القبودان الخائن حيا .. فالمهم أن يدفع ثمن خيانتته سواء في مصر أو في الآستانة .. فكلها بلاد السلطان ، وفهم والى مصر مغزى الإشارة فنهض من فوره إلى خزائنه الخاصة وأخرج منها قنينة سموم صغيرة واستدعى أحد خاصته وإعطاه القنينة وكلفه بمهمة التفاهم مع فوزى باشا لإخراج والى مصر من ورطته . وذهب الرسول الى قصر فوزى باشا وأخذ يلاطفه ويحدثه حديثا عن متاعب الحياة الدنيا وكيف أن متاعها زائل .. وأن النعيم الحقيقي في الحياة الآخرة وأن ماعند الله خير وأبقى وأنه يحسن بالمرء أن يكون مستعدا لمقابلة وجه ربه الكريم في أية لحظة يشاء الله فيها أن يستدعيه اليه . وما أسهل الموت إذا جاء للإنسان في جرعة ماء أو فنجان قهوة .. !! وفهم القبودان معنى الكلام ، فقام فتوضأ وصلى العصر وختم الصلاة بالدعاء والاستغفار .. ثم التفت الى فنجان القهوة المسمومة فتجرعها في صبر واستسلام وهو يهذى بالتركية : قسمت .. قسمت .. !!

شارع سليمان باشا

يُذكر تاريخ « الجهادية » المصرية إلا مقترنا باسم محمد علي الكبير مؤسس مصر الحديثة ومعه سليمان باشا الفرنساوي ساعده الأيمن في بناء أول جيش مصرى صميم منذ انحلت الفيالق المصرية في أواخر عصر الفراعين وسقوط مصر تحت سنايك الغزاة .



الفان من السنين عاشها المصريون محرومين من شرف الجنديّة ، لا يحملون سلاحا يدافعون به عن وطنهم ، فقد أراد لهم حكامهم أن يحملوا - فقط - الفئوس . حتى باتت كلمة « فلاح » مرادفة لكلمة « مصرى » في قاموس الشراذم الأجنبية التي تكالبت على مصر كما تتكالب الأكلة على قصعتها .. !

بقى هذا الحال المهين إلى أن ظهر محمد علي ، على مسرح الحياة المصرية ليحرك ركودها ، ويدفع الدماء الفتية في عروقها التي تجمدت بفعل القهر والطغيان والجهل والانفلات .. ورأى هذا الثعلب العبقري أن أول خطوة في بناء دولة مصر العالمية إنما تبدأ من بناء جيش نظامي حديث على نمط الجيوش الأوروبية التي تعالي صليلها خلال الحروب النابليونية ، وجرب محمد علي أن يجعل من (الباشبورق) وهم اخلاط من الأرناؤوط والشركس والدلاة - نواة الجيش النظامي ، ولكن هل يستطيع من نشأ على الفوضى والشغب والتمرد والخيانة والغدر أن يخضع لأصول الطاعة و النظام والضبط والربط واحترام القيادة .. ؟ مستحيل ...

وفشلت التجربة فشلا كاد يطيح بمركز محمد علي نفسه .. فأتجهت انظاره الى الفلاحين .. هل استقرا محمد علي نبض التاريخ فتذكر أمجاد الجيش المصرى أيام كان يصلو ويجول في تخوم الشرق تحت رايات أحمرس وتحوتمس ورمسيس .. ؟ !

لا اظن .. فلم يكن عزيز مصر من أولئك الحكام الذين يحبون الثقافة واستقراء التاريخ ، ولكن من المؤكد أنه كان خبيرا في كشف معادن الرجال .. فادرك بفراسته أن هذا الفلاح الخامل سوف يأتى بالاعاجيب إذا تهيأت له الظروف الصالحة ..

وبدا محمد على من نقطة الصفر ..
وساقت إليه الأقدار ضابطا فرنسيا من بقايا حروب نابليون
اسمه الكولونيل (سيف) فعهد اليه العزيز بمهمة تكوين النواة
الأولى من الضباط الذين سوف يعاونونه على تدريب الجنود
المصريين . واختار له ٥٠٠ من خاصة مماليكه ليبدأ بهم ، واختار
له أسوان لتكون (وكر) لهذه المهمة العويصة بعيدا عن مؤامرات
الباشبوزق ومقاومتهم لكل جديد . واستغرقت عملية التدريب ثلاث
سنوات ذاق خلالها (سيف) الأمرين لتطويع هذه العناصر
الفوضوية وتهذيبها .. واعتنق (سيف) الاسلام وأصبح اسمه
(سليمان) فزال الحاجز النفسى بينه وبين تلاميذه الضباط وأظهر
لهم من ضروب الشجاعة والصبر وسعة الصدر ما جعل حقدهم
عليه ينقلب الى حب واحترام واجلال .



حدث مرة أن دبر تلاميذه مؤامرة لاغتياله اثناء التدريب على
ضرب النار ، فاطلق أحدهم عليه رصاصة مست اذنه وأطلقت
بقبعته . وبدلا من أن ينتقم سليمان من القاتل ، أمسك بالبندقية
واتخذ مكان القاتل فى الصف وأخذ يصوب الرصاص نحو الهدف
وهو يريد : هكذا يكون التصويب ياغبى .. ! وكان من الطبيعى أن
تترك هذه التصرفات النبيلة أثرها فى تلك النفوس الصخرية ،
فاذابت من جمودها وغرورها .

وبعد تكوين الدفعة الأولى من الضباط بدأت عملية البحث عن
الجنود ، وكان من الطبيعى أن تلقى دعوة التجنيد نفورا وكراهية
من المصريين لبعد المسافة الزمنية بينهم وبين هذا الواجب
الوطنى ، فضلا عن الطريقة البشعة التى سلكها زبانية محمد على
لجمع الفلاحين . إذ كانوا ينقضون على القرى الآمنة كالوحوش
الكاسرة ويأسرون كل من يقع فى أيديهم من الرجال والنساء
والاطفال ويسوقونهم فى الحبال إلى معسكرات التجنيد فى
المدن .

ولكن المشروع مضى فى طريقه المرسوم ، وبقي سليمان باشا
الفرنساوى على رأس الجيش يعلم ويدرب وينظم وينشئ
المدارس الحربية ويستدعى الخبراء من الخارج ويرسل البعث
إلى أوروبا لتتخصص فى الفنون العسكرية ، ولم يكن سليمان باشا

أقل من سيده أعجابا بالفلاح المصرى . ويؤثر عنه قوله « إن العرب (يريد المصريين) هم خير من رأيته من الجنود ، فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد على المتاعب مع انشراح النفس وتوطئتها على احتمال صنوف الحرمان . وهم بقليل من الخبز يسبغون طول النهار يحدوهم الشدو والغناء ، ولقد رأيتهم فى معركة (قونية) يبقون ساعات متوالية فى خط النار محتفظين بشجاعة ورباطة جأش تدعوان إلى الإعجاب دون أن تختل صفوفهم أو يسرى إليهم الملل أو يبدو منهم تقصير فى واجباتهم وحركاتهم الحربية » .

وظل سليمان باشا الفرنساوى يواصل مهمته الجليلة حتى عصر سعيد باشا ، ودخل فى نسيج المجتمع المصرى ، فتزوجت إحدى بناته بمحمد شريف باشا (أبو الدستور) فانجب منها فتاة تزوجت عبد الرحيم صبرى باشا وأثمر هذا الزواج فتاة هى ملكة مصر السابقة (نازلى) أم الملك الراحل فاروق .

وتقديرًا من المصريين لهذا الرجل الذى يرجع إليه الفضل فى بناء أول جيش مصرى صميم ، أقاموا له تمثالا فى الميدان المسمى باسمه وأطلقوا اسمه على أحد شوارع القاهرة ، فلما قامت ثورة الجيش فى يوليو ١٩٥٢ أطاحت بالتمثال وألقت به فى ساحة المتحف الحربى ، ونزعت اسمه من الميدان والشارع وأطلقت عليهما اسم طلعت حرب ، ومع ذلك لا يزال المصريون يفضلون استعمال اسم (شارع سليمان) ربما لأنه أسهل .. وربما وفاء منهم لذكرى هذا الرجل العظيم .

قتيل بنها العسل

كان

عباس الأول أسوا ملوك أسرة محمد علي . بل أسوا الحكام الذين توالوا على ملك مصر .. كان يجمع بين الجهل والغباء .. وتنطوى نفسه على شردفين نحو كل الناس بمن فيهم اهله والمحيطون به ، حتى انفض من حوله معظم أفراد الأسرة العلوية هربا بربابهم من أن تنالها سيوف الوالى .

حكم عباس الأول مصر ست سنوات كانت ديجورا داكنا ليس فيه خيط نور .. وقد تولى الحكم فى حياة جده محمد علي ، بعد وفاة عمه البطل المغوار ابراهيم باشا .. ورغم أن عمه سعيدا كان من أولاد محمد علي - إلا أن نظام الوراثة الذى فرضه الانجليز والعثمانيون على محمد علي بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، كان يقضى بأن يكون الحكم لأكبر أفراد الأسرة سنا .. وشاء الحظ العاثر أن يكون كبير القوم أجهلهم وأغياهم .. وهذا أكبر دليل على فساد نظام توريث الحكم .. فمن يضمن ألا يكون الوريث فاسدا متلافا بيدد ثروة لم يتعب فى جمعها ، ويهدم ما بناه أسلافه .. ! وهذا ما فعله عباس ، إذ أغلق المدارس والمصانع والمؤسسات التى بناها جده .. واستدعى البعثات التى كانت تتلقى العلم فى أوروبا .. واستدار نحو العلماء الذين رباهم محمد علي .. ومنهم رفاعة الطهطاوى - فشئت شملهم ونفاهم إلى اقاصى السودان ليأمن « علمهم » .. !

■ ■ ■

وكان عباس الأول مثل الخفافيش .. يكره النور .. ويستوحش من الناس ، ولا يتحرك إلا فى الظلام .. فهجر القاهرة وأقام لنفسه عدة قصور فى بطون الصحراء ، كان أضخمها قصر فى العباسية - وكانت فى ذلك الوقت صحراء موحشة - كما بنى قصرا فى صحراء السويس ، وقصرا فى العطف ، وقصرا على النيل فى بنها العسل .. وهو القصر الذى لقي فيه مصرعه .. وكان يأوى إلى تلك القصور ليبعد عن الناس ولا يحيط به الا شرذمة من العبيد والغلمان ..

وقد اختلفت الروايات فى مؤامرة مقتل عباس ، فمن قائل إن

عمته الأميرة زهرة - أرملة محمد بك الدفتردار - هي التي دبرت المؤامرة من منفاها في تركيا . وكانت تعرف شغف ابن أخيها بالغللمان فدست له غلامين جميلين كلفتهما بالسفر الى مصر والتحابل على الالتحاق بخدمته وقتله ، فلما جاء الغلمان الى القاهرة عرضا نفسيهما في سوق الرقيق ، وكان لعباس وكيل متد حصص في شراء الغلمان المرد .. فما إن وقع بصره عليهما حتى اشتراهما والحقهما بخاصة الأمير .. وكان من عادة عباس أن ينام في حراسة غلامين ، فلما جاء الدور على هذين الغلامين انتظرا حتى غط في النوم ثم دخلا عليه وأخذا أنفاسه ثم أسرعوا الى الهرب الى الاسكندرية ومنها الى استانبول قبل اكتشاف الجريمة وهناك قبضا ثمن المهمة من عمه الأمير .

وهناك رواية أخرى تقول أن مقتل عباس كان جزءا من مؤامرة من مؤامرات القصور التي كانت شائعة في ذلك العصر . وخلاصة القصة أن عباس كان يصطفى بعض عبيده المقربين ويفرق عليهم الرتب العسكرية والأراضي الشاسعة على غير كفاءة يستحقونها ، وكان على رأس هذه الشُرذمة مملوك اسمه خليل بك درويش ، ولكنه يدافع الغطرسية والغرور أساء معاملته رؤوسيه فاستطالوا عليه بالغمز واللمز ، وخاصة أنه كان جميلا صغير السن ، فشكاهم الى مولاه فأمر بجلدهم وتجريدتهم من الوظائف العسكرية والحقهم بخدمة الاسطبلات . ولجأ هؤلاء المنبوذون إلى مصطفى باشا أمين خزانة الأمير ليتوسط لهم عنده ، فانتهاز فرصة قدوم الوالى الى قصر بنها ومعه أحمد يكن باشا وأبراهيم باشا الألفى محافظ القاهرة ، ورجاهما التوسط لدى الوالى ليعفو عن أتباعه ، فاستجاب عباس لهما وعفا عنهم وأعادهم الى مناصبهم فجاءوا الى بنها ليرفعوا له تشكراتهم وهم يضمرون قتله ، فاتفقوا مع غلامين من خاصة عباس كانا يحرسانه وهو نائم ففتحا لهم الباب ودخلوا غرفة الأمير فشعروا بهم وحاول المقاومة .. ولكنهم تكالبوا عليه حتى تمكنوا من خنقه ثم لاذوا بالفرار .. فلما كان الصباح ولم يستيقظ الوالى في موعده دخل عليه يكن باشا والألفى باشا فوجداه مخنوقا في فراشه ، فكتما الخبر ثم نقلوا جثمانه الى القاهرة وهناك أعلن خبر قتله ، فتنفس الناس الصعداء .. وأحسوا بارتياح شديد كان كابوسا ثقيلا انزاح من فوق صدورهم .

النبأ السعيد

اشتدت وطأة المرض على والى مصر محمد سعيد باشا ، نصحه أطباء أوروبا بالعودة الى بلاده ليلفظ فيها أنفاسه بدلا من البهدلة

لها

فى بلاد الفرنجة .. واستجاب سعيد لنصيحة أطبائه وعاد إلى قصره بالاسكندرية ينتظر ملك الموت بين لحظة وأخرى ، ولم يكن اسماعيل - وريثه على العرش - اقل استعجالا لنهاية عمه حتى يستريح من الآلام المبرحة ، ويقفز هو إلى عرش المحروسة ، وذاعت اخبار احتضار الوالى فى انحاء البلاد ، وبدأت الأنظار تنصرف عن الشمس الغاربة فى مياه الاسكندرية وتتجه نحو قلعة القاهرة حيث يقيم الوالى المنتظر ، وأخذت زرافات المنتفعين والوصوليين ومحترفى السلطة تتحرك نحو القلعة ترقب النجم الصاعد .. وتحجز لنفسها مكانا فى دولة اسماعيل المقبلة .

● ● ●

وكان من عادة ذلك الزمان ان يتعطف الحاكم الجديد بالإنعام برتبة البكوية على أول شخص يحمل إليه نبأ الولاية ، أو برتبة الباشوية إن كان يحمل رتبة البكوية ، فضلا عن صرة من العملات الذهبية ، وكان رئيس مكتب التلغراف بالقاهرة - ويدعى بسى بك - يعرف هذا التقليد فكان أشد الناس تحرقا إلى تلقى نبأ موت الوالى سعيد فيكون أول من يزف (النبأ السعيد) الى اسماعيل .. وظل الرجل مرابطا فى مكتبه لا يغادره ليلا ولا نهارا .. وبين الحين والآخر يتصل بزميله رئيس مكتب تلغراف الاسكندرية يستعجله الخبر ، ومرت الأيام والليالي ، والمسكين لا يذوق طعم النوم حتى أوشك على الانهيار ، ثم خطر له أن يتمدد لبضع دقائق يختطف فيها قسطا من الراحة حتى يتمكن من مواصلة العمل ، فاستدعى معاونه - وكان رجلا خبيثا - وقال له : انت تعرف طبعا ياعزيزى أهمية خبر وفاة الوالى وتعرف انه سيعود علينا بالخير العميم ..

قال معاون فى بلاهة : اجل أعرف ياسيدى ..

قال بسى بك : وتعلم اننى لم أذق طعم النوم منذ أيام ..

قال معاون : اجل أعلم ..

قال بسى بك : إذن سوف ادخل الى مكتبى لاغفو قليلا .. إذا
جاء النبا السعيد فما عليك إلا ان توقظنى فورا .. وستكون لك
عندى مكافأة ٥٠٠ فرنك ..



وقيلَ المعاون الغرض ، ودخل بسى بك الى مكتبه وهو بملابس
الشغل فاستلقى على أريكة جلدية قديمة ، وراح فى سبات
عميق .. وماهى إلا دقائق حتى تلقى المعاون نبا موت الوالى
سعيد ، فامسك بالبرقية وفتح باب غرفة رئيسه فوجده يغط فى
النوم واصوات شخيرته تزلزل اركان الغرفة ، فاوصد عليه الباب
وانطلق من فوره الى القلعة ، وكشف للحراس عن مهمته فذهبوا
به الى القصر وادخله رجال البلاط الى القاعة الرئيسية حيث كان
اسماعيل يترقب وصول النبا السعيد .. وتقدم الموظف جاثيا على
ركبتيه وهو يرفع البرقية الى الوالى الجديد .. فما إن قراها
اسماعيل حتى طفرت من عينيه دموع الفرح .. وسقطت البرقية من
يده فالتقطها المعاون وهو لا يزال جاثيا فى انتظار المكافأة -
واقبل رجال البلاط والحاشية يزفون التهاني الى ولى النعم ..
وتلفت اسماعيل فوجد الموظف لا يزال راکعا شاهرا البرقية فى
يده .. فتبسم ضاحكا من إصراره وقال له « انهض يابك » ونهض
المعاون .. وقدم له احد رجال القصر الصرة الذهبية فأخذها .. ثم
غادر القصر عائدا الى مكتب التلغراف وتذكر المكافأة الموعودة
من رئيسه ، وبلغ به الجشع ان رفض التغاضى عنها بالرغم من
انه أصبح من حملة العملات الذهبية ، فدخل على بسى بك وأيقظه
من نومه وقدم إليه البرقية وكأنه تلقاها على التو .. ونهض الرجل
وهو يهتز طربا .. وانهل على معاونه تقبيلًا ، وهم بالخروج فى
طريقه الى القلعة ولكن المعاون ذكره بالمكافأة ، فأخرج المسكين
كل ما فى جيبه من نقود مصرية وتركية وفرنسية ، ودسها فى جيب
المعاون ، وانطلق من فوره الى القلعة والبرقية فى يده وهو يمنى
نفسه برتبة الباشوية وبالصرة التى سترفعه من زمرة الموظفين
التعساء الى صف الموسرين السعداء ، ولكن ما إن بلغ مشارف
القلعة حتى سمع دوى المدافع ابتهاجا بتولية اسماعيل ، وبُهِتَ
المسكين واقترب من احد رجال البلاط يستفسره النبا فأبلغه بما
حدث من معاونه . وصعق الرجل من هؤل الخيانة التى ارتكبها

مساعده وقفل عائدا الى مكتبه حزينا كسيفا ناقما على الرجل الذى خدعه مرتين ، مرة عندما انفرد ببصرة الذهب ، ومرة عندما سلب منه المكافأة التى لا يستحقها ، فلما بلغ المكتب وحاول تعنيف معاونه الخبيث ، حذره الأخير من التناول عليه باعتباره (زميل) ويحمل نفس الرتبة التى يحملها هو .. فقد تساوت الرؤوس (ومقيش حد احسن من حد) .. واستفاق الرجل من هول الصدمة .. واخذ يلعن نفسه لأنه وضع ثقته بإنسان ليس أهلا للثقة .

حادث على النيل

زيارة السلطان عبدالعزیز، خليفة المسلمين
وامبراطور الدولة العثمانية لمصر عام ١٨٦٣
حدثا جليلا لا تزال ذكراه ماثلة في

كانت

الشارع الذى يحمل اسم « عبد العزيز » والممتد بين ميدان العتبة
وميدان عابدين ، وظل احد اهم شرايين الحركة التجارية فى
القاهرة حتى منتصف القرن الحالى . وكانت هذه اول زيارة يقوم
بها سلطان عثمانى لمصر منذ افتتاحها سليم الاول بقائم سيفه عام
١٥١٧ ، وتحولت مصر من يومها الى اىالة تركية يحكمها وال قادم
من الأستانة ، بعد أن كانت دولة مستقلة ذات نفوذ وسلطان يمتد
شمالا إلى حلب ، وجنوبا إلى منابع النيل ، وشرقا الى اليمن
والخليج .

وقد اراد الخديو اسماعيل ان يجعل من زيارة سيده الخليفة
فرصة يشاهد خلالها معالم الحضارة المصرية الحديثة ، وفى
طليعتها قطار السكة الحديدية الذى استقله السلطان هو
وحاشيته من الاسكندرية الى القاهرة ، فانيهر به انبهارا عظيما ،
إذ كانت المرة الاولى التى يرى فيها السلطان مثل هذه الاعجوبة
التي تتحرك على قضبان من الحديد ، وتختصر المسافات وتطوى
الزمن ، فى عصر كانت السيادة فيه للبغال والخيول ، واخذ
السلطان هو وأمراء البيت العثمانى يتفقدون اجزاء القاطرة ،
ويسالون عن كل صغيرة وكبيرة ويستمعون الى شرح مفصل من
مهندس القاطرة وسائقها عن كيفية حركتها .. وايقافها . ثم
يستمعون فى شغف الى صفارتها الحادة التي تنطلق لتنبه الناس
إلى حركتها فيفسحون لها الطريق .

فلما جاء موعد تحرك القطار استقل السلطان صالونه الخاص ،
بينما جلس الخديو فى مقعد مجاور ليكون تحت إذنه فى أية
لحظة . وركب باقى الأمراء العثمانيين والمصريين فى عربات
القطار الذى أخذ يقطع سهول الدلتا الممتدة عبر الأفق . واخذ
السلطان يرسل الطرف بعيدا بعيدا إلى الحقول الخضراء تتخللها
القنوات والترع .. والفلاحون المصريون انصاف عرايا ، وقد
انحنى اصلاهم على الطين . انهم نفس الفلاحين الذين اجتاحتهم

جيوش الاسكندر وقمبيز وقيصر ولويس التاسع وسليم الأول ..
فما نالت من صلابتهم ووداعتهم وارتباطهم الوثيق بالأرض التي
خرجوا منها .. لقد اندثر الطغاة ، والمتجبرون أو ذابوا في طين
مصر بمن فيهم الأتراك . وبقي المصريون يفلحون الأرض
ويستخرجون السنابل وينشرون الأمن والسلام على العالم .



فلما بلغ القطار كوبرى كفر الزيات أبدى السلطان عبد العزيز
هو وحاشيته إعجابهم ببنائه ، وأخذوا يعظمون من شأنه ،
ويبالغون فى تقدير نفقاته ، ولكن اسماعيل قال للسلطان إن
تكاليف بنائه لم تتجاوز سبعة ملايين فرنك ، وأخذ البرنس حليم ،
أصغر انجال محمد على ، يروى للضيوف قصة نجاة من الغرق
قبل خمس سنوات ، حين سقطت به العربة من الكوبرى حتى
غاصت فى النيل ، وكان يشاركه فيها الأمير أحمد رفعت ابن أخيه
البطل الشهير ابراهيم باشا ، والوريث الشرعى للعرش بعد
الوالى سعيد ، ولكن رفعت لم يتمكن من الإفلات من العربة بسبب
بدانته المفرطة فمات غريقا . وبذلك انتقلت وراثة العرش تلقائيا
إلى أكبر الأمراء سنا : اسماعيل .

ومن المؤكد أن اسماعيل لم يكن مبتهجا ، وهو يستمع إلى
تفاصيل هذه المأساة التى كانت تثير الأقاويل حول دور اسماعيل
فى تدبيرها كى ينفسح أمامه الطريق إلى العرش ، وقد اختلفت
الروايات بشأن تفسير هذا الحدث ، فمن قائل أن الكوبرى ترك
مفتوحا سهوا فلما بلغ القطار بداية الكوبرى لم يتمكن السائق من
إيقافه فانزلق بركابه حتى غاص فى قاع النيل ، ولكن إلياس
الأيوبى المؤرخ المتخصص فى تاريخ عصر اسماعيل يرفض هذه
القصة ، لأن كوبرى كفر الزيات لم يكن قد تم إنجازه نهائيا وقت
وقوع الحادث . ويفضل الأخذ برواية بعض الكتاب الغربيين
الذين أرخوا لهذا الحادث ومنهم « ماك كون » و « إدون دى ليون »
وخلاصة القصة أن القطارات كانت فى ذلك الوقت تجتاز النيل عند
كفر الزيات فوق معدية تنقل عرباتها ثلاثا ثلاثا .. وكانت مصلحة
السكة الحديدية تترك للركاب حرية الاختيار بين النزول من
العربات أثناء نقلها إتقاء للخطر ، أو العبور فيها ، ولكن
الأميرين : حليم ورفعت - وكانا فى عربة واحدة - أبيا النزول من

العربة وفضّلا البقاء فيها اثناء العبور فوق المعديّة ، وبالغ العمال المكلفون بدفع العربة في دفعها بقوة إظهارا لنشاطهم وشهامتهم وغيرتهم .. فتدحرجت العربة وانزلقت وغرقت بمن فيها . وكان الأمير رفعت بدينا فلم يستطع الوثوب من نافذة العربة الى الماء فأخرج منها ميتا مخنوقا ، وأما حليم فكان خفيف الجسم فإنه وثب من النافذة إلى الماء واجتازه سباحة .



أما الشبهات التي تثور حول تامر اسماعيل ، فمنشؤها أن اسماعيل كان من المفترض أن يشارك الأميرين مركبة الموت . فقد كان الأمراء الثلاثة يقضون الليلة السابقة في ضيافة الوالى سعيد باشا بالإسكندرية ، وكان برنامج الرحلة يقضى بأن يعودوا معا للقاهرة بالقطار ، ولكن اسماعيل تخلف فجأة عن مصاحبتهم وأعرب عن رغبته في البقاء بالإسكندرية لبضعة أيام .. وكان تخلفه هذا مثيرا للشكوك والظنون . ولم يستطع اسماعيل أن يمحو هذه التهمة التي علقته به وكانت سببا في حدوث القطيعة بينه وبين عمه حليم ، الذى خسر المعركة وأفلح اسماعيل في نفيه من مصر ، ولا شك أن هذه الشكوك شجعت اسماعيل على تغيير نظام وراثة العرش ، فاستغل وجود السلطان في ضيافته ، وقدم اليه الرشاوى والهدايا الفاخرة حتى انتزع منه فرمانا يجعل ولاية العهد في أكبر أنجال الخديو .. فكان اغيابه واضعفهم واتعسهم : محمد توفيق .

ثائر من الأزهر

الخدّيو اسماعيل بعض مشايخ الأزهر ضمن عليّة المصريين الذين يتشرفون بالمثل أمام السلطان عبدالعزيز خلال زيارته التاريخية

وضع

لمصر المحروسة ، ووقع الاختيار على أربعة من اكابر العلماء لكي يستقبلهم السلطان في قصر القلعة ولايتبادر إلى الذهن أن هذا اللقاء يعنى أن يجلس السلطان مع العلماء ويتبادل معهم الحوار في شئون الاسلام والمسلمين ! لم يكن اللقاء يتضمن شيئاً من ذلك لأن خليفة المسلمين لم يكن يعرف كلمة عربية واحدة ، وأن المقابلة لم تكن تتعدى دخول العلماء القاعة السلطانية لإلقاء التحية على السلطان ثم يعودون من حيث أتوا وهم ركوع ... ! وكانت المشكلة التي اقلقت اسماعيل هي كيفية تعليم المشايخ الأربعة أصول وقواعد المثل بين يدي خاقان البرّين وملك البحرّين وخادم الحرمين الشريفين ، وكان البروتوكول التركي من التشدد بحيث يلزم الداخلين على السلطان - بمن فيهم شيوخ الاسلام - بالانحناء وتطويح الأيدي حتى تلامس الأرض ثم رفعها الى مستوى الرأس .. ثم التقهقر نحو الباب وهم على هذه الحال المهينة ، وطلب الخديو من قاضي القضاة التركي أن يتكفل بتدريب الشيوخ الأربعة على هذه الحركات البهلوانية ، فافهمهم فضيلته أن المقابلة ستكون في قاعة يقف السلطان في صدرها على منصة مرتفعة عن الأرض قليلاً ، بينها وبين باقي القاعة حاجز مفتوح من وسطه ، وأنه ينبغي لهم إذا مابلغوا الباب ووقعت أعينهم على جلالته أن ينحنوا انحناء عظيمًا ويسلموا بكلتا اليدين حتى تمس الأرض ، ثم يتقدم كل منهم نحو فتحة الحاجز بخطوات موزونة حتى إذا صار أمامها كرر الانحناء والتسليم ووقف ، ويرد السلطان عليه تحيته ، فيعيد حينئذ الانحناء والتسليم مرة أخرى ، ثم يرجع متقهقراً ووجهه إلى السلطان إلى أن يبلغ باب الخروج فيكرر الانحناء والتسليم ثم ينصرف مثلاً دخل حتى يتوارى عن نظر السلطان .

فلما استغرب العلماء أن تقتصر المقابلة على تلك الحركات من الانحناء والتسليم قال لهم القاضي التركي إن الامر كذلك . فقالوا

« قد فهمنا » . فلما جاء دورهم في المقابلات دخل ثلاثة منهم وفعل كل منهم ما علمه القاضي أن يفعل ، وكان الخديو واقفا خلف السلطان وعينه تراقب تحركاتهم ويحمد الله أنهم أدوا أدوارهم بإتقان .



فلما جاء الدور على الشيخ العدوى دخل وانحنى عند الباب مثل السابقين . ولكنه سرعان ما رفع قامته وأخذ يمشى نحو لسلطان بخطى وثيدة . وحذاؤه الثقيل يدك البلاط المرمري ، ولم يعاود الانحناء أو التسليم ، وفزع اسماعيل من تصرف الشيخ الذي خرق البروتوكول وأخذ يبحث عن ينقذ الموقف قبل أن يحدث ما يغضب السلطان ، ولكن الشيخ العدوى مضى في طريقه نحو الخليفة حتى وصل الى الحاجز فجأوزه .. وصعد الى المنصة التي يقف عليها السلطان - واسماعيل يتوارى ذعرا - ونظر الشيخ العدوى الى عبد العزيز بعين ثابتة وقال « السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله » فوثب قلب الخديو من جراءة الشيخ ولولا مهابة السلطان لركل الشيخ وطرده ، ولكن الخليفة ابتسم بلطف ورد على الشيخ السلام ثم انحنى امامه انحناء خفيفة ، حينئذ انطلق لسان الشيخ من عقالة وأخذ يخاطب السلطان فيما يجب عليه نحو رعاياه بصفته كبير الحكام وبصفته مسئولا عن شئون الرعية ، وأكد له أن ثوابه عند الله تعالى سيكون بمقدار ثقل المسؤولية وحسن أدائه لها ، كما أن عقابه عند الله على قدر إهماله الأمانة .

عندئذ امتقع لون الخديو اسماعيل ، وأخذ يلعن الساعة التي اختار فيها هذا الشيخ (المجنوب) .. ويسب من أشار عليه باختياره .. وأخذ يتوقع أن يحاسبه السلطان على تصرف الشيخ العدوى حسابا عسيرا .. ولكن المفاجأة أن ملامح الارتياح بدت على وجه عبد العزيز .. فلما فرغ الشيخ من خطبته ختمها بالسلام الذي بدأها به ، ثم انحنى أمام السلطان وأقبل عائدا بوجهه لا يظهره كما فعل الآخرون . وسبحته في يمينه .. فلما خرج الى البهو وجد زملاءه في انتظاره وهم يتميزون غيظا ويلومونه على فعلته وينذرونه بأوخم العواقب فقال لهم : « ولماذا أنتم منزعجون .. ! أما أنا فقد قابلت امير المؤمنين ، وأما أنتم فكانكم

قابلتم صنما ، وكانكم عبدتم وثناً .. » .
ثم التفت السلطان إلى اسماعيل يسأله : من الشيخ ؟ فبادر
اسماعيل يعتذر ويقول : انه من أفاضل العلماء ولكنه أبله
ومجذوب !! فقال السلطان « لا .. انه ليس مجذوبا .. وإنى لم
انشرح لمقابلة أحد انشراحي الى مقابلته .. » وأمر للشيخ
العدوى بخلعة سنية وألف جنيه جائزة .



ولقد كذب اسماعيل ، وصدق عبد العزيز ، فلم يكن الشيخ
العدوى مجذوبا ولا مجنونا كما أراد اسماعيل ان يصفه ، ولكنه
كان عالما يعرف قدر نفسه وقدر العلم الذى يحمله بين جنبيه ،
وقدر الأمانة التى تفرض عليه ان يكون شجاعا فى حضرة أمير
المؤمنين .. وهذه القصة التى نقلها المؤرخ إلياس الأيوبي عن
السيد محمد عاشور الصدفى سبط الشيخ العدوى تؤكد صدق
مانزعم .. ولعل الموقف البطولى الذى اتخذه الشيخ العدوى
أثناء الثورة العربية كان أصدق دليل على شجاعته ، لقد جرفته
أحداث الثورة وشارك فى كل مراحلها مناوئا للظلم والاستبداد .
وبعد ضرب الاسكندرية وانحياز الخديو توفيق الى الانجليز كان
العدوى أحد الشيوخ الذين أصدروا فتوى اعلنوا فيها مروق
الخديو عن الدين لخروجه على الاجماع الوطنى ، ووقوفه فى
صف الأعداء .. وبعد فشل الثورة عانى الشيخ العدوى مثلما
عانى كل المخلصين الشجعان السجن والضرب والاهانات ..
وعرفته غرف السجون والمعتقلات ثم قدم الى المحاكمة فحكمت
إحدى المحاكم بتجريمه من جميع الرتب وعلامات الشرف
والامتياز . فخلعها الشيخ راضيا .. وبقيت له أعلى المراتب فى
نفوس الناس ، وسيظل اسم الشيخ العدوى رمزا لكرامة العلم
وشجاعة العلماء فى كل عصر ومصر .

أفراح الأنجال

كان

الخدو اسماعيل مصابا بداء الفخفة وحب الظهور، وهو داء وبيل له مفعول القمار إذا تمكن من انسان قضى عليه ودفعه الى بيع ثيابه، وبرغم الأعمال المجيدة التي قام بها هذا العاهل المستنير، فإن تصرفاته الخرقاء أكلت حسناته كما أكلت عرشه وألقت به طريدا منبوذا في العواصم الأوروبية، مثل أى مدمن بدّد ثروته من أجل المتعة القاتلة.

كان إسماعيل يستدين من الصعاليك والمرابين الأوروبيين ليقيم حفلات فاخرة يبهر بها أنظار ضيوفه، ويخدعهم بثرائه الكاذب. وكان الأجانب أعلم الناس بحقيقة الوضع المالى للخدو المفلس، فكانوا ياكلون من خيره ويصبون عليه اللعنات لسفاهته وحمقه، وكان اسماعيل مشغوقا بإقامة الحفلات الأسطورية التي جعلت من ليالى ألف ليلة وليلة حقيقة لا خيالا.. وإذا كانت حفلات افتتاح قناة السويس أشهر مظاهر السّفه الاسماعيلي.. إلا أن الحفلات التي أقامها بمناسبة « أفراح الأنجال » كانت أكثر بذخا وإسرافا.. واشد خطرا على المسار الاقتصادى، فقد أقيمت فى وقت انكشفت فيه الخزانة العامة وأوشكت على الإفلاس، ولكن اسماعيل تجاهل هذه الحقيقة المؤلمة، وتمكن منه داء حب الظهور، فاستجاب لرغباته المجنونة وأخذ ينثر الأموال ذات اليمين وذات الشمال وكأنه قارون فى زمانه.

■ ■ ■

ففى منتصف يناير ١٨٧٣ قرر إسماعيل تزويج أربعة من أنجاله هم: توفيق « ولى العهد » وحسين وحسن وفاطمة، وأراد أن يجعل من هذه المناسبة حدثا يتناقله الرواة وتحدث به الركبان، ويفوق فى أبهته ونفقاته حادث زواج الأميرة قطر الندى بنت حاكم مصر خمارويه بن أحمد بن طولون، بالخليفة العباسى فى بغداد، فقد دامت أفراح الأنجال أربعين ليلة كاملة بمعدل عشرة أيام لكل فرح، وطوال هذه الأيام تحولت القاهرة إلى مهرجان كبير تسطع فيه الأنوار حتى اختلط الليل بالنهار ولم يعد الناس يفرقون بين الصباح والمساء..! وتحولت القصور الخديوية فى القبة وعابدين وقصر النيل والجزيرة وغيرها إلى مراقص صاخبة

وحانات عامرة تقدم أطايب الطعام والشراب لعشرات الألوف من المدعوين الذين جاءوا يغترفون من نهر الملذات الذى أقامه إسماعيل .. !

ولقد أفاض مؤرخو عصر إسماعيل فى وصف البذخ والفخفة والإسراف الذى حدث فى أفراح الأنجال ، ويكفى أن تقرأ وصف زفة « شوار » الأميرة أمينة منذ خروجها من القصر العالى إلى قصر القبة حيث كان يقيم العريس « التعيس » محمد توفيق .. فقد سارت زفة الشوار عبر شوارع القاهرة تخفرها الفرسان بزي عربى بديع ، والى مشاة بأسره بملابس بيضاء ناصعة كالثلج ، تتقدمه جوقة موسيقية من أمهر العازفين ، وكانت الهدايا موضوعة فى أسبقة مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القטיפ المزركشة بالذهب والماس ، يغطيها شاش فاخر يمسك بأطرافه أربعة عساكر فى كل عربة ، ويتبعهم ضباط بملابسهم الرسمية والسيوف مشهورة فى أيديهم . وكانت تلك الهدايا عبارة عن مجوهرات سنّية ، وقلائد ماس ساطعة من النوع المعروف باسم « البرلنتى » ومناطق من الذهب الخالص ، واقمشة مطرزة باللؤلؤ عديم المثل ، وزمرد فى حجم البيض ، وملابس بيضاء مطرزة عليها رقم الأميرة باللآلئ والحجارة الكريمة ، وأنية متنوعة من الفضة الصب الخالصة بكميات عظيمة ، وكان بين الهدايا المقدمة من « إسماعيل » لأكبر أبنائه سرير من الفضة الصب الخالصة ، شبيه بالذى أهداه الى الامبراطورة أوجينى اثناء اقامتها بمصر ، محلى بماء الذهب الابريز ، وعواميده الفخمة مرصعة بالماس والياقوت الاحمر النادر والزمرد والفيروز .. ولم يختلف شوار الأميرات عين الحياة هانم وخديجة هانم وفاطمة هانم والهدايا المهداة إليهن ، عن شوار أمينة هانم .. « الخ . ولم يكن أحد من أهالى القاهرة الذين شاهدوا أفراح الأنجال يعرف من أين أتى حاكمهم الهمام بهذه الأموال الطائلة ! ولم يكن أحد منهم يجرؤ على طرح هذا السؤال .. فقد كان إسماعيل حاكما شرقيا لا يُسال عما يفعل .. ولكن لم تمض بضعة اعوام حتى كان إسماعيل يقف ذليلا خائرا أمام أصحاب الديون الأجانب الذين وقفوا ببابه ، وأخذوا بخنائه ، يطالبونه بأموالهم مضافا إليها فوائد تبلغ أضعاف ما أخذ. وكانت نهاية إسماعيل المفجعة .. وهى نهاية كل مسرف متلاف .

فرعون الصغير

كان

للخديو اسماعيل أخ من الرضاعة اسمه اسماعيل صديق ، لعب فى حياة الخديو وفى حياة مصر كلها دورا خطيرا اثناء الأزمة المالية

الطاحنة التى اخذت بخناق البلاد ، وانتهت بضياع استقلال مصر ، وضياع مستقبل الأخوين. فالأول فقد عرشه ، والثانى فقد حياته فى مأساة مرعبة بعد أن تربع على خزائن الأرض عشر سنين . أصبح خلالها الرجل الأول فى الدولة - بعد الخديو - والمتصرف الأوحى فى شئونها المالية والإدارية . حتى خلعوا عليه لقب « الخديو الصغير » أو الصدر الأعظم المصرى . لم يكن اسماعيل صديق - كما يتبادر الى الذهن - من أبناء الطبقة الراقية التى كان الوزراء والحكام وقادة الجيش يختارون منها وتضم بقايا المماليك من ترك وشركس وكرد واربناؤود فضلا عن شراذم الألبان الذين استقدمهم محمد على ، وجعل من هؤلاء وأولئك أركان حكمه وانعم عليهم بالأراضى التى صادرها من أصحابها المصريين ، وانما كان اسماعيل صديق من أبناء الفلاحين الذين فقدوا أرضهم ، وأصبحوا أجراء يعملون بالسخرة فى الزراعة وحفر الترع وشق المصارف ، فهو - كما وصفه مؤرخ معاصر - ابن فلاح صعلوك الأصل طالما مدّ أجداده ، بل أبوه ذاته ، تحت الكرياح ، وازرقت أرجلهم حتى دفقت دما من تعاقب السياط عليها ..



والروايات التاريخية لا تقدم لنا تفسيراً معقولا للظروف التى مكنت لهذا الفلاح المصرى المعدم من اختراق حاجز الفقر والصعود الى عالم الجاه والسلطان، فى وقت لم يكن يسمح فيه للمصريين بالخروج على النطاق المرسوم لهم . كل ما يذكره المؤرخون أن الوالدة باشا - خوشيار هانم زوجة والى ابراهيم باشا - شعرت بجفاف البانها بعد ولادة طفلها اسماعيل ، فسأقت إليها الأقدار فلاحه مصرية لتتولى إرضاع الوليد مع ابنها الذى أطلقت عليه اسم الأمير تبركا وتقربا . فنشأ الصبى فى دهاليز القصور الخديوية ، يتقلب فى أعطاف النعيم ، وينهل من ينابيع

العز ، وكان من الطبيعي أن تنشأ بين الطفلين عاطفة مشتركة امتدت عبر السنين ، فما إن تولى اسماعيل عرش الديار المصرية حتى أطلق يد أخيه يتصرف في أمورها على هواه . ومن حق القارئ العزيز أن يتوقع من هذا الفلاح أن يكون رقيقاً باهله وعشيرته ، رحيماً بالطبقة التي ينتمى إليها أباه وأجداده ، وفياً للبلد الذي خرج من طينته ، ولكن العكس هو الذي حدث ، فإذا بنا أمام فرعون صغير يبطش بالفلاحين ويتفنن في تعذيبهم ويرغمهم على هجرة الأرض التي يزرعونها لتنتقل ملكيتها إلى أخيه الخديو حيناً .. وإلى ملكيته الخاصة حيناً آخر .. وكان الرجل يتمتع بقدر هائل من الدهاء حتى وصفه بعضهم بأنه لم يكن له مثيل بين رجال الذكاء والتفنن في مصر ، ولكنه - للأسف - لم يستخدم قدراته للتخفيف من ويلات الشقاء التي كان يعانيها أبناء وطنه ، وإنما تحول إلى سوط عذاب ، حتى استطاع في خلال السنوات العشر التي تولى فيها وزارة المالية أن ينافس أمراء البيت المال في ثرائهم وبذخهم وترفهم وسفهمهم ، وعندما أوشكت شمس حياته على الغروب كانت ممتلكاته قد بلغت ثلاثين ألف فدان من أجود الأراضي العشورية ، وثلاثة قصور فخمة تحيط بها الحدائق الغناء في ميدان الاسماعيلية (التحرير حالياً) عدا قصر بديع على ترعة المحمودية بالاسكندرية ، تحتوي على أفخر الرياش والتحف . أما مجوهراته فقدرت بحوالى ٣٠٠ ألف جنيه انجليزى بأسعار ذلك الزمن ، وكان يمتلك حوالى ٣٠٠ جارية من مختلف الأصناف والأجناس ، ولكن في لحظة من لحظات الغضب الملكى .. ضاع كل شيء ..

شيخ المنسر

لهم يكن اختيار الخديو اسماعيل لأخيه اسماعيل صديق باشا لمنصب وزير المالية مجرد ، إرضاء لعاطفة الأخوة التي جمعت بينهما في مرحلة الرضاع ، وإنما كان الاختيار محسوباً بميزان المنفعة بين رجلين معدومي الضمير ، كان اسماعيل الخديو في حاجة إلى رجل متفطن في السطو على الأموال وابتزازها بشتى الحيل ، ولا تثريب عليه أن يقطع لنفسه نصيب الثعلب مادام أن نصيب الأسد مصوناً ومحفوظاً . وكان اسماعيل صديق هو ذاك الرجل الذي يتمتع بمواهب جهنمية في تدبير المال اللازم بأخس الوسائل لإرواء عطش الخديو حتى يواصل سياسته البلهاء في البذخ والسفه والظهور أمام الأجانب بمظهر الفخفة والعظمة .. ولو كانت خزانة البلاد أظهر من قلب المؤمن !

في ذلك الوقت كانت البنوك الأوروبية قد أمسكت يدها عن إمداد الخديو بالقروض بعد أن لاحت عليه تباشير الاقلاص ، فلم يعد أمامه إلا أن يستدير إلى الداخل .. ليفتك بالمصريين ويسطو على ما في أيديهم من مدخرات قليلة جمعوها من شقاء العمر .. ولكن هذه العملية كانت في حاجة إلى جيش كبير من زبانية السلطة ورجال الإدارة ليتعقبوا الفلاحين في عقر دارهم ويستخرجوا ما لديهم من أموال عن طريق القمع والارهاب ، وكان اسماعيل صديق يملك هذا الجيش بحكم منصبه القديم كمفتش عام على عموم القطر ، من واجبه تعيين المحافظين والمديرين والمأمير واتباعهم من العمد والمشايخ .. فلما أصبح وزيراً للمالية وقعت الطامة الكبرى إذ جمع في يده كل الخيوط التي تمكنه من تنفيذ سياسته الجهنمية ، وبدأ (المفتش) ومن ورائه جهازه الإداري مثل (شيخ منسر) يحط على قرى مصر فيسلبها المال والزاد .. ولا يتركها إلا قاعاً صفصفاً تضج بالأنين .



وفي سبيل ابتزاز أموال الفلاحين تفتق ذهن المفتش عن أساليب لا تقل انحطاطاً عن أساليب الحواة ولا عبي الثلاث ورقات .. من ذلك أنه كان يبيع المحاصيل الزراعية للمرابين الأجانب وهي لاتزال شجيرات خضراء في الحقول ويتعهد

بتسليمها لهم بعد جنى المحصول ، فإذا حل الموعد قامت الحكومة ببيع المحصول لتجار آخرين وقبضت الثمن .. فإذا احتج الأجانب إلى قناصلهم تولى (المفتش) تعويضهم بأن يشتري منهم المحصول الذى باعه لهم (على الورق) بسعر أعلى من السعر الأول مضافا إليه فائدة ٢٠٪ .. كل ذلك من أجل إرضاء نزعة الخديو المدمرة وحاجته المستمرة إلى المال .. فلما ضاقت السبل أمام الخديو للحصول على مصدر جديد للمال ، ابتكر له المفتش وسيلة غريبة تتلخص فى إجبار الفلاحين على دفع ضريبة الاطيان لمدة ست سنوات مقدما مقابل الاعفاء من نصف الضريبة إلى الأبد .. وهو ما يعرف بقانون (المقابلة) . وكان الفلاحون يعرفون أن عهود الحكومة حبر على ورق وأنها مجرد حيلة لإرغامهم على تقديم الاموال إلى الخديو الجشع .. ومن يمتنع يتكفل الزبانية بتأديبه حتى يتعلم أن العين لا تعلق على الحاجب .. وأن الماء لا يجرى فى العالى .. وأن مشيئة الملوك لا ترد ..



والجرائم التى ارتكبها (المفتش) أكثر من أن تحصى ، ولكن اعظمها من وجهة نظر الوطنيين المصريين هى ايعازة إلى أخيه الخديو ببيع نصيب مصر فى أسهم شركة قناة السويس . وكان هذا النصيب يقارب النصف ، مقابل مبلغ يقل عن أربعة ملايين جنيه ، وهو الذى فاوَّض القنصل البريطانى فى الصفقة ، وهو الذى وضع خاتمه على الأسهم قبل أن يتسلمها القنصل ويودعها قاع سفينة كانت فى طريقها إلى إنجلترا ، وكانت تلك بداية الطريق المشئوم الذى انتهى بضياح استقلال مصر المالى وخضوعها للإشراف المباشر من جانب الحكومة البريطانية ، وكانت صفقة الأسهم آخر سهم فى جعبة الوزير المحتال ، ولكنها كانت آخر مسمار فى نعشه ، فما إن وصل الخبراء الانجليز إلى القاهرة لإصلاح مالية مصر ، حتى كان أول مطالبهم اقضاء المفتش عن منصبه الخطير ، وتحيّر الخديو اسماعيل ووجد نفسه أمام خيارين أحلاهما مرّ .. ولكن كان عليه أن يضحي بأخيه كي ينجو بنفسه .

سقوط فرعون

كانت

مصر بكل طبقاتها - فقراء واثرياء وامراء - تغلى بالنقمة على اسماعيل صديق باشا (المفتش) ويتحينون الفرصة للفتك بهذا الجبار الذى يتحكم فى مصائر البلاد والعباد ، ويختلس من الاموال ما ينوء بالعصبة اولى القوة .

كان مثل هامان فى طغيانه وسطوته واستهتاره .. وكان اشبه بقارون فى جشعه وطمعه وزهوه .. وكما سقط هامان وقارون وفرعون ، كان لابد أن يسقط المفتش ويلقى نفس المصير الذى لاقاه الطغاة والجبابرة ، فلا نفع لهم اموالهم ، ولا هم افادتهم عزتهم ، وإنما مضوا غير مأسوف عليهم ، لم يخلفوا وراءهم إلا أسوا الذكريات .

ومع أن النصيب الاكبر من اذى المفتش وقع على عاتق الفلاحين المصريين إلا أنهم بحكم ضعفهم التاريخى كانوا أقل قدرة على زحزحة الرجل عن موقعه العتيد ، وتكفلت جبهة الأمراء العلويين بالقيام بهذه المهمة العويصة لأسباب لا تمت بصلة الى المظالم التى عاناها المصريون ، وإنما لاستئثاره دونهم بالأسلاب والمغانم ، وجراته على منافسته لهم - وهو الفلاح الجلف - فى حياة البذخ والنعيم ، وتَفَوُّقه عليهم فى بناء القصور واقتناء الجوارى والمحظيات ، وكان أكثر الامراء حقدا عليه أبناء الخديو الثلاثة : توفيق وحسين وحسن . الذين ساءهم قرب الرجل من ابيهم وحظوته عنده ، ودلاله عليه ، غافلين عن رسالته العظمى فى النصب والاحتيال والسطو والابتزاز لتوفير المال لأبيهم ، كانوا ينظرون الى قضية المفتش من زاوية ضيقة جدا ، هدفها إقصاء الغرباء عن وَلَى النِّعَم ، أما الخديو فكان يهمل هذه الدسائس الصغيرة ولا يقيم لها اعتبارا .

● ● ●

أما الخطر الأكبر على مصير المفتش ، فقد جاءه من جانب الانجليز الذين بات من حقهم الهيمنة على مالية مصر بمقتضى مرسوم اصدره الخديو اسماعيل لحماية مصالح الدائنين الاجانب ، واعلنت الرقابة الثنائية من انجلترا وفرنسا ، فتولى الرقيب الانجليزى الاشراف على ايرادات الدولة ، وتولى الرقيب

الفرنسي الإشراف على مصروفاتها .. وكان الرقيب الانجليزي « جوشن » يضمم عداء شخصيا للمفتش لأسباب قديمة .. فما إن بدا يقلب في الدفاتر حتى اكتشف انه ليست هناك ميزانية حقيقية !! وإنما المسألة لا تعدو أن تكون « ضيعة » خاصة يتحكم فيها الخديو وأخوه .. وأن الأخوين « اسماعيل » ليسا أكثر من لصين يقتسمان الأسلاب ، ولذلك رأى ان يبدأ بإزاحة اصغر اللصين . ولم يكن من اليسير على الخديو ان يستجيب لهذا المطلب ، لأنه يعرف جيدا انه شريك اصيل في كل ما ارتكبه المفتش من جرائم وكوارث ، وإذا كان الانجليز يتغدون بالمفتش عند الظهر ، فسوف يتعشون بالخديو في المساء .. فامتنع عن طرده ، عندئذ هدد الانجليز بتقديم المفتش الى المحاكمة بتهمة اختلاس ٤٠ مليون جنيه وجدوها في الدفاتر .. وهنا فقط اقتنع بجدوى اختفاء المفتش من الحياة كلها وليس من الوزارة فحسب . كان يعلم ان اخاه لن يتورع عن كشف كل الاوراق وفضح المستور .. وإظهار حقيقة الخديو الذي تسبب في تخريب بلده ووضع في هاوية الافلاس .

ونسى الخديو كل ما فعله أخوه من اجله .. ولم يفكر إلا في النجاة بنفسه . ولمعت في ذهنه على الفور فكرة التخلص من الرجل الذي أفنى حياته في جمع المال الحرام وبني مجده على اشلاء البؤساء والمعذبين ، ولم يغادر الحياة إلا وقد هوى مجده .. كأنه قبض الريح .

ذو الأصابع الفولاذية

كان

الخدّيو اسماعيل قد اتخذ قراره النهائي بالتخلص من أخيه في الرضاع اسماعيل صديق باشا (المفتش) قبل أن يفلت لسانه ويفضح المخازى التي ارتكبها الاثنان وتسببت في خراب خزانة مصر . وتم ترتيب وسيلة الاعدام على النحو الذى كان متبعاً في ذلك العصر .. ففي صباح اليوم الموعد استدعى الخديو أخاه المفتش الى قصر عابدين ليصحبه في نزهة خلوية على ضفاف النيل ، وركب الاثنان العربة الخديوية المكشوفة على مرأى من الجميع وهما يتضاحكان .. وقد اعتبر المفتش هذا الرضاء السامى أكبر دليل على كذب الشائعات التى ترددت عن قرب نهايته . وعبرت المركبة كوبرى قصر النيل فى اتجاه قصر الجزيرة (فندق ماريوت حالياً) فلما توقفت أمام بوابة القصر تقدم الحرس فالتقوا القبض على المفتش وساقوه الى الداخل وهو يصيح مستغيثاً بأخيه الذى عاد وحده إلى قصر عابدين . واستدعى الخديو المجلس المخصوص (أشبه بمجلس الوزراء) واستصدر منه قراراً بإبعاد المفتش الى دنقله بالسودان .

وحمل مصطفى باشا فهمى محافظ القاهرة (والد السيدة صفية زغلول) القرار ومضى الى قصر الجزيرة لإبلاغه الى المفتش وإقناعه بالتزام الهدوء والصمت . ولكن المفتش الذى تربى في احضان الدسائس والمؤامرات كان يعلم جيداً ان قرار اعدامه على وشك التنفيذ . وعبثاً حاول إقناع المحافظ بخطر التخلص منه باعتباره حاملاً لرتبة « المشير » العثمانية التى تحوّل دون محاكمة حاملها إلا فى الاستانة . ولكن متى كان الباب العالى يابّه لمثل هذه المؤامرات التى تجرى كل يوم فى القصور الملكية . وبعد قليل صعد المفتش بصحبة المحافظ الى سفينة نيلية كانت فى انتظارهما ، وألقى الحرس بالمفتش فى إحدى غرف السفينة التى أقلعت باتجاه الجنوب ، بينما بقى المحافظ على ظهر السفينة فى انتظار تنفيذ عملية الاعدام بواسطة اسحق بك ، وكان رجلاً تركيا متخصصاً فى الإجهاز على ضحاياه بطريقة فظيعة .. فقد كان يملك قبضتين فولاذيتين فيهما باليسرى ، على فم الضحية

ليكتم أنفاسه بينما يقبض باليمنى على الخصيتين فيعتصرهما
اعتصارا حتى يلفظ أنفاسه .



وما إن عبرت السفينة مقياس الروضة حتى تقدم اسحق بك
لتنفيذ مهمته . فدخل على المفتش وهو قابع فى ركن الغرفة كالفار
المذعور .. فقام بمهمته خير قيام . ولم يستغرق الامر أكثر من
خمس دقائق ظن بعدها اسحق بك ان المفتش قد اسلم الروح ، فمد
يده لانتزاع الخاتم الذهبى الذى يضعه المفتش فى سلسلة ذهبية
تحيط بعنقه .

ولم يعلم ان فى جسد الرجل بقية من حياة انتهزها للانتقام من
قاتله ، ففتح فمه كسمك القرش وقضم اصبع إبهام اسحق بك حتى
قطعه تماما .. وكانت تلك آخر انتفاضة فى جسد المفتش .. سكن
بعدها الى الأبد .. وعندها تقدم بعض الحرس ووضعوا جثته فى
جوال غليظ ومعه احجار ثقيلة ثم القوا به فى النيل حتى استقر
فى القاع .. عندئذ توقفت السفينة امام ساحل المعادى ونزل
المحافظ مصطفى باشا فهمى حيث كانت فى انتظاره عربة خديوية
حملته الى قصر عابدين ليحمل الى مولاه خبر نهاية المفتش ..
بينما واصلت السفينة طريقها الى السودان . وهى ترسل الى
القاهرة كل حين برقيات مكذوبة تنشرها الصحف عن حالة المفتش
الذى لا يكف عن البكاء وطلب الصّفح .. وشرب الخمر .

وبعد اسبوع من وصولها إلى دنقلة تطوع طبيب انجليزى
أفاق بكتابة تقرير يزعم فيه ان المفتش قد مات متأثرا من انفجار
الزائدة الدودية ، وأنه سمح بدفنه بعد ان وقع الكشف الطبى
عليه .. ولم تخجل الصحف من نشر هذا الخبر المكذوب ، وكان
الناس يقرأون الصحف ويبتسمون .. وكان الناس فى ذلك العهد
نادرا ما يبتسمون .

نوبار باشا

ربما

لا يعلم كثيرون من المصريين أن أول رئيس للوزراء في تاريخ مصر المعاصر كان رجلا أرمنيا مسيحيا هو نوبار باشا الذي لا يزال اسمه قائما على أحد الشوارع الرئيسية بوسط القاهرة وعلى إحدى الترع الكبيرة بمحافظة البحيرة . وكان نوبار أحد ثلاثة « رجال دولة » برزوا في عصر الخديو اسماعيل ، وكان لهم دور مؤثر في مجرى الأحداث طوال النصف الثاني من القرن الماضي ، والآخران هما : شريف باشا « أبو الدستور » ورياض باشا « نصير الاستبداد » . وسوف أتحدث عن الثلاثة بدءا بنوبار لأنه كان أسبقهم ظهورا على مسرح السياسة والحكم ، وأكثرهم إثارة للدهشة والتساؤل : إذ كيف تَسَنَّى لمثله أن يكون أول رئيس للوزراء رغم الفروق الدينية والجنسية ، وفي وقت كان الاعتبار الديني يوضع في المقام الأول . ولكن الدهشة تزول إذا عرفنا أنه من مواليد « أزمير » بتركيا .. أي أنه كان عثمانيا ، الأمر الذي فتح أمامه الباب للدخول في نسيج الحياة المصرية والصعود إلى القمة من خلال نظام لا يعترف للعناصر الوطنية المصرية بحق المشاركة في شئون الحكم أو تولى المناصب القيادية في الدولة .

● ● ●

كان محمد علي - برغم الخدمات الجليلة التي أداها لمصر - تركي النزعة ، وينطوى على ازدراء لكل ما يمت إلى المصرية الصميمة بصلة ، وورث عن قومه كره اللغة العربية - لغة الفلاحين - فحكم مصر ولم يكلف خاطره تعلم العربية أو جعلها لغة الدواوين أو تعليمها أحدا من أبنائه ، وعاش ومات وهو يتكلم بالتركية . وحاكم هذا وصفه كان من الطبيعي أن يغض النظر عن العناصر المصرية ويحتضن العناصر التركية حتى لو كانت غير تركية أصلا ، ويكفي أن تتكلم التركية وتنتمي ولو شكلا إلى الدولة العلية ، وكان (بوغوص بك) أحد هذه العناصر التي استفادت من التقاليد التي وضعها محمد علي لشغل مناصب الدولة المصرية ، فهو من الأرمن الذين يكرهون العثمانيين كراهة

التحريم ، ولكن إتقانه للغة التركية فتح أمامه السبيل للترقى في مناصب الدولة حتى أصبح الوزير المقرب من ولى النعم . وكان نوبار - ابن اخت بوغوص بك - قد تخطى مرحلة الصبا في ازهر وذهب الى فرنسا ليستكمل تعليمه ، واعتزم الانخراط في الجيش الفرنسي ، ولكن خاله نصحه بالمجيء الى مصر ليحرب حظه فيها بشرط ان يتعلم التركية ، فاستجاب لنصيحة خاله ثم جاء الى مصر فالحقه بقلم الترجمة ، وما هي إلا عشية وضحاها حتى كان ضمن حاشية محمد علي الذي عينه سكرتيرا خاصا لابنه ابراهيم فلازمه في كل جولاته ، واكتسب ثقته وثقة بقية الحكام من اسرة محمد علي ، الذين عمل في خدمتهم الى ان مات عام ١٨٩٩ في عهد عباس حلمي الثاني .



والمؤرخون الذين تحدثوا عن نوبار يقولون إنه كان يتمتع بصفات مميزة ، اهمها الجدية والجلد والكبرياء والانفة والعزوف عن اللهو والمجون ، والامتناع عن نفاق الحكام وإرضاء نزعاتهم بالغش والخداع .

هذه صفات يصعب على صاحبها ان يحافظ على موقعه في ظل حكام شرقيين يتصفون بالمزاجية والتقلب والبطش باقرب معاونيهم ، فكيف استطاع نوبار ان يحافظ على وجوده في موقع الصدارة دون ان يفقد راسه ؟

البعض يفسر ذلك بان نوبار كان يعرف اتجاهات الريح ، فلما ادرك ان شمس اسماعيل توشك على الغروب ، وان خيوط الحكم سوف تنتقل حتما الى ايدي الانجليز ، تخلى عن سيده ولجا الى لندن يحرض الحكومة البريطانية على تادييب اسماعيل وتقييد سلطاته المطلقة عن طريق وزارة مسئولة متحررة من سيطرة الخديو وكانت وجهة نظر نوبار انه لا امل في إصلاح الخراب الذي تسبب فيه اسماعيل إلا بالحجر عليه وتقييد حكمه المطلق . وتلاقت افكار نوبار مع رغبات انجلترا التي كانت تعمل على توطيد وجودها في مصر عن طريق المشاركة في الحكم وبسط نفوذها على الشؤون المالية .



ولم يكن نوبار يمانع في مشاركة الانجليز في الوزارة المصرية

المقترحة ، بل كان يؤيدها.ويبرر ذلك بأن المشاركة هي السبيل الوحيد لضمان استقلال مصر .. ومن الطبيعي أن يستفز هذا التبرير المشاعر الوطنية ، ولكن نوبار كان يعيش العصر الذى لا يعترف بحق المصريين ويرى أنهم غير اكفاء فى تحمّل المسؤولية أو - على أبسط الفروض غير قادرين على مواجهة الحكم المطلق الذى يمثله اسماعيل . فكان عليه ان يؤدّب اسماعيل بالعصا الانجليزية . وخضع الخديو لأوامر الانجليز واصدر اول « دكريتو » بتشكيل الوزارة المصرية برئاسة نوبار باشا وتضم خمسة وزراء . منهم وزير انجليزى للمالية ويراقب الايرادات ووزير فرنسى للأشغال ويراقب المصروفات .. وبعد عشرة شهور فقط كان الخديو يغادر مصر طريدا منفيا .. وبقي نوبار ليوصل المشوار الذى اختطه لنفسه منذ كان صبيا يلعب فى حوارى ازميز ..

نيللى .. وتوابعها

يكتمل الحديث عن نوبار باشا دون الحديث عن الأرمن ، وخاصة الجالية الأرمنية التي استوطنت مصر ، وأصبح لها وجود بارز في بعض نواحي الحياة المصرية الحديثة .

لا

والأرمن شعب عريق ، كان لهم في التاريخ القديم دولة كبرى تسمى مملكة أسيا الصغرى ، تنسب الأساطير تأسيسها الى (حايك) من سلالة نوح . ولكن دولة الأرمن لم تستمر طويلا بسبب الحروب والهجمات التي طوقتها من كل جانب ، وإذا كانت بعض الدول قد تفسخت وذهبت ضحية موقعها ، ووقعها في بؤرة الصراع بين القوى العظمى - فإن دولة الأرمن كانت من هذه الدول التي أدركتها لعنة الموقع ، فتناوبت عليها جيوش الأشوريين والميديين والفرس واليونان والرومان ، وجعلوا منها ساحة للصدام ، حتى إذا بلغ الأتراك العثمانيون أوج قوتهم أجهزوا عليها وضموها الى امبراطوريتهم ، وبعد الثورة البلشفية وضع الروس ايديهم على ماتبقى من بلاد الأرمن وجعلوا منها إحدى الجمهوريات السوفيتية التي لا تزال تحمل اسم « أرمينيا » . وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه الكوارث الى هجرة الأرمن من ديارهم لبدأوا عصر الشتات والانتشار في العالم . ولكنهم ظلوا دائما محافظين على قوميتهم ولغتهم وديانتهم ومذهبهم ، يحملون معهم أينما ذهبوا ذكريات العز القديم ، والتطلع الى اليوم الذي يستعيدون فيه مجدهم الغابر . فهم يعيشون في المجتمعات الجديدة حياة (الغربة) بكل ماتعنيه من لوعة القلق والخوف من المجهول .. يختلطون ولكن لا يمتزجون .. ويعملون بجد ونشاط دون الدخول في نسيج الحياة الجديدة أو التورط في تعقيداتها الاجتماعية والسياسية .

• • •

وكانت مصر إحدى الدول التي اجتذبت الأرمن منذ أواخر القرن الماضي .. ولكن أفواجهم زادت بعد المذبحة الرهيبة التي شنها الأتراك ضدهم عام ١٩١٥ وراح ضحيتها مليون ونصف المليون أرمني (وهذا يفسر لك سر العمليات الانتقامية التي تقوم بها منظمات أرمنية ضد السفارات التركية) وشق الأرمن طريقهم في

المجتمع المصرى فى وقت ارتفع فيه شعار « مصر للمصريين » بعد ثورة ١٩١٩ ، ولذلك حرص الأرمن على عدم مزاحمة المصريين فى الوظائف الحكومية أو تملك الأرض الزراعية ، واتجهوا الى الأعمال الحرة التى تعتمد على القدرات الخاصة والمواهب المتميزة كالموسيقى والرسم والتصوير فانتقوا صناعة الآلات الموسيقية وتكوين فرق الجاز وكتابة النوت . وكلنا يذكر « أندريه رايدر » الذى تخصص فى توزيع الموسيقى لكبار الملحنين كعبد الوهاب ، وفى مجال الرسم كان لهم باع طويل فى تطوير فن الكاريكاتير ، ومن يطالع صحف الثلاثينات سيجد رواد هذا الفن من الأرمن وأبرزهم « صاروخان » الذى يحمل اسم مدينة ارمنية شهيرة .

وعلى أكتاف الأرمن نهضت بعض الصناعات المحلية ، ليس أهمها البسطرمة والسجق كما يحلو للبعض أن يتندر ، ولاننسى صناعة الزيوت والسجائر والدخان التى أنشأها ماتوسيان وكوتاريلى وكاسيمس ، وفى وقت ما كان أشهر التريزة ومصممى الأزياء ومصطفى الشعر من الأرمن ، وكذلك محلات بيع الأدوات الكهربائية مثل نرسييس تشاكجيان الذى يقع فى ميدان العتبة .



وتتركز الجالية الأرمنية فى حى الظاهر بالقاهرة ولهم نواديهم الرياضية النشطة ولهم كنيستهم الخاصة على المذهب الأرثوذكسى ، ولهم مدارسهم التى تعنى بتعليم أبنائهم لغتهم ، وهى لغة عريقة من فصيلة اللغات الهندو أوروبية ، ولا يتحدث بها غيرهم ، فهى عامل من عوامل الحفاظ على الشخصية القومية وحمايتها من الذوبان رغم توالى العصور وتناثر الديار . ولكن هذا الاستقلال الباطنى لم يمنعهم من التغلغل فى المجتمع المصرى ، والتأثر بالروح المصرية والتعبير عنها بالرسم والموسيقى والأغنية والتمثيل ، خصوصا عند الأجيال الحديثة التى ولدت فى مصر وتشربت روحها واكتسبت عاداتها وتقاليدها .. ولعل أوضح مثال لذلك مجموعة الفنانة : نيللى وتوابها (اختها الكبرى فيروز وبنات خالاتها لبلبة وميمى جمال) وكل منهن برعت فى التعبير عن الروح المصرية بدرجة يصعب معها اكتشاف الحاجز الرقيق بين القومية المستكنة فى الأعماق ،

والروح المصرية المكتسبة ، وهذا الكلام ينطبق بالطبع على السلالات الأرمنية الجديدة التي امتصت الواقع المصرى وتطبعت به .

وإذا كان نوبار باشا - راس الشجرة الأرمنية فى مصر - قد عاش طفلة حياته فى مصر غريبا عن روحها ، يجهل لغتها ويأنف من الاختلاط بأهلها - فإن الأجيال الأرمنية الجديدة اندمجت فى الحياة المصرية عن طريق الزواج والتعليم والمعايشة اليومية ، وباتت جزءا من المجتمع المصرى الذى توافدت عليه عناصر متنوعة من شتى الأجناس على مختلف العصور ، فلم يلفظها مادامت قد امتزجت به ، وإنما يهضمها ، ثم يعيد تشكيلها على نسق فريد .. وذلك أحد أسرار الروح المصرية الأصلية .

ميرابو .. مصر

اشتهر

« ميرابو » في تاريخ الثورة الفرنسية بصيخته الجريئة التي القى بها في وجه جنود الملك حين اقتحموا مجلس طبقات الأمة لطرد النواب دون أن يناقشوا القضايا المصرية التي كانت بين أيديهم . عندئذ صاح ميرابو : إننا هنا بإرادة الشعب .. ولن نخرج إلا على أسنة الرماح .. !! وأصبحت هذه العبارة من مفجرات الثورة .. فبعدها تعاقبت الأحداث الدرامية التي شهدتها فرنسا خلال ثورتها الكبرى .

● ● ●

وبعد ٩٠ عاما من هذه الواقعة ، كان في القاهرة نائب شجاع قال نفس العبارة في موقف مشابه تماما .. كانت البداية التي توالى بعدها فصول الثورة العربية . أما النائب - واسمه عبد السلام المويلحي - فقد كان يمثل طليعة المعارضة الوطنية التي برزت في مجلس شورى النواب الذي انشأه الخديو اسماعيل عام ١٨٦٦ ضمن خطته الرامية الى إشراك المصريين في المسئولية ، وكانت الحكومة المصرية برئاسة نوبار باشا ، وتضم وزيرين احدهما انجليزى والآخر فرنسى ، تعد العدة لإعلان إفلاس مصر كحل أخير لازمة الديون الأجنبية ، وعلمت العناصر الوطنية في مجلس النواب بما تدبره الحكومة في الخفاء فاعدوا مشروعا مضادا ، يلتزم بمقتضاه المصريون بتسديد الديون من دخلهم القومى ، بشرط تنظيم الشؤون المالية ، وإصلاح مفاصل الادارة بعيدا عن تدخل الوزيرين الاجنبيين ، وشعرت الحكومة بما تعده المعارضة الوطنية فبيّنت النية على إجهاض المشروع ، واستصدرت مرسوما خديويا بفض المجلس قبل مواعده .

وفى صباح الخميس ٢٧ مارس ١٨٧٩ توجه رياض باشا ، وهو منتفخ الصدر ، الى قاعة مجلس النواب بالقلعة ، وماكاد يفرغ من تلاوة قرار فض الدورة ، حتى انبرى له النائب الجريء عبد السلام المويلحي قائلا : كيف ينفض المجلس وهو لم ينظر بعد فى القانون الخاص بالشؤون المالية .. ؟ ! إن الأهلالي قد أنابوا عن انفسهم نوابا للمحاماة عن حقوقهم .. فمن الواجب ان يعرض جميع ما يتعلق بالأهلالي على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه .. ومن

المستحيل أن ينفذ المجلس .. وبهت رياض باشا لهذه اللهجة التي لم يتعود سماعها من مصري ينتمى أبوه الى طائفة التجار .. فقال متسائلا : ماذا تقول حظرتكم .. ؟ مستحيل فض المجلس .. ؟ كيف يكون فض المجلس مستحيلا بعد أمر خديويينا المعظم .. هل حظرتكم فاهم قيمة مسئولية ماتقولوه ؟ واتجه رياض باشا الى بقية الأعضاء لتخويفهم حتى لا ينضموا الى هذا النائب الجريء وقال : ماأظن حظرات اخوانك يوافقون على ماتقول ..



وكانت المفاجأة الثانية عندما اندفع الاعضاء الوطنيون لشد أزر زميلهم وعلنوا تضامنهم معه فى كل مايقول .. وهم رياض باشا بالقيام ايذانا بانتهاء الجلسة .. وعندئذ صاح عبد السلام المويلحي قائلا : اننا هنا سلطة الامة .. ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب .. !!

عندئذ وجم رياض باشا لدى سماعه هذه العبارة التاريخية التي اعادت الى ذهنه أحداث الثورة الفرنسية فعاد الى مقعده صائحا : يعنى حظرتكم تقلدون نواب فرنسا الذين ثاروا على حكومتهم .. ؟ يعنى حظراتكم الآن بعمائمكم وجيبكم مثل نواب اوربا وامريكا .. ؟

ورد النواب الالهانة بعشرة امثالها .. وصاح احمد العويسى : ياباشا أنت الآن تشتم نواب أمتك التي تعطيك أنت وغيرك مرتباتكم الشهرية ، وقال عبد الشهيد بطرس : إن كلامك هذا وقاحة .. والمجلس لا يقبل هذه الوقاحة من ناظر الداخلية بل يردھا عليه . وقال احمد الصوفانى : اوافق العضو على رد الالهانة للناظر حتى يعلم أن فى البلاد أمة حية ولها نواب يدافعون عن كرامتها . وهنا قال عبد السلام المويلحي : اسمعت ياباشا .. ؟ ارايت عاقبة تسرعك فى الكلام ؟ اعلم أن المسألة ليست مسألة زى وثياب . بل مسألة نواب لهم عقول تفهم جيدا رغبات الامة التي انابتهم عنها اليس من العيب وانت وزير فى وزارة يزمالك فيها وزير انجليزى وآخر فرنسوى ، وهما فى الحقيقة خفيران عليكم وعلى الحكومة ، ثم تجمع امس - امام الوزيرين الاجنبيين - اصحاب الجرائد وتقول لهم : إن الحكومة عزمت على فض مجلس

شورى النواب غدا ، قالحذر كل الحذر من أن تنشروا كلمة واحدة
عن هؤلاء النواب فى جرائدكم لأنهم ناس جهلاء وهمج .. تقول
ذلك عن نواب بلادك ، مصر العريضة ، ونحن جميعا درسنا فى
الأزهر الشريف ،

فقال الشيخ حسن عبد الرازق : إن مقاله المويلحى يعبر عن
أفكارنا جميعا .. فصاح النواب : موافقون .. موافقون .. فلم يملك
رياض باشا إلا أن يغادر قاعة المجلس وهو يهذى : إذن أنا
منسحب .. أنتم عصاة .. أنتم ثوار .. فقال المويلحى موجهها كلامه
إلى كاتب الجلسة : لا تحذف حرفا واحدا مما قيل فى جلسة
اليوم ، حتى إذا نقلته الجرائد غدا ، علمت الأمة جميعا من هم
الهمج : النظار .. أم النواب .. !!

واستجاب النواب لطلب المويلحى باعتبار المجلس فى حالة
انعقاد دائم .. وتناوب الأعضاء على المبيت فى القاعة .. حتى
اهتزت أركان الحكومة فاستقالت .. ثم توالى الأحداث التى أفضت
إلى الثورة .

مجزرة هجية

في

الساعة السابعة من صبيحة الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ أعطى الأميرال سيمور إشارة الضرب ، فانهالت قذائف الأسطول البريطاني على مدينة الاسكندرية كانت القنابل تنطلق بدقة وإحكام ، فتصيب أهدافها اصابات مباشرة ، أما مدافع الحصون والطوابى المصرية فكانت ضعيفة خائرة متراخية ، فتسقط قنابلها في مياه البحر دون أن تصل إلى البوارج الانجليزية ، واستمر إطلاق الحمم حتى قبيل غروب الشمس ، وهي فترة كانت كافية لتدمير المدينة ، وتحويل أحيائها الآهلة إلى أطلال تتراكم فيها الجثث وتنشق اليوم بعد أن فر سكانها وهاموا على وجوههم نحو الريف بحثا عن ماوى يقيهم نار الجحيم .

كانت مجزرة بشرية رهيبة ارتكبتها بريطانيا العظمى عقابا للشعب المصرى لأنه رفض الاستسلام للنفوذ الأوربى الذى تغلغل فى أنحاء الديار المصرية ، وبات يشكل خطرا على روحها وشخصيتها وأخلاقيها واستقلالها الوطنى ، كان حكام مصر من سلالة محمد على قد فتحو ابواب البلاد على مصاريعها أمام الأجانب ومنحوهم امتيازات وحصانات جعلتهم بمنأى عن المساءلة إذا ارتكبوا أخط الجرائم ، ولم يكن هؤلاء الأجانب فى مستوى الطبيب الشهير كلوت بك ، أو القائد العسكرى الكولونيل سيف ، وإنما كان معظمهم من حثالات البشر المكدرسين فى الموانئ الأوربية من الأفاقين والمرابين وتجار الأعراض ، فلما تسامعوا عن الخير الوفير فى مصر المحروسة شدوا إليها الرجال طمعا فى الثراء الرخيص ، وامتحنوا أحقر المهن وانتشروا فى خدمة الحانات والخمارات وبيوت الدعارة ، فلما كثرت النفود فى أيديهم وظفوها فى الربا ، واستطاعوا تملك الأراضى الشاسعة والعقارات الثمينة ، واستغلوا الامتيازات الممنوحة لهم فى إذلال المصريين فى عقر دارهم ، وكانت المحاكم القنصلية الأجنبية هي المختصة بنظر جميع أنواع المنازعات الخاصة بالأطيان ، ومنها الرهن ونزع الملكية . ولك أن تعجب أشد العجب إذا عرفت أن هذه المنازعات كان يطبق عليها ١٧ قانونا أجنبيا تطبقها ١٧ قنصلية ، ويقف وراءها وكلاء شداد غلاظ القلوب مانت ضمائرهم

بفعل الطمع والجشع ، فكان على المصرى المسكين إذا خسر دعواه ضد الأجنبى أن يستأنفها أمام محاكم البلد التابع له هذا الخصم ، وإذا صدر على الأجنبى حكم بإخلاء أرض أو عقار لأحد المواطنين - كان الأجنبى يحتال على ذلك الحكم بالتنازل عن هذه الأرض لأجنبى آخر ، ويصبح على المصرى أن يقيم دعوى جديدة على الخصم الجديد .. وإزاء هذه الدورة الجهنمية كان المصرى يضطر إلى ترك حقه .. وبهذه الطريقة الخسيسة انتقلت الملكيات إلى الأجانب .. وأصبح المصريون كالأيتام على مواثد اللثام .



فلما أفاق المصريون على هذا الخطر الداهم ، وقامت الحركة العربية للحد من سطوة النفوذ الأجنبى ، انتفضت بريطانيا لتجهض الثورة بقوة السلاح ، وأوفدت أسطولها لتأديب المصريين حتى لا تقوم لهم قائمة ولا تراود خيالهم فكرة التحرر ، وجاء سيمور ليصحبها حمما على رؤوس أهل الاسكندرية فى ذاك اليوم المشئوم . ولقد وصف المسيو جون نينيه - عميد الجالية السويسرية وصديق المصريين - المجزرة بهذه الكلمات : « كانت البوارج الانجليزية تتقدم للضرب مثنى مثنى ، فى بطء ، ثم تصطف فى هودة تجاه كل طابية مصرية ، وتصب عليها قنابلها حتى تدكها دكا ، وعندئذ تقترب منها تدريجيا وتنسف البطاريات والمدافع التى تكون قد انقلبت عن موضعها تحت تأثير قنابل الأسطول ، ثم تنثنى على الرماة المصريين فتحصدهم حصدا بقذائف المتراليوزات المركبة على ساريات البوارج . ويجب أن نعترف بأن هذه مجزرة همجية لم يكن لها أى مسوغ ، وليس الباعث عليها سوى الشهوة الوحشية المتعطشة إلى القتل وسفك الدماء ، ولقد كان يودى أن أسائل أولئك الضباط الذين كانوا يباشرون الضرب ويقدفون قنابل المتراليوزات : هل يستطيعون حينما يعودون إلى بلادهم ويجلسون حول مواثد الشاى فى بيوتهم أن يتحدثوا إلى ذويهم عن أثار القتل والتدمير ، التى خلفتها تلك المجازر البشرية ؟ إننى أشك فى ذلك ، فليت شعرى أى إهانة لحقت بالامة البريطانية من جراء هذا الجرم الفظيع .. » .



وإذا كانت المجزرة قد حركت ضمير هذا السويسرى الشريف ،

فإنها لم تحرك ضمير العالم الأوربي الذي كان يتشدد بالحرية ، ويرطن بشعارات الإخاء والمساواة ، فقد وقفت كل الدول الأوربية تتفرج على المشهد وكأنها تتلهى برؤية إحدى حلقات المصارعة بين الأسود والعبيد في العصر الروماني ، حتى فرنسا الحرة تخلت عن شعاراتها ، ولم تجرؤ على أن تقول لغريماتها المتعجرفة « عيب » . وهرب الأسطول الفرنسي الذي كان يرايط في مياه الاسكندرية قبيل الضرب ، هرب إلى بورسعيد بعد أن كثر له سيمور عن أنيابه ، وخابت آمال المصريين في فرنسا نصيرة الحرية والعدالة . بل حدث ما هو أدهى وأمر .. فقد اعتبرت الحكومة الفرنسية مجزرة الاسكندرية وماتبعها من احتلال عسكري ، عملا من أعمال البطولة تستحق عليه بريطانيا التهنئة الحارة ، وكان جواب حكومة لندن على التهنئة : « إن انتصارنا هو انتصار أوربي ، ولو انهزم الجيش الانجليزي لكان ذلك كارثة على كل الدول التي تحسب حسابا للتعصب الاسلامي » .

التعصب الاسلامي .. !!

انعم النظر في هذه العبارة الغريبة حتى يملكك الغيظ .. !
بريطانيا العظمى تحرك في نفس شريكاتها النعرة الصليبية المقيتة ، وترى في دفاع أمة صغيرة عن حريتها واستقلالها وكرامتها مظهرا للتعصب الديني .. !! أما امتصاص دماء المصريين ونهب ثرواتهم ، وإذلال كرامتهم ، فهو عين التسامح الديني الذي تريده الدول العظمى !
منطق غريب جدا .. ولكنه منطق الذئاب الضارية مع الحمل الوديع في كل عصر .

حرق الاسكندرية

الاستحكامات العسكرية فى مدينة الاسكندرية قبيل ضربها فى يوليو ١٨٨٢ قد بلغت درجة سيئة من التهالك والقدم ، فالحكام الذين استدانوا وأنفقوا الملايين على بناء القصور وإقامة

كانت

الحفلات وشراء الجوارى ، لم يفكروا فى تجديد الحصون والطوابى وشراء المدافع الحديثة القادرة على مواجهة العدوان الخارجى . وبسبب هذا الضعف والاهمال لم تصمد الطوابى امام النيران الهائلة التى صبقتها قذائف الاسطول الانجليزى ، ولم يبق امام الجنود المصريين الرابضين خلف المدافع الخائرة سوى الاستبسال والدفاع عن شرفهم وشرف بلادهم حتى الرمي الأخير . وكان الثمن غاليا .

يصف شاهد العيان جون نينيه صمود الجنود المصريين وكأنه يرسم لوحة زيتية رائعة لماساة دامية فيقول : « ماكان أبدع هذا المنظر .. منظر الرماة المصريين الذين كانوا قائمين على مدافعهم وهى مكشوفة فى العراء وكانما هم فى استعراض حربى لا يرهبون الموت الذى يكتنفهم ، إذ لم يكن لهم دروع واقية ولا متاريس ، وكانت معظم الحصون بلا سواتر ، ومع ذلك فهؤلاء الشجعان من أبناء النيل كنا نلمحهم وسط الدخان الكثيف كأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا فى حومة الوغى ثم بعثوا ليكافحوا العدو من جديد ويستهدفوا لنيران مدافعه ، وكان الأثمة يزورون الحصون ويشجعون المقاومة ، وقام الجميع بواجبهم من جند ورجال ونساء وصغار وكبار ، ولم يكن ثمة أوسمة ولا مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم ، بل أن عاطفة الوطنية والثورة على القضاة التى استهدفوا لها كانت تستثير الحماسة فى صدورهم ، وهم أولئك الشجعان المجهولون الذين لم يفكر أحد فى الأهم . »



وفى اليوم التالى استأنف الاسطول البريطانى قصف المدينة الباسلة رغم أن الطوابى قد سكنت تماما بعد تخریبها ، ورفعت الرايات البيضاء ، وظهر جليا عزم الانجليز على احتلال المدينة بعد أن دكوا حصونها وحطموا كل وسائل دفاعها . وبينما كانت

طلائع قوات الغزو تطلأ أرض الساحل السكندري ، اندلعت النيران فجأة في حي المنشية ، وماهى إلا ساعة أو بعض الساعة حتى انتشرت النيران في بقية الأحياء الشعبية والأجنبية ، وما إن حل المساء حتى كانت المدينة قد تحولت إلى شعلة من الوهج .

●● من الذى أمر بحرق الاسكندرية .. ؟

لا يزال هذا اللغز موضع اهتمام الباحثين . وكان من الطبيعى أن ينصب الاتهام على رأس العربيين الذين أبوا أن يتركوا المدينة موطنًا سهلاً للغزاة ، ففعلوا ما فعله الروس فى موسكو عندما تقدمت إليها جحافل جيش نابليون فحرموه نعمة الإيواء فى مدينة أمنة ، وقال بعض الشهود إنهم رأوا عبد الله النديم - بعد الحادث - فى محطة سيدى جابر راكباً فى صهريج القطار وفى يده طبنجة وسمعوه يقول إنه قتل بها ثلاثة أشخاص وإن حرق المدينة كان بواسطة غاز احضر بمعرفتهم وصب على الدكاكين والمنازل حتى يتم الحرق بسرعة .

وتكاد معظم المراجع التاريخية تجمع على أن الذى أمر بإحراق المدينة هو القائمقام سليمان سامى داود قائد الآلاى السادس الذى كان متمركزاً فى المدينة ولم يشترك فى القتال ، فقد أمر جنوده بإضرام النار فى المدينة على أمل أن يحول الحريق دون نزول الانجليز بها واتخاذها قاعدة حربية لزحفهم . ويصف الرافعى هذا العمل بأنه كان عملاً عقيماً يدل على الجهل بالخطط الحربية ، لأنه لم يعطل نزول الجنود الانجليز الى البر صبيحة اليوم التالى (الخميس ١٣ يوليو) كما يصف ذاك الضابط الكبير بأنه كان مشهوراً بالحمق والتهور وكان يعتبر نفسه « عربى » آخر بالاسكندرية ، وقد صمم على ألا ينسحب الجيش من الاسكندرية إلا بعد أن يجعلها خراباً . ويتخذ الرافعى من هذا التصرف دليلاً على انعدام وحدة القرار بين القادة العربيين وينفى عن عربى تهمة إصدار مثل هذا القرار الخطير .

ولقد أثبتت التحقيقات أن مسئولية إحراق المدينة وماتعرضت له من أعمال السلب والنهب لا تقع على عاتق القائمقام سليمان سامى داود وحده ، وإنما كانت هناك قوى أخرى اشتركت فى تخريب المدينة ، وفى ذلك يقول الإمام محمد عبده إن تهمة حرق الاسكندرية ينبغى أن توجه لأكثر من طرف ، فقد عثر على جثث

أروام بلباس عرب اثناء الحريق ، كما اشترك فيه عربان من أولاد على ، ممن كانوا على صلة بالخديو توفيق ، ومنهم أهالي الاسكندرية ومنهم اورييون بقصد المبالغة في طلب التعويضات . ويقول شاهد العيان جون نينيه إن الحرائق الأولى شبت في الأحياء الشعبية من قنابل الاسطول الانجليزى يوم الضرب ، ومن فعل بعض الأوربيين الذين بقوا في المدينة بقصد النهب ، وبعض الأتقياء الذين أطلق سراحهم من السجون ، أما حرائق الأحياء الأوربية فهي من فعل عربان « أولاد على » الذين كانوا مجتمعين حول البلد يعاونهم بعض عساكر الرديف وبعض الأروام ، ثم بعض أصحاب الدكاكين من الأجانب ممن قصدوا الحصول على تعويضات .



ورغم توزع المسؤولية على كل هذه العناصر ، إلا أن المسؤولية وضعت في رقبة القائمقام سليمان سامى الذى نجح فى الفرار على ظهر قارب إلى جزيرة كريت وكانت تابعة للسلطان العثماني ، وبعثت سلطات الاحتلال البريطانى الى حكومة استانبول تطلب القبض عليه وتسليمه إليها ، ولم يكن من حكومة استانبول سوى الإذعان ، فالقت القبض عليه وبعثت به مخفورا إلى مصر ، حيث قدم إلى المحاكمة العسكرية وحكم عليه بالاعدام .

وكان سليمان سامى داود أحد ضابطين اثنين حكم عليهما بالاعدام ، ونفذ فيهما الحكم بالرغم من تخفيف أحكام الاعدام عن قادة الثورة العربية ، أما الضابط الثانى فله قصة أخرى .

الشهيد البريء

كان

من الطبيعى أن تسود الشارع المصرى روح الكراهية والعداء للأجانب بعد ضرب الاسكندرية واحتلال الانجليز لها . وكان المهاجرون من أبناء الاسكندرية قد انتشروا فى انحاء الدلتا يحكون للناس عن الفظائع التى وقعت لهم ، فثارت خواطر العامة ، وامتلات نفوسهم حقدا وغيظا ونقمة على الأوربيين الذين كان تواطؤهم مع الانجليز أمرا واضحا منذ بداية الأزمة ، وقامت جماعات من المتحمسين فى طنطا والمحلة الكبرى ومنوف تطارد الأجانب فى الشوارع وتعتدى على محلاتهم ، ولم تكن هذه التصرفات الهوجاء تحظى برضاء عقلاء القوم ، لما يعرفونه عن مخاطرها فى المستقبل ، فضلا عن منافاتها لروح السماحة المعروفة عند المصريين ، ونهض كبار الأعيان يفتحون بيوتهم لإيواء الأجانب وحمايتهم من الاعتداء ، وانفتح بيت أحمد المنشاوى باشا فى طنطا لاستقبال أكثر من ٣٠٠ شخص من الأوربيين فوجدوا فيه الحماية والأمان .

فى ذلك الوقت كانت المعارك دائرة بين الجيش البريطانى والجيش المصرى بقيادة أحمد عرابى باشا فى كفر الدوار ، وكان اللواء عبد العال حلمى باشا قائدا لجبهة دمياط ، فاوقد ياوره الخاص اليوزباشى يوسف أبو دية فى مهمة عاجلة إلى عرابى باشا فى كفر الدوار ، وأثناء توقف الضابط الشاب فى طنطا وجد شوارع المدينة قد تحولت إلى ساحة للشغب والفوضى ، فالأهالى يطاردون الأجانب فى غيبة من رجال الأمن . ولم يشأ الضابط الشهم أن يترك المدينة وهى على هذه الحال من الفوضى ويواصل مشواره إلى كفر الدوار ، وأبى عليه حسه الوطنى وإدراكه للمسئولية أن يقف متفرجا ويقول (وانا مالى) فمضى لتوه إلى مبنى المديرية فلم يجد مدير الغربية ابراهيم باشا أدهم فى مكتبه فى هذا الوقت العصيب . وقيل له إنه مريض وملازم الفراش فى بيته ، فمضى إليه فى بيته فوجده سليما وصحته زى البمب . فما كان من الضابط الشاب إلا أن انهال على الباشا المدير تقريبا وتوبيخا ، وغادر طنطا من فوره إلى كفر الدوار ، حيث حكي

لعرابي باشا عن قصة المدير المتمارض الذى لزم بيته تاركا
الفوضى تضرب اطنابها فى مدن الغربية ، وأبلغه ماسمعه عن
وقوع أحداث مشابهة فى المنوفية ، فانزعج عرابى انزعاجا
شديدا ، وأمر بالقبض على مدير الغربية ومدير المنوفية ،
وتقديمهما إلى محاكمة فورية أمام المجلس العسكرى المنعقد فى
القاهرة ، وأمر بإرسال اورطة من الجيش بقيادة الفريق راشد باشا
حسنى لإعادة النظام إلى مدن الغربية والمنوفية ، وأصدر
تعليماته إلى مصلحة السكة الحديدية بإرسال قطار خاص إلى
طنطا لنقل الأجانب الذين يرغبون فى السفر إلى الاسماعيلية
وبورسعيد بالمجان .



فلما انقلب الميزان ، وانهزم الجيش المصرى أمام جحافل
الاحتلال البريطانى ، خرجت الأفاعي من جحورها ، واستأسدت
الثعالب والذئاب ، وبدأت الحملة المضادة للانتقام من العناصر
الوطنية التى وقفت إلى جانب عرابى دفاعا عن استقلال الوطن ،
وفى إطار الانهيار الأخلاقى الذى عم البلاد تحول الخونة إلى
ابطال ، وانزوى الأبطال فى غياهب السجون ، وانقلبت قضية
المدير المهمل ابراهيم ادهم على أعقابها ، وخرج من سجنه ليواجه
اللائم إلى الضابط الشاب يوسف أبو دية بأنه كان يحرض اهالى
طنطا على قتل الأجانب !! ولم يعدم المدير الهمام العثور على
بعض الساقطين من ذوى الذمم الخربة ليشهدوا زورا أمام
المحكمة العسكرية بالاسكندرية بأن اليوزباشى أبو دية كان
يحرضهم على الفوضى والشغب .. ولم يكن لدى المحكمة
العسكرية وقت لتفنيد هذه الدعاوى والتأكد من بطلانها ، فلم يكن
الوقت يسمح بمثل هذه الاجراءات القضائية . كان المطلوب سرعة
البت فى محاكمة العرابيين حتى يتفرغ الانجليز لتنظيم شؤون
الاحتلال .. وذهبت عبثا محاولات الضابط الشهم لإثبات كذب
الادعاءات التى افترها عليه المدير ، فحكمت عليه المحكمة
بالإعدام شنقا ، وسيق إلى السجن انتظارا لتنفيذ الحكم .



ومضت الأيام ثقيلة كئيبة حتى نشرت الصحف نبا الحكم
بالإعدام على الضابط البرىء يوسف أبو دية ، وثارت ضمائر

بعض أهالى طنطا ، فقد أزعجهم أن يساق إلى حبل المشنقة ضابط
بتهمة التحريض على قتل الأجانب ، بينما شاهدوه بأعينهم وهو
يبذل قصارى جهده لوقف عمليات الاعتداء ، فتطوعوا بالذهاب
إلى مكاتب التحقيق بالاسكندرية ، وشهدوا بالحقيقة التى لمسوها
بأعينهم ، واستطاعوا إثبات كذب الشهادات المزورة التى قدمها
المدير ، واعدت هيئة التحقيق فتح ملف القضية واقتنعت بصحة
الوقائع الجديدة وكذب الأدلة التى استند إليها حكم الإعدام .
واعدت هيئة المحكمة تقريرها وانتهت فيه الى براءة اليوزباشى
يوسف أبو دية ، ورفعت تقريرها إلى وزير الحقانية طالبة
استصدار مرسوم من الخديو بالعفو على الضابط البرىء وأصدر
الخديو توفيق مرسوم العفو الذى حمله رسول خاص إلى
الاسكندرية . وثناء القدر العاثر أن يصل المرسوم إلى السجن بعد
خمس دقائق فقط من تنفيذ حكم الإعدام فى الضابط البرىء ، وقرا
مامور السجن مرسوم العفو ، بينما كانت جثة الضابط الشهيد
يوسف أبو دية تتدلى فى بئر المشنقة . ولم يتمالك الحاضرون
أنفسهم ، فاجهشوا بالبكاء بمن فيهم عشاوى نفسه .

أبو الدستور

كان قاضى قضاة مصر عام ١٨٢٦ رجلا تركيا اسمه محمد شريف افندى الشركسى ، وكان منصب قاضى القضاة من المناصب العليا التى تستأثر بها حكومة الخلافة العثمانية بحكم سيادتها على مصر رغم استقلال محمد على بمصر استقلالا فعليا ، وفى أثناء السنة التى قضاها الشركسى افندى بمصر انجب طفلا اسماه (شريف) ، ولم يلبث أن عاد به إلى الاسكندرية بعد انتهاء فترة خدمته بمصر ، وبعد سنوات عين الرجل قاضيا على الحجاز وفى أثناء ذهابه إليها عرج على مصر ليحظى ببركات ولى النعم محمد على الذى ما إن شاهد الصبى (شريف) حتى توسم فيه النجابة والذكاء وادرك أنه سيكون له شأن وكان محمد على يتمتع بخاصية الفراسة فطلب من الأب إبقاء ابنه فى مصر ليتلقى تربية ملوكية مع أبناء الوالى ، ووافق الأب وترك الصبى وديعة فى كنف عزيز مصر ، والتحق شريف بالمدرسة العسكرية التى أنشأها محمد على فى الخانكة لتعليم أولاده أصول الضبط والربط ، وكان زملاؤه من أبناء العزيز : سعيد وحليم وحسين ، ومن الأحفاد اسماعيل ، فلما أتموا تعليمهم سافروا الى باريس ليلحقوا بمدرسة (الرسالة) التى أقامها محمد على لاستكمال تعليم المتفوقين من خريجي مدرسة الخانكة ، وهنا ظهرت ميول شريف لتعلم الفنون الحربية فالتحق بمدرسة (سان سير) وهى يومئذ أرقى المعاهد العسكرية الفرنسية وبعد تخرجه خدم فى الجيش الفرنسى سنتين فلما مات محمد على عاد إلى مصر وهو برتبة نقيب فدخل الجيش المصرى معاونا للكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) وتوطدت الصداقة بينهما حتى انتهت بالمصاهرة فتزوج الضابط الشاب ابنة سليمان .

وفى عهد الوالى سعيد تفتحت ابواب الترقى امام شريف باشا فعينه رئيسا للحرس الخصوصى برتبة لواء ، وبعدها ترك الخدمة العسكرية وتفرغ للنشاط الدبلوماسى وساعدته على ذلك ثقافته الفرنسية فأصبح سفيرا متجولا وممثلا شخصيا للوالى فى المهام الخارجية فلما تولى اسماعيل ازدادت فرص الترقى امام شريف حتى اضحى وزيره الأكبر وموضع ثقته لدرجة ان عينه (قائمقام

مصر) أثناء غيابه فى الخارج ، وكانت المرة الأولى التى يعين فيها نائب عن خديوى مصر من خارج الأسرة العلوية .
هذا هو شريف باشا الذى ارتبط اسمه بكل الأحداث الجسام التى شهدتها مصر طوال ثلاثين عاما ، كان أجلها نشوب الثورة العربية ، وأفدحها وقوع الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ ، ولكن الشهرة الكبرى التى علقت باسم شريف إنما جاءت من ارتباطه بالدستور وبالحياة النيابية وكلاهما خرج من أعطافه وبفضل مثابرته وإيمانه بالديمقراطية وبغضه للاستبداد .. والحكم الأتوقراطي وإصراره على حق المصريين فى ممارسة الأساليب الحديثة فى شؤون الحكم .



كان من ثمرات هذا الكفاح النبيل أن شهدت مصر فى عام ١٨٧٩ تدوين أول دستور على أحدث المبادئ العصرية وأخذ شريف مسودة الدستور وذهب بها الى مجلس النواب الذى حاولت حكومة رياض الإطاحة به فاعاد شريف للمجلس اعتباره وطلب منه الاستمرار فى ممارسة مهامه النيابية احتراما للقرار الذى اتخذته المعارضة الوطنية برفض حل المجلس ، وأعلن شريف أنه لن يوضع قانون ولن يعدل قانون - بما فيها القوانين الأساسية التى تقرر النظام الدستورى - إلا بقرار من المجلس ، وزيادة فى تكريم مجلس النواب وإضفاء صفة (اللجنة التأسيسية) عليه ، طلبت الحكومة من المجلس إقرار الدستور قبل عرضه على الخديو اسماعيل حتى لا يبدو وكأنه منحة من ولى النعم ومن المآثر التى سوف تذكر لشريف باشا أبد الدهر أنه ضمن هذا الدستور نصا يخول لأبناء السودان حق انتخاب ممثليهم فى مجلس النواب تأكيدا للروابط التاريخية بين شطرى الوادى .



بعد كل هذا الا ترى أن شريف باشا يستحق عن جدارة لقب (ابو الدستور) .. ! إن النهج الذى نهجه هذا الرجل لا يزال ماثرا دهشة المؤرخين الذين سجلوا إصراره وصبره وانتزاعه حقوق المصريين السياسية من براثن اسماعيل وتزداد الدهشة إذا تذكرنا أن شريف باشا لم يكن مصريا أصيلا ولا تربطه بالتراب المصرى وشيجة قديمة ، ولا تجرى فى عروقه قطرة واحدة من دماء

الفلاحين .. ! فما الذى دفعه الى سلوك هذا المسلك الوعر ليقف
الى جانب الحقوق الدستورية للمصريين فى مواجهة السلطات
الأتوقراطية التى كان يتمتع بها حكام مصر ومن يلوذ بهم من بقايا
الترك والشركس والألبان .. وهو الذى ينتمى إليهم ؟ .. !

قصة مزعومة

قبل

أن أمضى في الحديث عن شريف باشا ، أبى الدستور وراعى الحياة النيابية فى مصر الحديثة ، استأذن القارئ فى عرض هذه

الحكاية التى تتصل بشريف نفسه ، وتلقى بعض الظلال على عملية ميلاد أول برلمان مصرى فى عام ١٨٦٦ وهو مجلس شورى النواب الذى أنشأه الخديو اسماعيل ليستكمل به ديكور الحضارة الأوروبية فى مصر .

تقول القصة إنه قبيل انعقاد المجلس . لأول مرة ، اجتمع شريف باشا مع النواب (٧٥ نائبا) بالقلعة ، وألقى عليهم درسا فى أصول الاجراءات البرلمانية ، ومنها أن يشكلوا من بينهم حزبين : أحدهما يؤيد الحكومة ويجلس على مقاعد اليمين ، والثانى يمثل المعارضة ويجلس على اليسار ، وتظاهر النواب بأنهم استوعبوا الدرس ، فلما دخلوا القاعة جلسوا جميعا على اليمين ، فثار شريف باشا وأفهمهم أنهم بذلك يخرقون التقاليد ، ولكن النواب استنكروا طلبه وقالو له : كيف يخطر ببالك يا باشا أن يكون بيننا معارض لحكومة أفندينا وولى نعمتنا .. !! وتمضى القصة - امعانا فى السخرية - فترغم بأن شريف باشا أصر على أن يجلس بعضهم فى مقاعد اليسار ، فما كان منهم إلا أن تحولوا جميعا الى مقاعد اليسار .. !!

● ● ●

فما رأيك - عزيزى القارئ - فى هذه النكتة التى يرددها بعض كتابنا حين يريدون التدليل على عظمة التطور البرلمانى المصرى المعاصر ، فلا يجدون أمامهم من سبيل سوى التحقير من شأن آباء الديمقراطية المصرية ، والتهكم على الرعيل البرلمانى الأول ، وإظهاره بصورة الجاهل الذى لا يعرف الفرق بين مقاعد اليمين ومقاعد اليسار ولا يتخيل أن تكون هناك معارضة لحكومة ولى النعم .. !!

إنك لو عرضت هذه القصة على ميزان العقل - قبل عرضها على أدوات البحث التاريخى - فلن يستسيخها . فمهما قيل عن وداعة المصريين وطيبتهم وصبرهم العريق وتمسكهم بالشرعية - وهو

قول فيه نظر - الا أن الأمر لا يبلغ بهم حد البلاهة ، واستهجان قيام معارضة برلمانية ، ولو مصطنعة ، بل المعقول أن تنشأ بينهم « خميرة » معارضة ولو على سبيل التقليد للغرب ، كما يشاع على لسان شريف باشا فى القصة المزعومة ، فضلا عن ذلك فإن المجتمعات الانسانية عرفت المعارضة فى كل الشرائع والنظم ، فلماذا يصرب بعض الكتاب على استثناء الشعب المصرى من هذه المزية التى عرفتها كل الشعوب .. !!



اما لو عرضت القصة على ميزان البحث التاريخى فسوف تكتشف أنها قصة مختلقة ليس لها أصل فى مصادر التاريخ الموثوق بها ، وإنما هى من مخترعات الكتاب الأوربيين حين يطيب لهم السخرية من المصريين الذين لا يصلحون - فى رأيهم - لممارسة مبتكرات الحضارة الغربية ..

وهذه النتيجة هى التى انتهى اليها المؤرخ عبد الرحمن الرافعى بعد أن فُتد القصة ومحصلها فلم يجد لها سندا من اقوال شهود العيان الذين عاصروا نشأة المجلس ، ولا جاء ذكرها ولو تلميحا فى مضابط المجلس ، ويضيف الى ذلك قوله بأن الرواية لا يسيغها المنطق لأن نظام المجلس واختصاصه لا يدع مجالا لتأليف حزب للحكومة وحزب للمعارضة ، فالأحزاب الموالية والمعارضة إنما توجد حيث يكون للمجلس حق الاقتراع على الثقة بالوزارة (وهو ما يعرف بمبدأ المسؤولية الوزارية) ولم يكن مجلس شورى النواب يملك هذا الحق ادسلا .. مما يقطع ببطلان القصة من أساسها ..



ولكن بعض كتابنا لا يتحرزون من ترديد هذه القصة المختلقة ، والترويج لها بحسن نية ، دون ادراك منهم لما تنطوى عليه من افتراء وتجريح وتهكم .. !! .

مصرية متقنة الصنع

بحث

هزيمة العرابيين في التل الكبير (١٣ سبتمبر ١٨٨٢)
ايقن احمد عرابي أنه لا أمل في الصمود ،
فهرع الى القاهرة ، وسلم نفسه الى

سلطات الاحتلال البريطاني التي اصبحت - منذ هذا اليوم
المشئوم - صاحبة الكلمة الاولى في ادارة شئون مصر ، واضحى
الخديو توفيق مثل خيال المائة .. لا تتعدى سلطاته حدود قصره ،
وبدأت اجراءات التحقيق مع عرابي وزملائه الستة تمهيدا
لمحاكمتهم ، ورأى الانجليز ان تقتصر قائمة الاتهام على تهمة
واحدة فقط هي : عصيان الخديو وان يصدر الحكم على عرابي
وزملائه بالاعدام متضمنا التخفيف الى النفي المؤبد خارج مصر .
وكان توفيق الخائن لا يرى بديلا عن اعدام عرابي ، ولو كانت
توجد عقوبة اشد فتكا وتنكيلا من الاعدام لما تورع عن
استعمالها ، ولو ترك توفيق وهواه .. لاستخدم مع عرابي ابشع
فنون التعذيب التي تعودها حكام الشرق وسودوا بها صحائف
التاريخ ، ولكن الانجليز .. وقد استقرت لهم الامور .. وقفوا في
وجه توفيق .. وحالوا بينه وبين رقبة عرابي ..
وبدا الامر في غاية الغرابة .. !!

● ● حاكم البلاد الشرعى يطالب برقبة الزعيم الوطني الذي وقف
في وجه الغزو الانجليزى ، ثم انكسر بفعل الخيانة والعجز
والتردد ..

● ● وسلطات الاحتلال ترى الابقاء على حياته !!

● ● ●

وكان هذا الموقف المحير - ولا يزال - مثار دهشة الباحثين
ونقاد التاريخ ، وقد حاول المؤرخ عبدالرحمن الرافعى ان يلقي
ظلالا من الشك حول قيام علاقة مشبوهة بين عرابي والانجليز ،
مستعينا في ذلك بمزاعم السياسة الفرنسيين ، وقد بلغ بهم الشطط

أن ادعوا وجود اتفاق مسبق بين عرابي والانجليز على احتلال مصر !!

ومع ان الرافعى وصف اقوال المسئولين بانها (اسراف فى الاتهام) الا انه لم يكلف نفسه مسئولية مناقشة هذا الاتهام الفظيع ودحضه ، وكشف ما ينطوى عليه من تهافت وسطحية ، واى ناقد للتاريخ يعرف دوافع المزاعم الفرنسية ، فقد خرجت فرنسا من سياق احتلال مصر خاسرة ، واستطاعت انجلترا ان تنفرد بمصر وتفترسها بعد ان خدعت الذئاب الأوروبية الأخرى وابعدها خارج الحلبة ، فلم تجد هذه الذئاب من وسيلة للتعبير عن حنقها وخيبتها سوى التشنيع والتشكيك فى وطنية عرابي واتهامه بالتواطؤ مع اعدائه . وظل هذا الاتهام معلقا برقبة العربيين سنين طويلة ، والمؤسف ان تآثرت به بعض العناصر الوطنية مثل مصطفى كامل والشاعر احمد شوقي وبدا هذا التأثير واضحا فى كتابات الرافعى التى تزخر بالتحامل والتجنى على الحركة العربية



ولكن السؤال الأهم الذى لايزال قائما هو : لماذا اظهر الانجليز هذا القدر الكبير من التسامح مع عرابي — ولماذا اصروا على الابقاء عليه حيا ، وهم الذين جردوا الاساطيل للقضاء عليه ؟ لقد ظهر عطف الانجليز على عرابي منذ وقع فى ايديهم ، وهددوا الخديو اذا اصابه مكروه ، وامروا بان يعامل معاملة انسانية فى سجنه ولا يتعرض لاي تعذيب ، بينما كان الخديو الخائن يبعث تابعه ابراهيم اغا فى منتصف الليل ليفتح الزنزانة على البطل الاسير ويوقظه من نومه ثم يبصق فى وجهه وينهال عليه بأقذع الشتائم ، وعين الانجليز مندوبا خاصا (تشارلس ويلسون) لحضور مراحل التحقيق مع عرابي ، وتدخلوا فى توجيه التحقيق بحيث يقتصر على تهمة العصيان وتبرئته من تهمة تدبير مذبحة الاسكندرية التى وقعت قبل شهر من ضرب الاسكندرية

وفى نفس الوقت كانت هناك اتصالات تجرى وراء الكواليس عبر القاهرة ولندن هدفها انقاذ عرابي من حبل المشنقة ، وكان محور هذه المساعي الكاتب الحر والسياسي الانجليزى الشهير

مستر (بلنت) صديق العربيين الحميم وكاتم اسرارهم منذ فجر الحركة الوطنية ، وقاد بلنت حملة اعلامية من احرار الانجليز لتحريك الراى العام الانجليزى ليرغم حكومته على انقاذ البطل القومى المصرى الذى ثار على الظلم والطغيان والسخرة وحكم الفرد ، وتطلع مع شعبه الى حياة جديدة تناسب روح العصر ويتحقق فيها قدر معقول من العدل والمساواة والمشاركة فى ادارة البلاد .

وبينما كان عرابى عاجزا عن توكيل محام مصرى يتولى الدفاع عنه امام المحكمة المصرية (!!) كان بلنت قد نجح فى تكليف محام انجليزى للدفاع عن عرابى واخوانه .. وجاء الرجل الى القاهرة وقام بمهمته الجلييلة .. وتم الاتفاق مع سلطات الاحتلال على صيغة الاتهام ومنطوق الحكم .. حتى اذا وقف عرابى امام قضائه كان كل شىء قد تم اعداده مسبقا .. وبدأت المحاكمة مثل مسرحية متقنة الصنع .

مذنب .. أم غير مذنب ؟

تستغرق محاكمة زعيم الثورة العراقية أكثر من خمس دقائق ، كانت كافية لأن يؤدي كل طرف من اطراف المسرحية دوره المرسوم بإتقان .. وشهدت قاعة مجلس النواب القديم (قاعة

لهم

مجلس الشورى حاليا) ستار الختام وهو ينسدل على تلك الملحمة الأسطورية الباسلة التي خاضها الشعب المصري ضد الاستبداد والظلم والتدخل الأجنبي .. ولكن .. هاهو ذا الحلم الذى راود قلوب المصريين فى الحرية والعدل .. يخبو ويذبل .. وهاهو ذا البطل القومى المهزوم يقف أسيرا بين براثن اعدائه ليؤدي الدور الذى كتبوه له .. ولم يكن مطلوبا منه ان يتكلم او يدافع عن نفسه .. حتى اذا سألته المحكمة عما إذا كان مذنبا ام غير مذنب - أشار إلى محاميه الانجليزى ، مستر برودلى ، فيقف ليتلو بالفرنسية اعترافا من زعيم الثورة بأنه مذنب ، ثم يقدم الى هيئة المحكمة نص الوثيقة التى وقعها عرابى فى صبيحة ذلك اليوم ونصها « بمحض ارادتى الحرة وبناء على مشورة محامى ، اقر باننى مذنب فى التهمة التى تليت على الآن » .

والمقصود تهمة التمرد على الجناب الخديو . وتنفض المحكمة لمداولة صورية تستغرق ست ساعات ، أغلب الظن ان اعضاء المحكمة التسعة قضوها فى تدخين الشيشة ، فلم يكن هناك شىء يستحق المداولة ، لان رئيس المحكمة - الفريق رؤوف باشا - كان يحمل فى جيبه نص الحكم الذى كان محكوما عليه بان ينطق به امام جمهور معظمه من الصحفيين الأجانب الذين كانوا يعرفون التطور الدرامى للمحاكمة .. !



هل كان عرابى مخطئا حين قبل الاشتراك فى هذه المسرحية التى انتهت بتخليص رقبته من حبل المشنقة ومعه رقاب ستة من اكبر أعوانه وإبعادهم جميعا خارج البلاد .. ؟ ؟ من السهل على قارئ التاريخ المعاصر ان يصدر حكما تعسفيا على هؤلاء الرجال ، مدفوعا بعاطفة الحماسة ، ولكن من الصعب على الباحث المنصف ان يصدر مثل هذا الحكم قبل أن يلم المأما

كافيا بالظروف والملابسات التي احاطت بالحدث ، وبشرط أن يتجرد من مشاعر الحب والبغض ، وبذلك يكون حكمه اقرب الى الانصاف والعدل ..

اما خصوم الثورة العربية فيأخذون على زعيمها قبوله توكيل محام انجليزى للدفاع عنه أمام محكمة مصرية ، ويتخذون من ذلك ذريعة لاتهام عرابى بالتواطؤ مع الانجليز ..
والواقع ان عرابى لم يقصر فى توكيل محام مصرى عنه ، ولكن الذى حدث ان هذا المحامى المصرى تنصل من القيام بواجبه خوفا من بطش الخديو .. بينما كان مستر بلنت - صديق العربيين - قد نجح مع اصدقائه الاحرار الانجليز ، فى الاتفاق مع مستر برودى وزميله نيبيير للدفاع عن عرابى واخوانه ، وعندما جاء المحاميان الانجليزيان الى مصر وجدا سلطات الاحتلال قد شددت قبضتها على شئون مصر ، وآل إليها زمام الامر كله ، فكان لابد من « تسوية » ترضى جميع الاطراف .



كان لورد دوفرين ، سفير انجلترا فى الاستانة واحد اساطين الاستعمار البريطانى - قد جاء الى القاهرة عقب الاحتلال ليرسم مستقبل مصر فى ظل الاحتلال ، ويضع البرنامج الاستغمارى طويل الأجل الذى سيقوم بتنفيذه تلميذه النجيب لورد كرومر ، وكان من رأى دوفرين الفراغ بسرعة من قضية العربيين واغلاق هذا الملف الثورى الى الأبد ، حتى تتفرغ انجلترا لمهمتها الاستيطانية فى مصر ، ولذلك وضع دوفرين الخطوط الرئيسية لمسرحية محاكمة العربيين ، واشرف بنفسه على اخراجها وتوزيع الأدوار على كل طرف من اطرافها ، فلما كشف افندينا توفيق الخائن عن نواياه الانتقامية من عرابى واخوانه ، تصدى له دوفرين ، واظهر له يدا حديدية ملفوفة فى قفاز من المخمل ، فتراجع افندينا ورضى بالامر الواقع ..

كان دوفرين يعارض إعدام عرابى ، ليس لأنه لا يستحق الموت ، ولكن لأن الراى العام الانجليزى ، ومن خلفه احرار اوروبا وامريكا كانوا يعتبرون الثورة العربية حركة شعبية وطنية ، وان عرابى وزمرته ابطال يستحقون التمجيد ، ولم تكن حكومة جلادستون فى لندن على استعداد لتجاهل هذا التيار المستنير المؤثر .

هذه واحدة .. اما الثانية فترجع الى نوايا الاحتلال في مصر وعزيمه على البقاء فيها لاطول فترة ممكنة بدون ازعاج ، وبدون هبات شعبية تهدد وجود الاحتلال ، الامر الذي يتطلب الابقاء على حياة عرابي حتى لا يصبح مصدر إلهام لثورات متجددة ، وكان لابد من اغلاق ملف البطولات الشعبية حتى تموت بذور الثورة بموت ابطالها في جزيرة نائية غارقة في مياه المحيط الهندي .

واثمرت خطة الاستعماري العريق دوفرين ، وعاشت مصر اقصى فترات حياتها فسادا وانحلالا .. وغلب الياس على النفوس حتى فقد الناس الامل في صبح جديد ، ولكن مصر الولود المعطاء لم تلبث ان افاقت من غشيتها ونهضت تفك قيودها وتسترد روحها .. وظهر مصطفى كامل صوتا جهيرا عم صدها انحاء البلاد فايقظ النيام بعد طول رقاد ، وتفجرت ثورة ١٩١٩ لتمحو عار الهزيمة بعد ٣٧ سنة من وقوعها وتثبت ان في السويداء رجالا يابون الضيم والخنوع والاستعباد ..

أمراء .. لكن شرفاء

تاريخ الثورة صفحة مجهولة تتعلق بموقف
أمراء الأسرة العلوية من هذه الثورة ، خاصة
عندما تطورت الأحداث الى ذروة الصدام المباشر
بين عرابي باشا من جهة ، وتوفيق خديو مصر

في

وعميد الأسرة العلوية من جهة أخرى .. وكان على افراد الأسرة
ان يحددوا موقفهم من المعسكرين .. وهو الاختيار الصعب .
ومن الحقائق المعروفة ان توفيق هذا .. لم يكن يتمتع باحترام
أو تأييد اقاربه لأسباب كثيرة بعضها يرجع إلى تكوينه الخلقى
الذى كان من أبرز مميزاته الجهل والغباء والتردد والغدر ،
وبعضها الآخر يتعلق بالصراعات داخل الأسرة نفسها ، وهى
صراعات كان يقودها أمراء اقوياء يرون انفسهم أحق بالملك من
توفيق ، لولا اللعبة التى دبرها والده اسماعيل لتغيير نظام وراثة
العرش ، وبمقتضاها اصبح الحكم من نصيب اكبر أبناء الوالى
بعد ان كان من حق اكبر افراد الأسرة ، وكانت تلك غلطة اسماعيل
القاتلة ، ولعله هو نفسه كان اول ضحاياها .. فلم يكن ابنه
توفيق - وهو ولى للعهد - ببعيد عن مؤامرة عزل ابيه ، وكان
اقوى المناوئين الأمير عبدالحليم اصغر اولاد محمد على الذى
نحاه اسماعيل ونفاه إلى الاستانة .. ومن هناك كان يحيك
الدسائس لاستعادة عرشه السليب ، وكان هناك أيضا الأمير
مصطفى فاضل شقيق اسماعيل الذى أبعد عن العرش ليحل محله
توفيق الغبى الجهول .

ولكن هذه الصراعات العائلية تضاعفت امام الحدث الأكبر حين
تعرضت مصر للغزو الانجليزى ، وانهارت قنابل الاسطول على
الاسكندرية فى يوليو ١٨٨٢ وكشف توفيق عن وجهه القبيح
بانحيازته العلنى الى جيش الاحتلال . وبينما كان الجيش
المصرى يصنع المستحيل لصد الهجوم ، اجتمع قادة الأمة من
كل الفئات والطبقات والأديان واصدروا قرارا تاريخيا بالوقوف
خلف الجيش المصرى بقيادة عرابي وعدم الاعتراف بالأوامر التى
يصدرها توفيق الخائن من مكمنه فى الاسكندرية ، « حيث ان

الخديو خرج على الشرع الحنيف والقانون المنيف ، وكان في طليعة الموقعين على هذه الوثيقة التاريخية ثلاثة من امراء الاسرة العلوية .

وفي اثناء معركة كفر الدوار ظهرت حاجة الجيش المصرى الى المال والعتاد والمؤن ، بعد ان استولى السير « كالفن » المراقب المالى الانجليزى على اموال الخزانة المصرية وحملها في الاسطول الانجليزى المرابط في الاسكندرية . وهنا ظهرت معادن المصريين الاصيله ، فجادوا بما لديهم من نفس ومال وغلال وعتاد وخيول ودواب .. ولم تتخلف اميرات الاسرة العلوية عن المساهمة في هذا الواجب المقدس ، وفي طليعتهن الاميرة خوشيار ام الخديو اسماعيل التى تبرعت بجميع خيول عرباتها واقنتى بها بقية افراد العائلة ، على النحو الذى يرويه عرابى في مذكراته ..

على ان الجانب المثير في موقف اميرات الاسرة العلوية إنما يتجلى رائعا بعد فشل الثورة وانفضاض الذباب من حولها . ففي هذا الوقت العصيب الذى تنكر فيه الانتهازيون للثورة وتبراوا منها .. ظلت الاميرات على مبداهن المؤيد للثورة وقائدها ، ولم يمنعهن الخوف من بطش الخديو من الوقوف الى جانب عرابى في محنته ، وبقين معه حتى اللحظة التى غادر فيها مصر الى منفاه السحيق ، وبينما كان عرابى يستقل القطار من قصر النيل الى السويس انهالت عليه هداياهن الثمينة اعترافا بمجده وبطولته ، فبعثت اليه واحدة بمعطف ثمين ، وارسلت اخرى مصحفا كبيرا وثالثة سجادة صلاة .. الخ .

ويكشف مستر برودلى - محامى عرابى الانجليزى - عن هذه الصفحة المضبئة فيقول : أن عرابى وجد في سيدات مصر اكبر عون في ثورته فقد ساعدنه منذ اللحظات الاولى مساعدات لها قيمتها ، وظللن يقدمن هذه المساعدة حتى بعد ان فقد آخر امل في النصر ، بل إن اميرات الاسرة الخديوية - باستثناء ام الخديو وزوجته - كن يعطفن عطفًا كبيرا على عرابى باشا ، وألفن عدة جمعيات مهمتها مساعدة ومواساة الجرحى في موقعة كفر الدوار ، والاستعداد لمواجهة مصاعب القتال القادمة الى حد الاشتراك في الصفوف ذاتها ، وتلقى برودلى من أرملة الوالى سعيد باشا خطابا

تشكره فيه على دفاعه عن عرابي .
ويعلق برودلى على ذلك بقوله : ولا شك ان هذا خير رد على اولئك الذين يزعمون ان حركة عرابي لم تكن إلا حركة فردية ، فهي فى الحقيقة حركة شعبية اسهم فيها المصريون جميعا .
وكشف برودلى فى مذكراته التى ترجمها محمود كامل المحامى عن لقاء مثير تم بينه وبين إحدى الأميرات ، لم يفصح عن اسمها خوفا عليها من انتقام الخديو ، قالت الأميرة : كانت كل واحدة منا - نحن الأميرات - تعطف على عرابي منذ البداية ، لاننا نعرف انه كان يرغب اصلا فى تحقيق امانى المصريين جميعهم ، وكنا جميعا ننظر الى عرابي نظرة الرجل المدافع عن البلاد إزاء الانجليز الذين التجأ اليهم الخديو ، فعقدت مجالس كثيرة من رجالات مصر فى القاهرة ، اشترك فى بعضها الأمير ابراهيم والأمير كامل والأمير احمد ، وقررت هذه المجالس مساعدة عرابي حتى يسير بالحرب الى النهاية ، لقد راينا فيه القائد . وكانت لدينا كل الثقة به ، فكتبنا له الرسائل والبرقيات مشجعات مهنئات ، بل ان احدى الأميرات كتبت له خطابا غريبا تطلب منه الزواج بها لانه منقذ مصر ، فلما علمنا بهزيمته استولى الحزن علينا جميعا ، وقد عوقبت الأميرة التى طلبت الزواج بعرابي شر عقاب بالرغم من ان والدتها اعترفت بانها هى التى كتبت الخطاب ووقعته باسم ابنتها ، ولكن الأميرة خوشيار عرفت كيف تؤدب الشخص الذى وشى بسر الخطاب الى الخديو ، فضربتة بمقعد على راسه ، واخيرا صدرت اليها الاوامر بالذهاب الى القصر ، وكنا نبكي من الخوف والذعر ، وبعد ان وبختنا والدة الخديو قالت لنا ان الانجليز سوف يسلمون عرابي الى الخديو ليقتله شر قتلة ، وامسكت بكشف طويل فيه كثير من اسمائنا مع العقوبات الموقعة علينا . وعندما علمنا بان حياة عرابي مهددة ساد الوجوم والحزن فى دوائر القصر كان احدا من الاسرة نفسها قد مات .. !
واختتمت الأميرة حديثها الى المحامى الانجليزى قائلة « بعد كل ماحدث .. لا يمكن ان يستتب امن فى البلاد .. لا لنا .. ولا لكم .. ولا لمصر .. »

كيرلس الخامس

كان

البطريرك كيرلس الخامس من اطول آباء الكنيسة المصرية عمرا .. فقد تولى قيادة الكنيسة فى عصر الخديو اسماعيل ، ومات

فى ١٧ اغسطس ١٩٢٧ قبل اسبوع من وفاة سعد زغلول ، وعاصر خمسة من ملوك مصر : اسماعيل وتوفيق وعباس الثانى وحسين كامل واحمد فؤاد ، وعاش خلال فترة كرازته - التى بلغت ٥٣ عاما - احداثا جساما من تاريخ مصر الحديث : الثورة العربية ثم الاحتلال البريطانى والحرب العالمية الاولى وثورة ١٩١٩ ثم استقلال مصر وظهور اول حكومة شعبية فى ١٩٢٤ .

وكان كيرلس الخامس شخصية فريدة تجمع بين المهابة والوقار والحزم الى جانب الزهد والورع ، ولكن المدهش فى شخصية هذا البطريرك هو مشاركته الايجابية فى كل الاحداث الخطيرة التى تعرضت لها مصر خلال عمره المديد . منها موقفه المساند للثورة العربية حتى النهاية ، فكان فى مقدمة الذين وقعوا عريضة خلع الخديو توفيق الذى استعان بالانجليز لضرب الثورة ، فلما وقع الاحتلال تصدى البطريرك لكل المحاولات التى بذلها الانجليز لوضع الكنيسة المصرية تحت الحماية البريطانية ، ورفض العروض التى قدمها اللورد كرومر لمنح المدارس القبطية معونات مالية .. وبعد ثورة ١٩١٩ وقف الى جانب الثورة مؤيدا ومباركا تالف المسلمين والقبط تحت علم الوحدة الوطنية ، ولما حاول الانجليز إجهاض الثورة والتلويح بحماية الاقباط رد عليهم قائلا : ان المصريين شعب واحد وحمانيته موكولة لله وحده .

كتب عنه عباس محمود العقاد : كان كيرلس الخامس ناسكا متعبدا مؤمنا برسائله الدينية اشد الايمان ، وكان - مع رعايته لفرائض الدين - لا ينسى فرائض الكرامة الدنيوية فى معاملته لأصحاب السلطان ولو كانوا من الملوك او فى حكم الملوك ، وقد خطر لعميد الاحتلال - لورد كيتشنر - ان يلقاه كيرلس على غير موعد ، فذهب الى دار البطريكية وأمر الحجاب ان يبلغوا صاحب الغبطة ان فخامته موجود فى الدار .. وهول الحجاب وهو يلهث

صائحا : اللورد يا أبانا .. اللورد يا أبانا .. فسأله فى إناة : من اللورد ياهذا ؟ وعلم جلية الأمر فلم يزد على أن قال : اذهب يا ولد وقل لفخامته أن البابا لا يقابل أحدا بغير ميعاد . وطلب منه الملك فؤاد أن يبارك وزارة زيور باشا كما بارك وزارة سعد زغلول ، فلم يجبه ولم يزد على أن قال : أن البركة لا تمنح باليمين لتسلب باليسار .

وقد أهله هذه السجايا والمواقف - كما يقول طارق البشرى - فى مؤلفه « المسلمون والأقباط » - لأن يكون موضع التجلّة والاحترام بين المصريين جميعا ، وأن ينظر اليه رجال الحركة الوطنية بكثير من الامتنان لمباركته حركتهم .. ومع ذلك فلم يسلم كيرلس الخامس من تدخل مناوئيه الذين افلحوا فى استصدار قرار بتجريدته من سلطاته ونفيه الى دير البراموس بوادى النطرون فى أول سبتمبر ١٨٩٢ .. وتلك قصة أخرى ..

الكنيسة المصرية

في

أخريات القرن الماضي اشتد تيار الإصلاح الديني -
بجناحيه الاسلامي والمسيحي - وإن اختلفت
المنطلقات والنتائج ، فعلى المستوى الاسلامي
قائد الشيخ محمد عبده تيار التمرد على
الجمود في الفقه ومناهج التعليم الأزهرى فاصطدم بقوة
السلفيين الذين يريدون إبقاء الحال على ما هو عليه .

أما على المستوى المسيحي فقد تبلورت دعوة الإصلاح في
قيام هيئة علمانية تقف الى جانب الكنيسة وتشاركها الاشراف على
الأوقاف والمدارس القبطية والمطبعة والنظر في قضايا الأحوال
الشخصية للأقباط .. الخ . وتمخضت الفكرة عن ظهور (المجلس
الملئ) بالانتخاب الجزئي من جانب الأقباط ، ومن الواضح ان
دعاة الإصلاح كانوا متأثرين بموضة المجالس النيابية والمشاركة
في الحكم التي باتت صيحة العصر ، ولكنهم أخطأوا إذ تصوروا
امكانية الانتقال من سلطان الكنيسة القبطية ذات التقاليد
الراسخة في احترام السلطات الموروثة للبطارقة منذ بشارة مرقس
الرسول ، وأخطأوا مرة ثانية حين لجأوا الى الحكومة لتنصرهم
على البابا كيرلس الخامس الذي اتخذ موقفا عنيدا ضد تدخلات
المجلس الملئ . صحيح أنهم نجحوا في اصدار فرمان من الخديو
بنفى البابا الى وادى النطرون ، ولكنه عاد بعد خمسة شهور الى
كنيسته أقوى مما كان .

ولم يكن موقف البابا ضد المجلس الملئ نابعا من عناد
شخصي ، ولكنه كان يرى ان دعوة الإصلاح (العلماني) تخفي
وراءها دعوة مشبوهة الى تزويد الكنيسة المصرية
الأرثوذكسية في تيار التبشير الذي هل على مصر مع الاحتلال
البريطاني ، وبالتالي اخضاع الكنيسة القبطية للكنيسة الاسقفية
البروتستانتية . وقضية التدخل المذهبي في شئون الكنيسة
المصرية قضية قديمة ترجع الى عصور المسيحية الاولى .. ولكن
كل محاولات التدخل فشلت وبقيت الكنيسة محافظة على
استقلالها الديني والمذهبي .

● ● ●

وهناك شبهة أخرى دفعت البابا كيرلس الخامس الى معارضته

القوية لدعوة الاصلاح ، وهي ارتباطها بالاحتلال البريطاني نفسه . وإذا عرفت أن رائد حركة الاصلاح كان بطرس غالى باشا ، لأدركت على الفور سر عناد البابا ، وتمسكه باستقلال الكنيسة والحفاظ على طابعها الوطنى ، استمرارا لموقفها العنيد من حركات الاستعمار منذ العصر الرومانى ، حيث امتزجت العقيدة الدينية بالحماسة الوطنية ، وباتت الكنيسة المصرية ندا مصاولا للدولة الرومانية ، الأمر الذى جعلها هدفا لاضطهاد الإباطرة . وفى ذلك يقول عباس محمود العقاد : لم يكن اضطهاد الرومان للأقباط خلوا من شوائب السياسة وعوامل الثورة القومية ، وقد اعتصم المصريون بكنيستهم ، وتجسدت فيها عناصر الدين والدولة ، والتفت الأمة حول زعامتها لإثبات كيانها ومشيتها فى وجه القوة القاهرة .. وذلك سر مصدر القوة الكبرى التى اشتهرت بها المسيحية المصرية ..

أغا خان فى مصر

فى

أضابير التاريخ المصرى المعاصر قصة مشهورة تقول إن سلطات الاحتلال البريطانى كانت تعزم تعيين «أغاخان» سلطانا على مصر، وذلك فى غضون الفترة القصيرة التى خلا فيها عرش مصر بعد نفى الخديو عباس حلمى الثانى، وتمنع عمه الأمير حسين كامل عن الجلوس على عرش ابن أخيه، وبلغ من شيوع هذه القصة أن الدكتور محمد حسين هيكل باشا أوردها فى مذكراته فى معرض حديثه عن ظروف قبول السلطان حسين عرش مصر، وكيف أن هذا الأمير ما قبل العرش إلا انقادا له من أن يجلس عليه حاكم اجنبى، ثم يقول هيكل «ان الأكثرين صدقوا هذه القصة، واعتقد أنها صادقة لأن الانجليز دعوا بالفعل سمو الأمير آغا خان الهندى قبيل ارتقاء السلطان حسين العرش، وتناقل الناس انهم - أى الانجليز - يريدون أن يجعلوا آغا خان سلطانا على مصر، والجزء الأول من تلك الرواية - وهو عزم الانجليز تعيين حاكم اجنبى لمصر - صحيح مائة فى المائة، أما غير الصحيح فهو أن يكون آغا خان هو السلطان المرتقب.

■ ■ ■

وترجع فكرة تعيين حاكم اجنبى لمصر الى قرار بريطانيا اجراء تغييرات جذرية على وضعها الاستعمارى فى مصر بعد نشوب الحرب العالمية الاولى، وانضمام تركيا الى صف عدوتها اللدود - المانيا - فقررت بريطانيا ان يكون وجودها فى مصر ابديا، وأن تقطع خيوط الشرعية التى كانت تربط مصر بدولة الخلافة، وكان شكل العلاقة الجديدة يتراوح بين فكرتين لا ثالثة لهما، الاولى: «ضم» مصر نهائيا الى التاج البريطانى فيصبح المصريون رعايا بريطانيين، وتنمحي الجنسية المصرية، ويرتفع العلم الانجليزى ذو الصليب الأزرق على الديار المصرية، ويتولى الحكم حاكم عام بريطانى مثلما كان الحال فى الهند واستراليا ونيوزيلندا، وكان هذا المشروع بمثابة حكم بالاعدام على الشخصية المصرية، وإنهاء للوجود الشرعى والقانونى للدولة المصرية العتيدة.

أما الفكرة الثانية فكانت أخف وطأة وهى اعلان «الحماية»

على مصر ، بحيث تحل بريطانيا محل تركيا فى السيادة على مصر مع بقاء الحكم فى يد حاكم مصرى يعاونه وزراء مصريون ، وبعد بحث مستفيض اخذت الحكومة البريطانية بفكرة « الضم » وأعدت بالفعل مسودات الامر الملكى ليوقعه الملك جورج الخامس ، وطلب من كيتشنر - بحكم خبرته السابقة فى مصر - ترشيح أحد كبار الانجليز ليكون حاكما على مصر ، ولكن حكومة لندن تراجعت فجأة عن قرارها بسبب معارضة رجال الوكالة البريطانية فى مصر ، الذين حذروا حكومتهم من التهاب الشعور الدينى واحتمال نشوب ثورة وطنية فى صفوف المصريين ، الذين كان بعضهم - حتى هذه اللحظة - يثق بوعود بريطانيا فى الجلاء عن مصر .. فما بالك بضمها نهائيا إلى ممتلكات التاج !!

لقد اجتمع هؤلاء المستشارون وكتبوا مذكرة الى وزارة الخارجية البريطانية قالوا فيها : كيف ننتزع من دولة صغيرة آخر مظهر للكيان الفردى ؟ ان قرار الضم سيكون نهاية لصدق كلمتنا .. فلن يصدقنا أحد .. وستكون لهذا القرار عواقب وخيمة .. ولم يعد مقبولا فى القرن العشرين أن نقضى على قومية الأجناس أو نحاول ابتلاعها - وحتى لو كان ذلك ممكنا فى أى مكان آخر - فلن يكون ممكنا فى مصر .. إن طمى النيل الذى امتصه العبريون والفرس والافريق والرومان والآتراك امتصاصا كاملا - بحيث محا كل اثر لهم - هذا الطمى ليس بالبيئة المناسبة لأية تجربة أخرى .. !!

وتراجعت الحكومة البريطانية عن قرار الضم .. واخذت بفكرة الحماية ، وخففت حكم الاعدام إلى الاشغال الشاقة المؤبدة .. وفى يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٤ أعلنت الحماية المشنومة على مصر ، وفى اليوم التالى أعلنت دار المعتمد البريطانى فى القاهرة قرار عزل الخديو عباس وتعيين الامير حسين كامل سلطانا على مصر .. او تعيينه موظفا فى دار المعتمد البريطانى بدرجة سلطان .. وبذلك تلاشت فكرة تعيين حاكم اجنبى على مصر ..



اما مقولة تعيين اغا خان سلطانا على مصر ، فقد كشفت عنها الدكتورة لطيفة سالم (كلية الآداب - بنها) فى كتابها (مصر فى الحرب العالمية الاولى) ويتبين منها انها مقولة تفترق الى السند التاريخى

فبالرجوع إلى مذكرات آغا خان نفسه نجد ان انجلترا قد
أحضرتة إلى مصر - لا ليحكمها - ولكن ليهديء من روح
المصريين المنذمرة . يقول آغا خان . كان الوضع السياسي
مضطربا ودقيقا . كان عباس بالآستانة ومصر بدون حاكم . وكانت
النتيجة في مصر شيئا يقارب الفوضى . . . لقد ذهبت الى مصر
مع زميل لى وانصرفنا فورا الى أداء مهمتنا الدقيقة الشاقة
المتشعبة الى طبقات كثيرة من المجتمع المصرى . فكان علينا
أولا ان نكسب القصر والعلماء رؤساء جامعة الأزهر ، كما كان
هناك عامة الشعب المصرى منهم المتعلمون الذين يجلسون في
المقاهى يطالعون ويناقشون الى مالا نهاية اخبار الحرب ..
والفلاحون الذين كانوا ولا يزالون المصدر الحقيقي لقوة مصر ..
كان علينا ان نقنع هؤلاء بان يؤازروا قضية الحلفاء »

إذن فلم يحضر آغا خان الى مصر كامير ليقفز إلى عرشها ..
ولكنه جاء اليها كعميل مهمته كسب ولاء المصريين للتاج
البريطانى . فكان شأنه شأن جميع العملاء الذين اطلقتهم
بريطانيا طابورا خامسا لإخماد الثورة في نفوس الشعوب
المقهورة .

ولكن من هو هذا العميل الذى يعمل برتبة أمير ؟

قاطع طريق

«أغاخان» صيتا عالميا فاق شهرة نجوم السينما ولاعبى الكرة ، وعلماء الذرة وزعماء الدول وكبار المصلحين . سمع انه لم يكن شيئا من هؤلاء . ولكنه جمع فى شخصيته الغربية شيئا من كل هؤلاء . وعندما يذكر اسم «أغاخان» تتبادر الى الذهن صورة ذلك الرجل الذى عاش حياته فى العواصم الأوروبية مفتونا بملكات الجمال . وعارضات الأزياء ، مشغولا بكل متع الحياة . وكان اتباعه يزونه كل عشر سنوات بسبائك الذهب والبلاتين وقطع الماس النادرة إجلالا وتعظيما لمكانته عندهم . ولا غرابة فى ذلك فقد اضعفوا عليه صفة الالهية ، فلما مات اختاروا اسوان لتكون مثواه الأخير .



والحديث عن أغاخان لا يكتمل إلا بالحديث عن طائفة (الاسماعيلية) التى تولى زعامتها على مدى ستين عاما ، فجدد شبابها ، وانتقل بها من غياهب الخمول والضعف والفقر ، إلى دائرة الضوء والشهرة والمال والنفوذ .

والاسماعيلية هى إحدى فرق الشيعة التى تتفق جميعها على احقية الإمام على بن أبى طالب ، بالخلافة ممن سبقه من الخلفاء الراشدين الثلاثة . رضوان الله عليهم اجمعين . ولكن الاسماعيلية تختلف عن غيرها بأنها سلكت طريقا شططا ، وقالت فى على بن أبى طالب قولا فضيحا ، أولئك هم الغلاة الذين اختلطوا بالمذاهب والمعتقدات التى كانت سائدة منذ القدم فى الهند والعراق وفارس واليونان ، واخذوا من كل مذهب بطرف ، ويقدر ما اخذوا وتوغلوا .. يقدر ما بعدوا عن تيار الاسلام المصفى ، وصنعوا من كل ذلك نسيجاً يناقض المقرر الثابت من الأحكام والعقائد الاسلامية .

وتعرض «الاسماعيلية» كغيرهم من طوائف الشيعة ، للاضطهاد والقهر ، فهاجروا من الشرق إلى الغرب وكونوا تنظيمات بالغة السرية والتعقيد ، واثاروا القلاقل والاضطرابات داخل الدويلات الاسلامية المفككة ، ونجح الانقلاب الذى دبروه فى المغرب ، فأقاموا دولة القواطم التى لم تلبث أن انتقلت إلى

مصر عن طريق الغزو العسكرى ، فبنوا مدينة القاهرة ، وأقاموا الدولة الفاطمية التى حكمت مصر زهاء قرنين دون ان تقلح فى استمالة المصريين المسلمين الى عقيدتها الشاذة ، فالمصريون الذين عرف عنهم التوسط والاعتدال فى التدين والبعد عن الغلو والشطط ، رفضوا اعتناق مذهب الدولة الرسمى حتى اندثر بزوال الدولة الفاطمية ، فلا تجد مصريا واحدا يعتنق مذهبيا شيعيا بالرغم من حب المصريين لأهل البيت .



وفى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر ، تعرضت الحركة الاسماعيلية للانشقاق بين ولديه : المستعلى ونزار ، ففريق تمسك بإمامة المستعلى ، ولكنهم تفككوا عبر القرون ولم يبق منهم الآن سوى طائفة (البهرة) الذين ينتشرون فى الهند واليمن ، ومعظمهم من أثرياء التجار ، وهم الذين نجحوا فى إقناع الرئيس الراحل أنور السادات بالسماح لهم بتجديد مسجد الحاكم بأمر الله الملاصق لباب الفتوح ، وأنفقوا على عملية التجديد عشرات الملايين من الجنيهات كى يجعلوا منه تحفة معمارية رائعة ، وهم لم يفعلوا ذلك إلا تمجيدا لإمامهم المتاله الحاكم بأمر الله ، مدفوعين بالحنين إلى استعادة مجدهم القديم فى عاصمة المعز .

اما اتباع نزار فقد تعرضوا للاضطهاد من جانب الحكومة الفاطمية ، ففروا من مصر ، ونجح أحد زعمائهم - وهو الحسن الصباح - فى إقامة دولة الحشاشيين فى شمال ايران ، وهى الدولة التى كانت تتسلل منها جحافل الفدائيين لاغتيال زعماء وقادة العالم السنى ، حتى أثاروا الفزع والرعب فى قلوب الملوك والسلاطين ، إلى أن قضى عليهم خاقان المغول هولاكو ، فلم تقم للنزارية قائمة إلى أن ظهرت بعض بقاياهم فى ايران فى اواسط القرن التاسع عشر تحت اسم « الأغاخانية » الذين ينتمى إليهم اغا خان الثالث موضوع هذا الحديث .



والاسم الصحيح لاغا خان الثالث هو : محمد الحسينى شاه ،

اما جده اغا خان الاول واسمه (حسن شاه علي) فقد كان قاطع طريق ظهر في ايران في منتصف القرن الماضي واستطاع ان يجمع حوله عددا من الفتوات من الاسماعيلية وغير الاسماعيلية وكون منهم عصابات كانت تنقض على القرى والقوافل حتى ذاع صيته في جميع أنحاء ايران ، واصبح له نفوذ واسع على اتباعه وبنات مصدر قلق للأسرة الحاكمة .

وفي ذلك الوقت كان الانجليز يعملون على بسط نفوذهم في ايران . وكعادة الانجليز في بث الدسائس والفتن ، وصنع العملاء ، واستمالة كل طامع في الجاه والثروة ، فقد وجدوا ضالتهم في هذا « اللص الشريف » فاتصلوا به ، وزينوا له القيام بانقلاب ضد الشاه ، على ان يتولى هو حكم فارس تحت رعايتهم ، وتمت المؤامرة الانجليزية ، واعلن قاطع الطريق حسن شاه الثورة ، ولكنها فشلت ، وقبضت عليه السلطات الايرانية وزج به في السجن ، عندئذ تدخل الانجليز واقتنعوا الشاه بالعفو عن الناصر الهمام على ان يغادر ايران ، وبالفعل خرج حسن شاه على من السجن تحيط به هالات البطولة المصطنعة ، فدفع به الانجليز إلى أفغانستان ليلعبوا به كورقة في صراعهم هناك مع روسيا ، ولكن الأفغان تصدوا له فرحل إلى الهند واتخذ من مدينة بومباي قاعدة لنفوذه الجديد . واراد الانجليز ان يلعبوا به مرة ثالثة في السيطرة على درة التاج البريطاني ، فجعلوا منه إماما لطائفة الاسماعيلية النزارية ، وخلعوا عليه لقب (اغاخان) ومنحوه السلطة المطلقة على اتباعه الاسماعيلية الذين فرحوا بعلو شأنهم ، بعد ان ظلوا مغموين طوال عدة قرون . وبظهور إمامهم الذي ظل في السתר والكتمان مئات السنين ، بدأ اغا خان ينظم صفوف الاسماعيلية تحت العلم البريطاني حتى مات سنة ١٨٨١ فخلفه ابنه (اغا علي شاه) وكان على درجة عالية من الثقافة ويجيد عدة لغات أفادته في نشر التعليم بين طائفته ، ووضع الأساس المادي والثقافي الذي بنى عليه ابنه اغا خان الثالث مجده المرموق .

عابد البقرة

أغاخان في شخصيته متناقضات عديدة، كان زعيما دينيا لأتباع يضعونه في مرتبة الألوهية انسحاقا وراء الفكر الاسماعيلي الباطني الذي يتبنى هذه الخزعبلات منذ عصر الحاكم بامر الله، والى جانب هذه الصورة المقدسة لأغاخان في نظر أتباعه . كان نجما من نجوم المجتمع الاوربي يخلب قلوب العذارى ويتسع قلبه الكبير جدا للغاتنت والغانيات وملكات الجمال ، وكان في نفس الوقت رائدا من رواد الاصلاح الثقافي والاجتماعي .. يقيم الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث ، والاندية ، حتى انتقل بطائفته من حضيض التخلف والرجعية الى عالم القرن العشرين ، وكان يحثهم على أن يغترفوا من منهل الحضارة الغربية كما شرب هو منه ، ويتسلحوا بالعلم والمدنية ولا يتخلفوا عن المجتمعات الأخرى ، ولم تمنعه زعامته الطائفية من ان يكون مسلما عالميا يخلع رداء الطائفية عند الملمات ويقف الى جانب قضايا الاسلام والمسلمين في كل مكان من العالم ، كان ينظر الى المسلمين عامة في الهند نظرة خالية من التعصب الطائفي وينادي بأن يأخذوا مكانهم الطبيعي في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فاشترك مع غيره من زعماء المسلمين عام ١٩٠٧ في تأسيس « الرابطة الاسلامية » وانتخب رئيسا لها عام ١٩١٤ وكانت هذه الرابطة تجمع كلمة المسلمين جميعا على اختلاف مذاهبهم وتعمل على النهوض بمستواهم ، وهذه الرابطة تطورت الى حزب سياسي كان له خطره في تاريخ الهند الحديث ، وترتب على اعماله نشوء دولة باكستان .

● ● ●

وربما لا يعلم الكثيرون ان (محمد علي جناح) مؤسس دولة باكستان كان من أتباع الطائفة الاسماعيلية ، ومع ذلك فقد كان أغاخان من المعارضين لقيام دولة اسلامية مستقلة في الهند ، ويقف الى جانب الرأي الذي يأمل في تحقيق الوحدة الوطنية بين المسلمين والهندوس ، ويعارض تقسيم الهند الى كيانات طائفية . والمؤرخون الذين كتبوا عن أغاخان يرصدون له عديدا من

المواقف التي تخلى فيها عن صبغته الطائفية ، ولعل أبرز هذه المواقف دفاعه المجيد عن بقاء الخلافة الإسلامية في تركيا بالرغم من العداء التقليدي بين الأتراك « السنة » والاسماعيلية « الشيعة » وكان أغاخان يعزز العثمانيين بالاموال الطائلة ليظلوا رمزا لقوة الاسلام والمسلمين .

وتزوج أغاخان أربع مرات دون ان يجمع بين زوجتين . وكانت اولى زوجاته اميرة ايرانية هي البيجوم اى السيدة (شاه زادى) ولكنها توفيت بعد سنوات قليلة ، فتزوج فتاة ايطالية هي (تريزا ماجليانو) وأنجب منها ابنه الأكبر (على خان) الذى تزوج نجمة هوليوود العالمية ريتا هيوارث وأنجب منها فتاة اسمها ياسمين ثم تزوج على فتاة انجليزية . أنجبت له كريم الذى تولى إمامة الاسماعيلية بعد وفاة جده .

وفى سنة ١٩٢٧ اعجب اغاخان بفتاة فرنسية كانت تبيع السجائر والشيكلاته فى كشك بجوار مقهى الدوم بحى مونبارناس بباريس هي (اندريه كارون) وأنجب منها ابنه الثانى صدر الدين ، وفى عام ١٩٤٤ تزوج عارضة أزياء انتخبت ملكة جمال العالم هي (لافروس) التى اعتنقت دينه وعقيدته الاسماعيلية وبقيت معه الى أن مات عام ١٩٥٧ وهى التى تعرف باسم البيجوم « ام حبيبة » ولا تزال تحرص على الحضور الى اسوان لقضاء فصل الشتاء فى قصرها الذى يقع فى سفح التل الذى يعلوه قبر زوجها ، ولا تزال رحلتها اليومية معروفة حيث تصعد كل صباح لتضع وردة حمراء على ضريح أغاخان .



ولا ينبغي انهاء الحديث عن اغاخان دون توضيح مسألة « الالهية » التى خلعها عليه اتباعه ، وكان الظن ان هذه المسألة من قبيل المبالغة او التشنيع الذى يتعرض له الاسماعيلية من جانب خصومهم ، ولكن الدكتور محمد كامل حسين - وهو من ادق الباحثين فى تاريخ الاسماعيلية وعقائدهم يروى لنا قصة غريبة تؤكد ان اغاخان كان سعيدا بمعتقدات اتباعه فيه ، وله فيها تبرير غريب .

يقول الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه (طائفة الاسماعيلية : تاريخها ، نظمها ، عقائدها) : ومن ذكرياتى معه

رحمة الله عليه ، انى كنت اناقشه فى بعض المسائل الفلسفية الخاصة بتطور عقيدة الاسماعيلية ، وطالت المناقشة وتفرعت من موضوع الى موضوع مما جعلنى اعجب اشد الاعجاب بعقليته وثقافته وسعة اطلاعه ، واحاطته بكل ما يتعلق بالاسماعيلية احاطة تامة ، فاستأذنته فى توجيه سؤال اليه ربما اغضبه ، فلما وعدنى بعدم الغضب قلت له : لقد أدهشتنى بثقافتك وعقليتك ، فكيف نسمح لاتباعك بان يدعوك ألها ؟ فضحك اغاخان طويلا جدا ، وعلت قهقهاته ، ودمعت عيناه لكثرة الضحك ثم قال :

- هل تريد الاجابة عن هذا السؤال : ان القوم فى الهند يعبدون البقرة .. اليس خيرا من البقرة !!

ويعقب الدكتور محمد كامل حسين على هذا التبرير العجيب قائلا : فلم أحر جوابا بعد ذلك ، وخرجت من عنده وأنا أفكر فى هذا الرجل الذى اعتقد فيه اتباعه الالوهية ، او على الأقل أن نور الله حل به ، وكان هو يعلم أنه ليس بآله ولم يمسه نور الله ، ومع ذلك ترك اتباعه فى اعتقادهم دون أن يرشدهم الى الحقيقة ، وترك الناس يتقولون فيها الاقاويل ، وهو يسخر من هؤلاء وهؤلاء ، ويستمر فى حياته التى اختارها لنفسه دون أن يجعل لاحاديث الناس عنه اثرا ، او يقيم لهم وزنا .

أولاد تيمور

عجيب

امر العائلة التيمورية..! لم يكن يجرى في عروق ابنائها قطرة دماء مصرية، ومع ذلك احبوا مصر حبا صادقا، وارتبطوا بشعبها ارتباطا وثيقا، خالطوا أولاد الحوارى فى حى الأزهر، وعاشوا الفلاحين فى عين شمس، وتشربوا الروح المصرية الخالصة ثم عبروا عنها بأرقى وسائل التعبير: الفن والأدب، ولا عجب ان تصدر أول صيحة لإبداع ادب مصرى صميم فى مطلع القرن من الاخوين: محمد ومحمود تيمور.

يم نفسر هذه الظاهرة. توهج العاطفة الوطنية عند بعض الاتراك المتمصرين. شريف باشا والبارودى وشوقى وقاسم امين وأولاد تيمور؟ ادبنا الكبير يحى حقى يفسرها بأن العرق الحديث أشد العروق اهتزازا بحب الوطن الجديد وانتباها لفضله وجماله.. فليست العبرة فى أن يولد الكاتب فى أحضان الطبقات الشعبية، بل فى قدرته على الاحساس بها وفهمها بفضل حب وتجارب روحى.

وهذا على أى حال تفسير مقبول، وتشهد على صحته حوادث التاريخ، وينطبق على الأستاذ يحيى حقى نفسه صاحب قنديل أم هاشم، والبوسطجى وخليها على الله، وغيرها من الأعمال الأدبية ذات النكهة الشعبية.

• • •

اما رأس الأسرة التيمورية - محمد تيمور كاشف - فقد هبط مصر ضمن الحملة العثمانية التى جاءت لتهدئة الاحوال بعد خروج الحملة الفرنسية. وكان بين افرادها محمد على، وكان تيمور احد الاعمدة التى ساندت محمد على فى تأسيس ملكه وتولى بعض الوظائف الإدارية الكبرى وبنى لنفسه قصرا منيفا فى درب سعادة، وانجب ولدا وحيدا اسمه اسماعيل لم يسلك نهج ابيه فى حقل الإدارة العليا، فقد شغله العلم عن وهج السلطة. وجعل من قصره مجمعا للعلماء والادباء والفقهاء، وفى هذا المناخ الادبى تفتحت مدارك ابنته عائشة فاصبحت شاعرة مرموقة، وابنه احمد باشا تيمور الذى لم يعرف تاريخ مصر

الحديث نظيرا له في حب العلم وعشق البحث واقتناء المخطوطات النادرة وتحقيقها حتى بلغ مجموع نفائسه ٧١٣٤ مجلدا بين مطبوع ومخطوط اهداها كلها الى دار الكتب . كما خلف للادب والفن ولديه الادبيين الكبيرين محمد ومحمود .

في هذا القصر الذى يشبه دار الحكمة في عصر المأمون ، تنفس الصبيان عبيرا ثقافيا معتقا . وجالسا زمرة عجيبة من البشر الذين لا يمتون بصلة الى الطبقة الارستقراطية التى ينتمى اليها صاحب البيت . وإنما هم خليط من رجال العلم والفقه والادب . ومعظمهم من الفقراء وكلهم من طبقة الشعب . فلم تكن مجالس احمد تيمور باشا - فيما يسجل الناقد الكبير عباس خضر - تضم ابناء الذوات . بل كان روادها ممن تجمعهم بصاحب البيت الصلات الفكرية المشتركة ، ومن هذا العالم السحري الاصيل انطلق الصبي محمد تيمور ليلوى على شيء . ولا على احد من طبقته الارستقراطية فينزل من قصره يبحث عن الادباء والفنانين ويذهب محمد تيمور الى باريس لينهل من علمها وثقافتها كعادة ابناء الذوات فى ذلك العصر . ولكن مصر لا تفارق خياله ، فلا يكف عن المقارنة بين حال مصر وحال باريس . ثم يعود من هناك وقد تشبعت نفسه بمشاعر التمرد على القديم والرغبة فى التجديد . ويقود نهضة ادبية قوامها ابراز الشخصية المصرية المستقلة عن الشرق والغرب . وايجاد فن شعبي صادق الاحساس وهو يعبر عن افكاره عن طريق المقالة الصحفية والمسرحية الاجتماعية بل يقف على خشبة الأوبرا يمثل فيراء السلطان حسين فيعجب بشجاعته وتمرده ويأمر بتعيينه أمينا فى القصر ، وهى وظيفة يتمناها ابناء الذوات . ولكن فتانا يضيق بها ويراه قفصا من ذهب . فما إن يموت السلطان حتى يستقبل تيمور ويتحرر من رق الوظيفة ويعود الى عمله الرحب المنطلق . ويتسلطن فؤاد وقد أتى به الانجليز من الكباريه الى العرش فيستقبله تيمور وسيد درويش بمسرحية . العشرة الطيبة . التى يسخر فيها تيمور من فساد الحكم . ويوجه الى السلطان رسالة على لسان الاغوات يقول فيها : عشان مانعلى ونعلى ونعلى .. لازم نطاطى نطاطى .. نطاطى . ويفهم فؤاد الاشارة فيوعز بوقف المسرحية .. ولا يمضى تيمور فى مشوار التمرد .. فقد اختطفه الموت وهو فى شرخ الشباب .. وودع الحياة قبل ان يبلغ الثلاثين من عمره

العفريت ..!

فى

اليوم الأول من أغسطس ١٨٩٦ خلت بيوت القاهرة من سكانها . وهرع الناس - رجالا ونساء وأطفالا - إلى الشوارع . واحتشدوا على طول الطريق الممتد من بولاق إلى القلعة عبر ميدان العتبة الخضراء . ليشهدوا مخلوقا غريبا يزحف على قضبان لمساء . والأولاد من خلفه يركضون ويتصايحون العفريت .. العفريت .. ولم يكن ذلك العفريت سوى أول عربة ترام تشق شوارع القاهرة في أول رحلة تجريبية لهذا الكائن الحضارى الذى سيغير وجه المجتمع القاهرى تغييرا شاملا . وفي العربة كان يجلس ناظر (وزير) الأشغال حسين فخرى باشا ومعه كبار موظفيه . وقد تملكهم الزهو والخيلاء . وكانت المركبة - كما وصفها مندوب « المقطم » - تسرع حتى تسابق الرياح متى خلت لها الطريق . وتارة تسير رويدا رويدا . أو تقف بغتة عند اعتراض الأولاد والسابلة طريقها . وقد وقف سائقها ووضع يده على ميزان تسييرها وإيقافها . ويصل بينها وبين السلك فوقها عمود من الحديد رتّام الدورة الكهربائية .

وبعد أيام من تلك المرحلة التجريبية المثيرة ، احتفلت الشركة البلجيكية رسميا بتسيير الترام على الخطوط الثمانية التى كانت تتجمع فى ميدان « العتبة » وتمتد إلى أطراف القاهرة . ووصفت الصحف هذا الحادث الفريد بقولها شهد أهل العاصمة أمس مشهدا قلما شهد مثله أهالى المشرق . ولم يخطر على قلب بشر منذ مائة عام . وهو أن تجرى مركبات كبيرة تقل المئات من الناس ، لا بقوة الخيل ولا بقوة البخار ، بل بقوة الطبيعة التى تسبب البروق . هذا هو الترامواى الكهربائى

وفى الكتاب البديع الذى وضعه محمد سيد كيلانى عن « ترام القاهرة » معلومات طريفة عن عملية تنظيم ركوب الترام . فقد كان يحظر ركوبه على كل محدث غوغاء أو سكران ، أو مصاب بعاهة تشمئز منها النفس ، ولا يجوز تسلق العواميد المعدة للحركة الكهربائية . أو تعليق شئ عليها أو إقامة اشارات كاذبة . ونستخلص من دراسة محمد سيد كيلانى أن تسيير الترام كان حدا فاصلا فى تاريخ المجتمع القاهرى ، انتقل فيه من طور

البداوة والتأخر ، الذى يتمثل فى استخدام الحمير والبغال ، إلى
طور الحضارة والمدنية الذى يتمثل فى استخدام القوة الكهربائية ،
وكان سواد الشعب فى القاهرة يعاني مشقات هائلة فى الانتقال من
جاء استبداد اصحاب الحمير والعربات وتحكمهم فى الناس وما
يوجهونه إلى الجمهور من الفاظ نابية فلما انشئ الترام ، حدثت
ثورة هائلة فى جميع نواحي الحياة القاهرية ، فتلاشت العزلة بين
أحياء المدينة ، وسهلت عملية الانتقال وطاب السهر ، وأصبح فى
متناول الشباب قضاء الليل فى الملاهى والمراقص ، وبدأت
الروابط العائلية فى التفكك ، وضعفت رقابة الآباء على الأبناء ،
كما ساعد وجود الترام على اتساع حركة العمران ، ونشطت
الحركة التجارية ونشأت المحلات الكبرى فى منطقة العتبة . ولما
سهل على الناس الانتقال عظم امتزاجهم واشتد اختلاطهم ، وبدأ
الرأى العام يتبلور ويصبح خطرا على الجهات الحاكمة ، وكثرت
الأندية الثقافية والرياضية والصحف والمجلات وكان من
الطبيعى ان ينعكس هذا كله على الادب .. فظهر « الأدب
الترامى » الذى يسجل معالم الحياة الجديدة بما فيها من خير
وشر ، وخلاعة ومجون ، وتقدم وتأخر .. وخصوصا بعد أن أصبح
الترام سببا فى وقوع حوادث لم يالفها جمهور القاهرة من قبل وفى
ذلك يقول شاعر خفيف الظل اسمه إلياس حنيكأتى
إن الترامواى على القاهرة مصيبة يا قومنا قاهرة
فكم قلوب هالها رهبة وكم نفوس غالها طاهرة
يجرى وعزرائيل من خلفه يمد للقبض يدا غادرة
فيأرجال الضبط ما ضبطكم وأين الأعين الساهرة
وبمرور السنين ، يضحى الترام وسيلة متخلفة بالقياس إلى
وسائل النقل الأكثر حداثة وسرعة ، وانطبقت عليه سنة الحياة
التي لا ترحم العاجزين عن مواكبة ايقاع العصر ، فكاد يختفى من
شوارع العاصمة ، ترى .. ماذا سيقول سكان القاهرة بعد عامين
عندما يشاهدون مركبات المترو وهى تشق بطن الأرض ؟؟ وهل
سيصيحون كما صاح أسلافهم : العفريت .. العفريت ؟؟ أغلب
الظن انهم لن يفعلوا .. لأن كلمة عفريت نفسها قد اختفت من
قاموس الألفاظ الدارجة عند أطفالنا .

غرام الشيوخ

من الواجب ان نتحدث عن الشيخ على يوسف ، وقد انتقل الوفد - حزبا وجريدة - الى المقر الجديد الذى يقع فى شارع يحمل اسم هذا العلم الذى خفق فى سماء مصر فى مطلع القرن . فكان ملء الاسماع والابصار ، والبطل المغوار فى حقل السياسة والادب والصحافة ، والنجم الساطع فى دنيا العشق والغرام . واكتسب من كل اولئك مجدا رفعه الى مصاف العلية المرموقين . وحقق ما كان يصبو اليه من جاه وثراء ونفوذ .. ثم اذا به - فجأة - يبدد كل هذا المجد ، ويعتزل الاضواء والشهرة والصخب ، ويسعى الى وظيفة شيخ طريقة صوفية !! فكان مثله كمثل الراح الذى خسر كل شيء وهو لم يزل فى حلبة الصراع ، فيلقى سلاحه وهو فى يوج انتصاره ويدير ظهره الى خصومه قبل ان ينقشع غبار المعارك ، ثم يتركهم وهم فى ذهول من امره لياوى الى ركن ظليل فى تكية صوفية متعلقا بأهداب الانتساب الى بيت من بيوت السادة الاشراف .. عساه يجد فى الشرف المصطنع ما يرضى كبريائه الجريح ، ويعالج العقدة التى دمرت سعادته ونغصت حياته - عقدة النسب الوضيع - وحرمته لذة الاستمتاع بثمار النصر التى اجتناها بيظافره فى مجتمع كان يقيم اعتبارا كبيرا لعوامل الحسب والنسب .



جاء على يوسف من اعماق الصعيد شابا يافعا الى رحاب الأزهر مثل ملايين من أبناء الفقراء سبقوه على الدرب بحثا عن اثاره من علم تؤهلهم لشغل وظيفة متواضعة العائد . ولكن شيخنا الشاب كان يحمل بين جنبيه روحا وثابة ، وهمة عالية ، وارادة حديدية وعنادا فطريا ضد عناصر المقاومة التى تحول بينه وبين ما يريد ، كانت نفسه تجيش برغبة عارمة فى ان يكون شيئا مذكورا ، فكان عليه ان يقتحم العالم الفوقى الذى يمسك فى يده زمام السلطة والنفوذ والجاه والثراء ، ولم يكن شيخنا يملك المفاتيح التى تمكنه من دخول ذاك العالم الصاخب ولكنه كان يملك من القدرات الذاتية والملكات العقلية والخلقية ما يعوضه عن عراقة النسب وفخامة الحسب وكان عليه ان يوظف هذه القدرات ليصل الى

مبتغاه .. فكان ذنباً بين الذئاب يناطح اضرابه المتكالبين على مائدة السلطان وكل يحاول الزلغى الى صاحب العرش ، وكان عليه ان يكون ثعلباً شديداً الدهاء ، يراوغ ويناور حتى يفوز بقلب الامير .. وكان ما اراد ، فإذا به بين عشية وضحاها جليس الخديو ونديمه ومكمن سره ولسانه الناطق ، واصبحت صحيفته (المؤيد) كبرى صحف الشرق في أخريات القرن الماضى هى صوت السلطة الشرعية فى مقابل (المقطم) صوت السلطة الفعلية والناطقة باسم الاحتلال ، وفى مواجهة (اللواء) صوت الشعب النابض بالحرارة الوطنية .

وتنشأ بين الصحف الثلاث أو قل بين السلطات الثلاث معارك طاحنة يخوضها الشيخ شاعراً قلمه الفتاك فى وجه خصوم الخديو غير عابىء بسخط الجماهير عليه وعلى سيده ، وكان يريد : والله ما يعنينى أن يكون الناس جميعاً فى صف واحد ، وأنا والحق الذى اعتقده بإزائهم فى صف واحد .



وتشهد الحياة السياسية المصرية فى مطلع القرن طفرة انتقالية تتمخض عن ظهور الأحزاب السياسية لأول مرة فى تاريخ البلاد ، ولم يكن من الغريب أن تولد هذه الأحزاب فى حجر الصحافة التى كان لها دور الريادة فى ايقاظ الحس الوطنى وتحريك الجماهير بعد فترة الركود التى رانت على مصر منذ ابتليت بالاحتلال البريطانى ففى احضان (اللواء) ولد الحزب الوطنى بين يدي زعيمه الشاب مصطفى كامل وهو يومئذ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، وفى احضان (الجريدة) ولد حزب الأمة ليعبر عن مصالح اثرياء مصر فى مواجهة فلول التركية البائدة والعائدة فى شخص عباس الثانى ، وينهض الفيلسوف احمد لطفى السيد ليتكلم باسم (اصحاب المصالح الحقيقية) وينشر بذور الفكر الليبرالى على صفحات الجريدة ، ومن حوله الجناح المثقف فى معسكر الارستقراطية المصرية الناشئة . ولم يكن للخديو الشاب ان يقف متفرجاً فى الساحة التى تفور بالأفكار والمصالح المتضاربة ، كان عليه أن ينشئ حزباً يتحدث باسمه ويدافع عن مبادئه التى تقف عند الحد الفاصل بين وطنية مصطفى كامل الجامعة ، وعقلانية احمد لطفى السيد المتهادنة مع

الاحتلال ، وكان على الشيخ على يوسف ان يلبي رغبة الأمير
ويصنع له حزبا .. اسماه حزب (الاصلاح على المبادئ
الدستورية) ، وكأى حزب يولد فى حجر السلطة فيكتب شهادة
وفاته مع شهادة ميلاده ، كان مصير هذا الحزب الاميرى ، فكان
معدوم التأثير والفعالية فى الشارع المصرى ، بينما ظل صوت
(المؤيد) اقوى تأثيرا واكثر فعالية حتى خلع البعض على
صاحبه لقب (اعظم صحفى فى العالم) ووصفوا صحيفته بأنها
(تايمز الشرق) ومع ذلك لم تشيع هذه الامجاد طموحات على
يوسف .. فراح يبحث عن المجد فى دنيا الحب .. فلم يجد إلا
الجحود والعذاب والحرمان .

عاشقان جرينان

مكتب الشيخ على باشا يوسف فى صحيفة « المؤيد »
(شبه بمنندى فكرى يتردد عليه وجوه القوم
من رجال الدين والسياسة والأدب ، وكان
من أبرز هؤلاء : السيد عبدالخالق السادات عميد

كان

بيت السادة الوفائية . وهو من أعرق البيوت المصرية وينتهى
نسبهم الى الحسن السبط ابن الامام على كرم الله وجهه ، واعتاد
السادات أن يصحب معه الى المؤيد صغرى كريماته (صفية)
وكانت صبية مليحة على شئ من البدانة التى كانت من سمات
الجمال فى ذلك العصر . وراقت الصبية فى عين الشيخ على
وصادفت من نفسه هوى ، فخطبها من أبيها الذى رحب بمصاهرة
رجل ذائع الصيت ، كبير الجاه لقرب موقعه من الخديو عباس ،
وتجاهل الأب فرق السن بين الشيخ والفتاة . كما تجاهل انعدام
الكفاءة الاجتماعية بين رجل مجهول النسب ، وأسرة تحظى
بشرف الانتساب الى البيت النبوى ، وقبض الأب مهر ابنته وسافر
الجميع لقضاء الصيف فى ربوع تركيا كعادة الوجهاء فى ذلك
العصر . على أن يتم الزواج بعد العودة الى مصر .. ولكن ..
بعد العودة شعر الشيخ على يوسف بأن السادات يماطل فى
إتمام العقد . بل صرح بانه لن يصاهر رجلا لا يضارعه حسبا
ونسبا . ولما كان الشيخ العاشق وانقا من تعلق الصبية به ،
واستعدادها لإتمام الزواج رغم معارضة أبيها - فقد أقدم العاشقان
على خطوة جريئة فى عرف العصر ، وهى إبرام عقد القران فى
بيت آخر خارج بيت الوالى الشرعى ، ووقع اختيارهما على سراى
البكرى بالخرنفش محلا مختارا لإتمام العقد .

● ● ●

وكان السيد توفيق البكرى - نقيب الاشراف وشيخ مشايخ
الطرق الصوفية - على رأس البيت الآخر من بيوت العلوية
الاشراف هو بيت السادة البكرين الذين ينتهى نسبهم الى ابي
بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان البيتان الكريمان - البكرى
والوفائى - يتناوبان زعامة نقابة الاشراف ، وهو منصب كان له

جليل الخطر وعظيم الأثر في نفوس المصريين لما عرف عنهم من تعظيم وإجلال لكل من ينتمي لأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الأبرار .

وإراد السيد توفيق البكرى أن يجمع البيتين تحت لواء واحد عن طريق النسب حتى تظل له نقابة الإشراف ، خاصة أن السيد عبد الخالق السادات لم ينجب غير ثلاث بنات ، فتزوج توفيق من كبراهن (حفيظة) وزوج الوسطى (اسماء) من ابن أخيه عبد الحميد البكرى حتى تتوافر له وراثة الزعامة إذا حرم العم من إنجاب الولد ، وبقيت النصفير (صفية) لتكون من نصيب على يوسف ، ولتكون بطلنة هذه القصة التي هزت المجتمع المصرى من أعماقه ، وانقسم بسببها الراى العام بين مناصر للتقاليد والآداب الاجتماعية ، ومؤيد للتحرر والخروج على الأعراف الموروثة ، ولم يكن غريبا أن تكون هذه القصة مجالا للصراع بين القوى السياسية الكبرى : المعتمد البريطانى كرومر والخبديو عباس والزعيم الشاب مصطفى كامل وكل الأحزاب السياسية فضلا عن المؤسسات الدينية التي هبت للدفاع عن حرمة الشرع .



لقد فوجئ السيد توفيق البكرى بصديقه الحميم على يوسف باشا وشقيقة زوجته - صفية - يدقان عليه باب قصره المنيف بالخرنفش - الذى كان يوما مقرا وسكنا لوالى مصر عباس الاول ومن بعده سعيد باشا - ويضعانه امام الامر الواقع ويطلبان منه إتمام عقد الزواج على سنة الله ورسوله ، وأسقط فى يد الرجل . فقد كان يعلم جيدا مخاطر هذا التصرف الذى يتنافى مع تقاليد السادة الإشراف ، فضلا عن منافاته للآداب العامة التى لا تقبل بحال أن تعقد فتاة زواجها دون رغبة أبيها ، ولكنه وجد نفسه امام عاشقين مصممين على تنفيذ عزمهما ، ويهددان بتنفيذ غرضهما فى مكان آخر إذا أصر على الرفض ، فما كان منه إلا الخضوع والاستسلام ، وبعث يستدعى الشيخ حسن السقا إمام وخطيب الجامع الأزهر فتولى الوكالة عن الفتاة ، وشهد على العقد زواجا اختيها توفيق وعبد الحميد البكرى وشرب الجميع الشرابات .



وبعد ٤٨ ساعة ، وفى يوم السبت ١٦ يولية ١٩٠٤ خرجت

صحيفة (المقطم) تزف الى قرائها نبأ « عقد قران السيد على يوسف على إحدى كريمات السيد عبد الخالق السادات في حفلة ضمت الكثير من العلماء ، ثم قصدت العروس بعد ذلك الى المنزل الذى أعده لها بناحية الظاهر » وتعمدت المقطم إغفال ذكر المكان الذى عقد فيه القران إمعانا فى تضليل الأب الذى جرح فى كرامته أمام أتباعه ومريديه ، وإذلاله أمام الراى العام الذى يضع بيت السادات حيث هو من التكريم .. وبعث السادات بخطاب الى الصحف ينفى فيه علمه بالزواج ، ويؤكد أن الزواج - إن وقع - فعلى غير رضاه ، وأنه أبلغ الأمر الى جهات الاختصاص ، وكان من الطبيعى أن تمتنع (المؤيد) عن نشر الرسالة ، ولكن المريب كان امتناع (المقطم) عن نشرها بعد أن نشرت الخبر وخرجت (اللواء) وفى صدر صفحتها الأولى رسالة الأب الجريح ، فكانت أشبه بقتيلة انفجرت فتطايرت شظاياها فى رقعة واسعة من الأرض .. هى كل أرض مصر .

أبوخطوة يقتل المائدة

عشرة أيام فقط من اعلان زواج الشيخ علي يوسف وصفية السادات ، بدأت محكمة مصر الشرعية في نظر الدعوى التي رفعها السيد عبدالخالق السادات طالبا فسخ العقد لانعدام شرط الكفاءة بين الزوجين ، واستند الأب إلى أن الشيخ علي يوسف - وإن كان صحفيا مرموقا وأديبا مشهورا وزعيما لحزب سياسي واحد المقربين من أمير البلاد - فإنه يفتقر إلى النسب الرفيع الذي يؤهله للزواج من إحدى سليلات البيت النبوي .. فكل هذه المكتسبات مستحدثة ولا تغير من الواقع شيئا ، وهو أن الشيخ علي من « العامة » الذين لا يحق لهم التطلع الى مصاهرة الأشراف .

وفي يوم نظر القضية غصت ساحة المحكمة الشرعية بباب الخلق باشتات من البشر من شتى الطبقات والثقافات .. جاءوا من كل فج عميق ليشهدوا وقائع هذه القضية التي تمس بعض مقدسات المصريين في احترام العلاقات الأسرية ، ومراعاة الآداب الاجتماعية والتقاليد الموروثة ، وكانت الكثرة الغالبة من الرأي العام تقف في صف الأب المنكوب ضد الشيخ الذي اغوى فتاة شريفة وحرّضها على التمرد والخروج على الآداب فتزوجت بغير رضا والدها ، بينما كانت القلة المثقفة المتحررة من التقاليد تناصر الشيخ علي يوسف الذي صنع مجدا لم يستمده من عراقه الحسب والنسب ، ولكن من شرف العمل والجهد والكفاح .. ولا ترى هذه الفئة عيبا في خروج فتاة على ولاية أبيها لتتزوج الرجل الذي أحبته .



تلك كانت عناصر الصراع بين جبهة التقاليد والأخلاق ، وجبهة التحرر والانفلات ، ولكن هذا التمايز الأخلاقي الظاهري كان يخفي وراءه صراعا أشد وأعتى بين القوى السياسية الجبارة التي وقفت وراء الكواليس كل منها تؤيد طرفا من أطراف القضية ، وتسعى لتصفية حسابات سياسية لا علاقة لها بجوهر القضية . فمصطفى كامل وجدها فرصة ذهبية للانتقام من غريمه اللدود علي يوسف ، الذي كان دائم التهجم على الزعيم الشاب واتهامه

بالرعونة والتطرف ، وانهالت معاول مصطفى كامل فى (اللواء) على رأس صاحب (المؤيد) وزعيم حزب الإصلاح ، ولكنه فى الحقيقة كان يقصد رأس الأفعى - عباس الثانى - الذى نفى يده من معسكر الحركة الوطنية وانحاز نهائيا إلى صف الاحتلال بعد توقيع الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا فى أبريل ١٩٠٤ أى قبل أربعة شهور فقط من انفجار قضية الزوجية .

وكان عباس يعى جيدا أبعاد الهجوم الشرى الذى شنه مصطفى كامل على نديمه على يوسف ، ويعرف أنه المقصود بالهجوم حتى لو تذرع صاحب اللواء بحجة الدفاع عن آداب الشرع وحرمة التقاليد ، ووجد الخديو نفسه مضطرا إلى الوقوف الى جانب رجله فى محنته ، ومحاولة إنقاذه من الورطة الغرامية التى تطورت إلى محنة سياسية ، وضعت القصر فى دائرة الاتهام ، فعباس نفسه كان متهما بأنه هو الذى أوحى الى الشيخ على بفكرة الزواج من بنت السادات وانتحل له نسبا شريفا مزيفا حتى تتاح له فرصة رئاسة مشيخة السادات الوفائية ، فيضمن ولاء هذه الفرقة الدينية الثرية بوضعها تحت رئاسة أحد رجاله الاصفياء ، وكان عباس يسعى دائما للاستيلاء على مناصب الرئاسة الدينية فى مصر ، ولا سيما الرئاسة التى لها إشراف على الطرق الصوفية وأوقافها ذات الإيراد المالى الوفير ، وكانت هذه الرغبة محلا لصراع تاريخى معروف بين الأمير ومفتى الديار الإمام العظيم محمد عبده الذى رفض بإباء وضع الأوقاف الخيرية تحت سيطرة الخديو .



ولم يتخلف جبار الاحتلال - اللورد كرومر - عن المشاركة فى إنكاء حمى الصراع بين أطراف قضية الزوجية ، فاختار الوقوف إلى جانب على يوسف تسديدا لحسابات قديمة اتخذ فيها الشيخ موقف المؤيد للانجليز ، وليقطع بينه وبين الحركة الوطنية التى اتخذت موقف الشماتة من الشيخ العاشق ، ولتكون مناصرة الانجليز لرجل القصر القوى أولى ثمار المصالحة بين كرومر وعباس ، وإغراء الأمير بمزيد من التورط فى مهادنة الاحتلال . تلك كانت طبيعة القوى العظمى التى تخفت وراء القوى الصغرى استعدادا للجولة الحاسمة فى ساحة القضاء . وكانت

كل منها تظن انها سوف تكسب الجولة ، ولم يخطر ببال هذه القوى الجبارة ان كل ما حاكته من مؤامرات وحيل سوف ينهار امام جبروت شيخ ازهرى ضئيل الحجم قوى الشكيمة صلب الراى .. لا يكاد يظهر من خلف منصة القضاء التى يجلس عليها .. إسمه الشيخ أحمد أبو خطوة فلم يكذ ينفرج الستار عن الفصل الاول من القضية حتى اهتزت مصر من أقصاها إلى أقصاها بسبب الحكم الذى أصدره .. وقلب به المائدة على رؤوس اصحابها .

إضراب القضاة

كان

نظر قضية الزوجية امتحانا رائعا لاستقلال القضاء الشرعى ، فالسلطة - ممثلة فى الخديو عباس واللورد كرومر - كانت تساند الشيخ على يوسف وتسعى جهدها لكى يصدر الحكم فى مصلحته ، ويرد له اعتباره الذى أطاح به تهجم صحف الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل . وكان الراى العام الذى يقدر التقاليد والآداب الاجتماعية يساند السيد عبد الخالق السادات والد الفتاة التى هجرت بيت أبيها لتعيش تحت سقف واحد مع زوجها على سنة الله ورسوله ، إلا أن هذا الزوج كان فى راى الناس مغتصبا اغار على النسب الأنجب !

وفى الجلسة الاولى لنظر القضية أمام محكمة مصر الشرعية طلب محامى الزوج حسن صبرى باشا (رئيس الوزراء فيما بعد والذى مات أثناء إلقائه خطاب العرش سنة ١٩٤٠) التأجيل حتى يتمكن من الاطلاع على جوانب القضية ، فانبرى له الشيخ عثمان الفندى محامى السادات قائلا : إذا رأت المحكمة التأجيل فلنأمر بالحيلولة بين الزوجين إلى أن يبدأ النظر فى الموضوع . فما كان من القاضى الشيخ أحمد أبو خطوة إلا أن أمر بإقامة الحيلولة بين الزوجين وإخراج السيدة صفية من بيت زوجها بالقوة الجبرية وإعادتها إلى بيت أبيها . ومعنى ذلك أنه أخذ بوجهة النظر التى ترى أن الزواج قام على أساس باطل ، وأن استمرار العشرة بينهما هو اعتراف بدوام الخطيئة بينهما ، الأمر الذى يستوجب التفريق بينهما لحين البت فى الطلب الأصلى وهو فسخ عقد الزواج .

وتقبلت الجماهير المكتظة فى ساحة المحكمة قرار القاضى بالهتاف والتهليل ، أما الشيخ على يوسف فقد وقع عليه القرار وقوع الصاعقة وسافر لتوه إلى الاسكندرية ليدير الأمر مع ولاية الأمر الذين كانوا يقضون هناك شهور الصيف لعلهم يساعدونه فى الخروج من هذه المحنة خاصة أن زوجته أخبرته بأنها لن تعود إلى بيت والدها إلا جثة هامدة وساعد على تأزم الموقف أن صحيفة (المقطم) الناطقة باسم الاحتلال قالت بعد اجتماع الشيخ على مع بطرس غالى باشا وزير الحقانية (العدل) أن أمر الحيلولة لن ينفذ ، فانبرت لها (اللواء) بسيل من المقالات تحذر

فيها من تدخل السلطات في شئون القضاء ، وتستنفر الراى العام للدفاع عن حرمة الشرع وكرامة التقاليد واستقلال القضاء .



وفى الساعة السابعة من صباح ٢٧ يوليو ١٩٠٤ اتصل الشيخ عبدالرحمن الأفندى قاضى قضاة مصر بمحافظ القاهرة ، وسأله عما تم بشأن تنفيذ أمر الحيلولة ؟ فاجابه المحافظ بأن الأوراق لا تزال معروضة على رئيس الوزراء ووزير الداخلية - مصطفى باشا فهمى - بالاسكندرية . عندئذ ادرك قاضى القضاة ان الحكومة ماضية فى تعويق احكام القضاء وتعطيل قرار الحيلولة ، فاتصل على الفور بالقاضى الشيخ أحمد أبو خطوة وطلب منه ان يذهب الى قاعة المحكمة وينتظر منه كتابا يقرؤه فى الجلسة عند افتتاحها ، واتفق الرجلان على ان يتخذا مع الحكومة إجراء يهذبها ويعلمها ان حكم القاضى واجب الاحترام ، وان القضاء يجب ان يكون بمنأى عن تدخلات السياسة وشئون الحكم . وعند بدء الجلسة اتخذ الشيخ أبو خطوة موقعه على المنصة دون ان يتكلم .

وظلت الجماهير تتقرب بلهفة انجلاء الموقف ، ولم يكن يسمع سوى وجيب القلوب يتردد فى القاعة وقد خيم عليها صمت رهيب . ومرت فترة كأنها دهر حتى تلقى الشيخ أبو خطوة ظرفا يحتوى على رسالة قاضى القضاة ففرض الظرف وقرأ الرسالة على الجمهور ، وكانت تتضمن قرارا صريحا بأن تتوقف جميع محاكم مصر الشرعية عن نظر القضايا المعروضة عليها إذا لم تلتزم الحكومة بتنفيذ حكم القضاء واحترام قراراته ، فكانت اول دعوة الى الاضراب العام فى تاريخ القضاء المصرى ، ولم يكد الشيخ أبو خطوة يعلن قرار الاضراب العام ، حتى ضجت القاعة بالهتاف بحياة القضاء واستقلاله ، وخرجت الجماهير الى ميدان باب الخلق وقد اشتعلت حماسها ، فأحاطت بمبنى المحافظة الملاصق لمبنى المحكمة تعبيراً عن سخطها لتدخل السلطات الحاكمة فى شئون القضاء ، وطيرت وكالات الأنباء الخبر إلى كل أركان الدنيا .. وتكهرب الجو فى جميع أنحاء مصر ، ودب الفرع الى نفس الخديو عباس حلمى الثانى ومعه اللورد كرومر ، واجتمع مجلس الوزراء على الفور وأصدر بياناً أعلن فيه التزامه بتنفيذ

قرار الحيلولة ، واضطرت الدولة بكل هيئتها إلى أن تتراجع أمام
سطوة شيخين أزهريين لا يملكان من مظاهر القوة سوى شجاعة
القلب ، ويقظة الضمير ، واحترام النفس ، والترفع عن تملق
الحكومة ، والتمسك بكرامة القضاء .
وبعدها دخلت قضية الزوجية منعطفا جديدا .

نهاية المأساة

أَصْرَتْ السيدة صفية السادات على عدم العودة الى بيت أبيها تنفيذا لقرار المحكمة الشرعية بإقامة الحيلولة وعدم المخالطة بينها وبين زوجها الشيخ على يوسف الى ان تفرغ المحكمة من البت في الموضوع الاصلى ، وهو طلب فسخ عقد الزواج لانعدام شرط الكفاءة بين الزوجين ، وازاء اصرار الشيخ ابو خطوة على تنفيذ امر الحيلولة ، تم الاتفاق على ان تغادر صفية بيت الزوجية لتقيم عند رجل مشهود له بالتقوى والصلاح وحسن السيرة هو الشيخ الرافعى ، وقبلت صفية هذا الحل ، وانتقلت بالفعل الى بيت الرافعى ولكنها لم تنفذ امر الحيلولة بالدقة التى ينتظرها الشيخ ابو خطوة ، فقد ظلت الاتصالات مستمرة بينها وبين زوجها عبر رسائل تفوح عشقا وهياما .. وتصرخ بلوعة الحبيبين اللذين فرقتهما التقاليد العاتية ، بعد ان جمعت بينهما الشريعة السمحاء .

وكانت لدى الشيخ على خادمة اوربية تتولى نقل الرسائل بين الزوجين العاشقين ، وتسربت انباء الخادمة والرسائل الى الصحف المعادية للشيخ على ، فلم تخرج من نشرها فى اطار الحملة المسعورة لتجريح الزوجين واحراج الشيخ الرافعى ، وزادت الصحف بان الشيخ على نفسه يتسلل فى الهزيع الاخير من الليل الى بيت الرافعى ويختلى بزوجه صفية ثم ينسحب عائدا الى بيته قبل ان يبزغ الفجر ، وثار الشيخ الرافعى لهذه الانباء المثيرة التى تمس كرامته وتهز امانته كحارس على الزوجة ومنع اى مخالطة بينها وبين زوجها حتى لو كانت مخالطة شاعرية عبر رسائل الغرام الملتهبة ، وكتب الشيخ الرافعى الى قاضى القضاة طالبا اخراج صفية من بيته وايداعها بيت مفتى الديار المصرية الشيخ حسونة النواوى - والد الاستاذ عبدالخالق حسونة الامين العام السابق للجامعة العربية - الذى اسقط فى يده خوفا من ان تنتقل المشكلة الى بيته ، فتدخل بين الاطراف المتنازعة وتمكن من اعادة الامور الى نصابها بعد ان تعهدت

صفية بعدم استقبال الخادمة الاوربية وتعهد الشيخ على بالكف عن بث هيامه عن طريق الرسائل .

وبدأت المحكمة فى نظر الدعوى وتحدث الشيخ الغندى محامى السادات فطالب ببطلان الزواج على أساس أن الزوج كان فى شبابه من الفقراء ومن غمار الناس الذين لا يعرف لهم نسب رفيع يؤهله لمصاهرة بيوت الاشراف وكانت « تهمة » النسب الوضيع هى التهمة الاولى فى حق الرجل ، اما التهمة الثانية فكانت .. حرفته .. إذ قال المحامى إن الشيخ على يحترف « مهنة دنيئة » هى مهنة الصحافة التى تقوم على التجسس والتلصص على اسرار الناس .. وهى أمور ينهى عنها الشرع !!

واستمعت المحكمة الى اقوال الشهود الذين جاءوا ليقرأوا عن ظهر قلب شجرة الأسرة التى ينتمى اليها السادات والتى تنتهى الى الدوحة النبوية ، فاذا سئلوا عن نسب الشيخ على قالوا أنهم لا يعرفون له اصلا ! وكانت الصحف خارج اسوار المحكمة تردّد نفس الدعاوى التى ترد على السنة الشهود ، ويعترف الاستاذ عباس محمود العقاد بأنه لفق للشيخ على لقباً حقيراً مستمداً من حساب الحروف والطوالع ، فاختر له لقب (نورى) الذى يعرف به الفجر وشذاذ الافاق ، ويبرر ذلك بان الشيخ على كان متهما بالانتساب الى هذه الطائفة ، كما كان يقال بأنه من (المسلمين) الدخلاء على الاسلام من ناحية جده الاول .

إلى هذا الحد بلغت قسوة المثقفين فى الطعن على الرجل لأنه خرج على التقاليد ، ولم يشفع له عندهم أنه صنع مجده بيده ، وشنق طريقه فى الصخر ، وترجع على القمة التى ترنو اليها الابصار دون اعتماد على الحسب الموروث .. ولكنها طبيعة المناخ الذى كان يسود الحياة الاجتماعية والثقافية فى اخريات القرن الماضى وبدايات القرن العشرين وكان الشيخ ابو خطوة من اشد القضاة تزمناً ومغالة فى الحرص على التقاليد ومقاومة نزعات التحرر التى بزغت ريحها فى كتابات قاسم أمين ولطفى السيد ومحمد حسين هيكل وغيرهم من دعاة الحرية والمساواة . وبعد الفراغ من التحقق من نسب الطرفين ، انتقلت المحكمة للتحقيق فى « شرف » المهنة التى ينتمى اليها الشيخ على ، فاذا

بالشيخ الفندى يصول ويجول طعنا وتحقيرا من شأن الصحافة ..
وانتهى الى أن الشيخ على يوسف - صاحب أكبر جريدة في
الشرق - ليس مشغولا بالصحافة ، قائما بها ، « وإنما هو مشغل
بشيء يشبهها لأغراضه ، وهذا اشتغال بأخس الحرف وادنىها »
وعبثا حاول « المتهم » أن يدافع عن نفسه مالحق به من عار
وشنار .. وبعد الفراغ من نظر وقائع الدعوى ، اعتكف الشيخ ابو
خطوه عن الناس لأعداد الحكم الذى اعلنه وسط تهليل العامة
وتصفيقهم ويقضى بفسخ عقد الزواج .. ونظر الناس الى هذا
الحكم على أنه انتصار للأخلاق والتقاليد وهزيمة للتبرج
والفساد .. اما رجال السياسة فقد اعتبروه انتصارا للحركة
الوطنية وهزيمة للخديو عباس واللورد كرومر .. وهكذا نظر كل
منهم بالمنظار الذى يخصه ، اما ابطال القصة الاصيليون فقد
انسحبوا خلف الكواليس بعد أن انفض السامر وانصرف
الجمهور ، وعكفوا على معالجة قضيتهم بعيدا عن صخب العامة
وضجيج السياسة وتزمت القضاء ، وتدخل أهل الخير ودعاة
الصلح بين الطرفين ، فوافق الشيخ السادات على تزويج ابنته
ممن أحببت بعقد جديد ، وظن الشيخ العاشق أنه قد بلغ المرام
بهذا الاعتراف ، وأنه سينهل من بحر العسل فى عش الزوجية
الجديد ، ولكن حياته انقلبت جحيما على يد زوجته الشابة التى
كانت فى سن إحدى بناته . واضطر الشيخ وهو فى سن الكهولة
إلى أن يهرب من البيت لينسى همومه فى دوامة العمل فكان يقضى
معظم ساعات النهار والليل داخل (المؤيد) يصول ويجول فى
دنيا السياسة بعد أن خسر معركة الحب ، حتى إذا بلغ قمة المجد
الصحفى والسياسى خرج على الناس بقرار غريب هو اعتزال
الصحافة والسياسة معا ليتفرغ لوظيفة شيخ الطريقة الوفاية
الصوفية ، عساه أن يؤاسى الجرح الذى حطم كبرياءه وينتسب -
ولو زورا وبهتانا - الى الشجرة التى لفظته وهو فى قمة المجد
والسؤدد . وما هى الاسنوات قليلة حتى ودع الشيخ على يوسف
باشا الدنيا بعد أن أنهكه المرض وهذته معارك الحب والحرب
وخلف وراءه زوجة شابة لم تحقق له ما كان يطمح اليه من سعادة
زوجية . ولقد عبر شاعر النيل حافظ ابراهيم عن مأساة الشيخ
على يوسف ضمن قصيدته الرائعة التى انتقد فيها علل المجتمع

المصري في ذلك العصر ومطلعها :
حطمت اليراع فلا تعجبي وعفت البيان فلا تعتبي
فما أنت يا مصر دار الأديب ولا أنت بالبلد الطيب
وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال فيها أبو الطيب



وقال (المؤيد) في غمرة رماه بها الطمع الأشعبي
دعاه الغرام بسن الكهول فجن جنونا ببنت النبي
فنادى رجال بإسقاطه وقالوا تلون في المشرب
وزكى (أبوخطوة) قولهم بحكم أشد من المضرب

فيا أمة ضاق، عن وصفها جنان المفوه والخطب
تضييع الحقيقة ما بيننا ويصلى البريء مع المذنب
ويهضم فينا الإمام الحكيم ويكرم فينا الجهول الغبي

أدب الجمل



عيناي على صورة شيخ وقور تزين جدران بيتنا ..
كان الرجل بهي الطلعة .. وسيم الملامح .. مفتول
الشارب .. توحى نظراته بالارتياح والثقة ،
فكانك أمام عم أو خال أو جد .. ولقد ظننت في
البداية أنه أحد الأقرباء .. فلما بلغت مرحلة الصبا عرفت أنه
لايمت إلينا بصلة الدم .. ولكن بصلة العقل والروح .. فقد كان
أبى من عشاق المنفلوطي .. فلما دخلت المدرسة الابتدائية
واجهت نفس الصورة في كتاب المطالعة وتحته عبارات تذوب
رقة وعذوبة عن الرحمة والتراحم والبؤس والبؤساء .. وكان على
أن أحفظها حتى أستخدمها في صياغة دروس الانشاء ، فقد كانت
الوصية الأولى عند أساتذة اللغة العربية في كل أنحاء مصر :
إقرأ المنفلوطي ثم اكتب على منواله ، وكلما تقدمت في مراحل
التعليم ازدادت قربا من المنفلوطي ، فقرأت « النظرات » ثم
« العبرات » ثم بقية السلسلة الراقية التي صاغها السيد مصطفى
لطفى المنفلوطي : الفضيلة وما جدولين وفي سبيل الناج .. حتى
بات المنفلوطي جزءا لا يتجزأ من كياني الثقافي .

وإذا سألتني عن سر عظمة المنفلوطي قلت لك إنها تتمثل في
قدرته على بث القيم الخلقية الرفيعة والآداب السامية والمثل
العليا في أسلوب محبوب إلى النفس - وتلك وظيفة الأدب كما كنا
نتعلمها - فأنت أمامه لا تشعر بانك بإزاء واعظ أو أستاذ ، ولكنك
بجوار صديق عزيز يمس أوتار قلبك بأصابع حانية .. فلا تلبث
ينابيع الخير أن تتفتح في نفسك لتستقبل معاني الحق والفضيلة
والجمال .. مثلما تتفتح الزهرة لتحتضن أشعة الشمس .

وانت حين تقرأ المنفلوطي ، فإنك في الواقع لا تقرأ كلاما
مرصوفا أو عبارات جامدة .. وإنما تسمع الحانا شجية تنبعث
من قيثاره مستكنة في أعماقك .. فتتحرك في نفسك إحساسا بالسمو
والارتقاء ، فإذا بك تصعد إلى آفاق علوية ، وإذا بك قد تجردت من
نوازع الحقد والجشع والظلم والانانية .. وإذا بك قد استحلت
كائنا نورانيا يشع بالجمال والطهر والعفاف ..

وظلت رفقتي للمنفلوطي حتى بعد أن تخرجت في الجامعة ..
وتعرفت إلى أدباء من الشرق و من الغرب .. لكل منهم طعمه

ومذاقه .. وأسلوبه ومنهجه .. ومع ذلك بقي المنفلوطي مستقرا
في أعماقي .. ألوذ به كلما أجهدي المسير .. ولسعتني شدة
الحياة .. فارتشف من نبعه الصافي بضع قطرات تملأ النفس بشرا
وانسا .

وكان أشد ما يؤلمني تحامل النقاد على الأدب المنفلوطي ..
واتهامه بإشاعة روح الضعف والتخاذل والخور في نفوس
الشباب . وكان على رأس هؤلاء الناقدين الاستاذ العقاد .. فقد كان
من المؤمنين بفلسفة القوة ، والمبشرين بفكرة البطولة ، وقد
أزعجه أن رأى كراريس الانشاء عند تلاميذه - وقت أن كان
مدرسا - لاتخلو إحداها من « ميزاب دمع أو ماتم شجو وانين »
تائراً بأدب المنفلوطي ، وقد بلغت السخرية عند العقاد أن طلب
من طباطب المدرسة أن يجمع مخزون البصل عنده ثم يقدمه الى
التلاميذ أثناء حصص الانشاء ليستخدموه في استدرار الدموع بدلا
من أدب المنفلوطي .. « فالبصل أولى بمهمة تصريف الدمع من
كراسة الانشاء » على حد تعبير العقاد .

ولم يكن العقاد فريد عصره في التحامل على المنفلوطي
واتهامه بالإفراط في البكاء وإشاعة الأحزان في نفوس قرائه ، فقد
شارك في الحملة كثيرون ساءهم أن يكون للمنفلوطي هذا التأثير
الكبير عند الشباب وأن يكون أدب المنفلوطي حجر الأساس في
تذوق الأدب .

وكان المنفلوطي يتقبل هذه الحملات الظالمة - كعهده - صابرا
راضيا .. و لا يملك حيالها دفعا .. حتى إذا مات لم يجد أحدا يشيع
جثمانه .. فقد شاء القدر أن يلقي وجه ربه في يوم عصيب ، وهو
يوم الاعتداء على حياة زعيم الأمة سعد زغلول في ١٢ يوليو
١٩٢٤ ، فقد اتجهت جموع الشعب نحو محطة القاهرة لتطمئن
على حياة زعيمها ونسيت أديبها الكبير . وقد لفتت هذه المفارقة
نظر أمير الشعراء أحمد شوقي فأنشد مخاطبا المنفلوطي :

اخترت يوم الهول يوم وداع
ونعماك في عصف الرياح الناعى
هتف النعاة ضحى فاوحد دونهم
جرح (الرئيس) منافذ الاسماع
من مات في فزع القيامة لم يجد
قدما تشيع أو حفاوة ساع

سعد زغلول .. الأفغانى

كان

السيد جمال الدين الافغانى ، وقد اغلقت فى وجهه ابواب التدريس فى الأزهر يتخذ مجلسه المفضل فى قهوة متانيا بميدان العتبة ، يوزع السعوط بيسراه .. والثورة بيميناه .. وكان الطالب الازهرى سعد زغلول احد الذين تلقوا بذرة الثورة من راعيها . فبقيت مستكنة فى وجدانه نصف قرن ، حتى تفجرت كالأعصار وهوشىخ جاوز الستين ، وسرى إشعاعها كما تسرى موجات الاثير فى اعظم ثورة شعبية عرفت فى مصر فى تاريخها العريق . جاء سعد الى القاهرة ليجاور فى الأزهر فى نفس السنة التى هبط فيها الافغانى مصر .. فكانهما على ميعاد . واقام الافغانى فى مسكن متواضع فى خان ابو ضاقيية بحى الجمالية ، والتف من حوله التلاميذ والمريدون يتشربون افكاره فى الثورة والاصلاح كما تتشرب الارض العطشى قطرات المطر . وصحب الشيخ محمد عبده تلميذه وصديقه سعد زغلول الى حلقة الافغانى ، وما إن رأى سعد الشيخ المهيب واستمع اليه حتى قال لنفسه « هذا بغيتى » وأضحى سعد عضوا دائما فى ندوة الشيخ . وكان من عادة الافغانى أن يستكتب تلاميذه فى الموضوعات التى يتحدث فيها كى يدرهم على قوة التعبير وترتيب الافكار . وكتب سعد مع غيره فى « الحرية » فاعجب به الافغانى وعلق قائلا : مما يدل على أن الحرية ناشئة فى مصر .. أن يجيد فى الكتابة عنها هذا الناشئ .

وتفاعلت بذور الحرية فى نفس سعد مع اندلاع الثورة العربية ، كان وقتها شابا فى الخامسة والعشرين ويعمل ناظرا لقلم القضايا بمديرية الجيزة بعد أن كان محررا بالوقائع المصرية ومساعدة لاساتذته محمد عبده . لقد جرفته أحداث الثورة فى اتونها .. فلما فشلت اصابعه من أذى الاعتقال ما اصاب كل ثائر غيور ، وفقد سعد وظيفته وبات هدفا للمطاردة والتفكيك ، كان

بوسعه أن يعتذر ويتزلف ليسترد وظيفته ، ولكن روحه الأبية انفت من السقوط فى الشرك الذى سقط فيه ضعاف النفوس ، وإنما أثر أن يحترف المحاماة وهى يومذاك - كما يصفها العقاد - ليست بالمهنة الشريفة التى نعرفها اليوم ، وإنما كانت صناعة وضيفة مبتذلة يشتغل بها من لا يحسب المرافعة إلا مجالا للبداء وطول اللسان وضربا من الاحتيال والكذب والمراوغة والاختلاس .. ولكن سعدا صاحب النفس الأبية ارتفع بكرامته عن الدنيا ، فارتفع بالمهنة نفسها حتى صارت من أشرف المهن .



ولم تنم عين السلطة الغالبة عن سعد ، فقبضوا عليه وعلى شريكه فى مكتب المحاماة حسين أفندى صقر بتهمة الاشتراك فى جماعة سرية اطلقت على نفسها اسم (جماعة الانتقام) هدفها قتل الشهود والجواسيس الذين خانوا الثورة ، وارسال خطابات تهديد بالقتل الى الوزراء وكبار المسؤولين المتعاونين مع الاحتلال وتحمل وثائق الثورة العرابية منشورا وزعته الجمعية على قناصل الدول الأجنبية قالت فيه إن اهدافها تتمثل فى تحرير الوطن وطرد الانجليز من مصر وإخراجهم من وظائف الحكومة والجيش . ويؤكد المنشور حرص الجمعية على حماية ارواح الأجانب من كل الجنسيات والأديان ، وتطلب منهم عدم إيواء جنود الاحتلال أو التعامل معهم ، وحددت الجمعية مهلة لتصفية هذه المعاملات يتعرض بعدها الجانى للعقاب موتا وإغتصاب أمواله وطرد عائلته من البلاد .. واختتم المنشور بعبارة « فلتحى مصر والموت للانكليز » .

ويبدو أن جمعية الانتقام كانت متطورة تنظيميا ، فقد وضعت لنفسها قانونا أساسيا مكونا من ٢٠ مادة يحدد شروط الانضمام للجمعية وطريقة العمل بها ، ونظام الأوامر والتكليفات وطريقة اختيار القيادات والضمانات المكفولة للأعضاء فى حالة الاعتقال وأسلوب التخفى ونوعية الأسلحة التى يتدربون عليها .



وشكلت لجنة التحقيق مع المتهمين تضم عددا من رجال القضاء الأجانب والمصريين ، ولم تعثر اللجنة على دليل يدين سعدا وشريكه حسين صقر .

فأمريت بالافراج عنهما ، ولكنهما بقيا رهن الاعتقال أكثر من ثلاثة أشهر لأن الحكومة كانت عازمة على نفيهما إلى اقاصى السودان ، وكلفت عثمان ماهر باشا محافظ العاصمة باعداد المذكرة بطلب نفيهما لعرضها على مجلس النظار واوشك الامر بالنفى أن يصدر لولا أن ناظر الحقائق - حسين فخرى باشا - عارض فيه وقال : ان صدور الامر بالنفى بعد حكم البراءة يعد تحديا للقضاة الاجانب الذين جىء بهم لتنظيم القضاء المصرى . فعدلت الحكومة عن النفى وبقي السجينان معتقلين .. عندئذ كتب سعد الى لجنة التحقيق ، انى لا ازال موضوعا فى السجن مع تحقق اللجنة من براءة ساحتى مما نسب الى فالأمل إسعافى باجراء أمر الإفراج عنى رعاية لجانب الحق وتنفيذا للقانون ، وعلم النائب العام الانجليزى - مستر ماكسويل - بأمر السجينين اللذين ترفض الحكومة إطلاق سراحهما رغم براءتهما ، فأبدى تعجبه من هذا التصرف المريب ، وأمر بالافراج عنهما فورا .. ولم يسع الحكومة إلا الإذعان .

وخرج سعد ليستأنف عمله فى الحمامة .. سائرا على الصراط المستقيم الذى اختطه لنفسه ، ولا يحيد عن المثل والاخلاقيات التى فطر عليها .. لا يقبل أبدا الدفاع عن باطل .. ولا يرفض أبدا الدفاع عن الحق .. وبقيت تلك شيمته حتى آخر العمر .

بين ثورتين

الفترة الممتدة بين الثورة العربية وثورة ١٩١٩ من أكثر فترات التاريخ المصري غموضا ، فلم تجد من الباحثين إقبالا على الغوص فيها وتحليل أحداثها ، رغم أن هذه الفترة كانت غنية

كانت

بالأحداث التي وقع بعضها نتيجة فشل الثورة العربية ، وجاء بعضها الآخر إرهابا بمقدم الثورة الوطنية في ١٩١٩ ، فإذا كانت هذه الفترة الزمنية هي اللحد الذي احتضرت فيه ثورة ، فإنها أيضا الرحم الذي تخلقت فيه ثورة أخرى ..

ويمكن تشبيه هذه الفترة التي امتدت ٣٧ سنة ، بليل طويل حالك السواد ، جاء بعد غروب شمس العربيين ، وقهر الأمل في قلوب المصريين ، ولكنه في نفس الوقت كان بشيرا بميلاد فجر جديد .. وبعث الأمل مرة أخرى في الصدور اليائسة .. فاستعاد المصريون ثقتهم بانفسهم .. وهبوا يطلبون الحرية والاستقلال . في هذه الفترة أصبح كرومر سيد البلاد بلا منازع وصاحب الأمر والنهي في كل مقدراتها ، ووضحت دار المعتمد مقصد طلاب الحاجات والباحثين عن الثراء والجاه والمجد .. وبات الوزراء مجرد أشباح أو بصمجية بالقياس الى المستشارين الانجليز الذين استقدمهم كرومر من حوارى الامبراطورية ، وبثهم في الوزارات والمصالح ومديريات الاقاليم . وصدقت في وزرائنا مقولة أحد الكتاب الانجليز : « نحن لانحكم مصر .. وانما نحكم الذين يحكمونها » .

وشهدت هذه الفترة انتشار موجة الفساد والنفاق والوصولية .. كانت الهزيمة كالأعصار المدمر اكتسح المبادئ الخلقية والقيم الروحية .. وساد اليأس والقنوط حتى ظن الناس أن ليل الاحتلال ليس له صباح ..



وكان من المؤسف أن نجد الأدباء والشعراء يدبجون قصائد المديح في جبار الاحتلال كرومر .. وينشرون ما تجود به قرائحهم في كل مناسبة انجليزية .. فإذا حل عيد ميلاد ملك الانجليز تتابع الاعيان والوزراء والكبراء على دار الحماية لتقديم آيات التبريك

والتهنئة .. واذا مات الجنرال الغشوم كتشنر غرقا فى بحر الشمال
انهمرت دموع الحزن عليه أنهارا .. وخلع عليه الشعراء صفة
الشهيد .. يتساوى فى ذلك كبار الشعراء وصغارهم .. كان من
المفجع أن تمسك الصحيفة فتجد فيها قصائد من هذا النوع تحمل
اسماء شعراء كبار مثل أحمد شوقي وحافظ ابراهيم واحمد نسيم
وغيرهم .. وكان من الطبيعى أن يقتدى بهم صغار الشعراء .. وأن
تتأثر بهم الجماهير التى كانت تتلقف ما يكتبون بإعجاب
وشغف ..

وبدا كرومر خطة جهنمية لتغيير خريطة المجتمع المصرى ،
ظهر معها وكأنه الفارس الموعود الذى بعثت به الأقدار لتحقيق
الأمانى القومية التى فشل الثوار فى تحقيقها .. لقد ثار المصريون
على السخرة والظلم والغطرسة التركية والارستقراطية الشركسية
التي احتكرت ملكية الأراضى وكنمت انفس المصريين وسعدت
بفشل الثورة .. فلماذا لا يعمل كرومر على تغيير الهرم الاجتماعى
بما يسمح بظهور طبقة من كبار الملاك المصريين تزاخم الفلول
الشركسية وترثها ؟ .. وعمل كرومر على تحقيق هذا الهدف من
خلال اجراءات إصلاحية فى نظام الرى والصرف وتنظيم
الضرائب وإلغاء السخرة .. وكان له ما أراد .. وبرزت على سطح
المجتمع فئة من كبار الملاك تدين بولائها للاحتلال ليس عن كفر
بالوطن ، ولكن عن شعور بأن مقامهم ارتفع بقيام السلطة الجديدة
التي أنقذتهم من طغيان السلطة القديمة التي لم يكونوا
يستطيعون لها دفعا .

وفى رأى محمد زكى عبدالقادر ان قيام هذه الطبقة واعتمادها
على الاحتلال فى حمايتها من بطش الخديو ، والكراهية المتأصلة
فى نفسها للحكم التركى .. كانت البذرة الأولى لنشوء فكرة
الاستقلال « عن تركيا وانجلترا وهى الفكرة التي حمل لواءها
ونادى بها بعد ذلك حزب الامة واحمد لطفى السيد فى الجريدة .
وظلت هذه الطبقة اكثر انحيازاً الى سلطة الاحتلال منها الى
القصر . ولعبت دورا خطيرا فى الحياة السياسية المصرية وكان
لها شأنها فى ثورة ١٩١٩ وما تلاها من تطورات . كما كان لها
تأثيرها فى الحياة البرلمانية ، وما تعرضت له من هزات
واضطراب . واتخذت موقف العداء المستمر من القصر .

والمهادنة المستترة للاحتلال ، ليس عن رضا به ولكن عن خوف
من استبداد السراى وبطشها .. كان الاحتلال يريد ان يبقى اطول
فترة ممكنة فى مصر ، وكان يعرف ان هذا الهدف لن يتحقق إلا اذا
كسب ولاء اعيان المصريين ورضاهم .. ولن يفعل المصريون ذلك
الا اذا شعروا بان حالهم قد تحسن اقتصاديا واجتماعيا .. بل
يفوق حالهم على عهد اسماعيل .. واستطاع كرومر ان يغرس فى
نفوس المثقفين فكرة الاصلاح التدريجى بديلا عن بذرة الثورة ..
وبهذه الخطة الجهنمية نجح فى تاجيل الثورة لآكثر من ثلث قرن .

ثورة النساء

كانت

مظاهرات النساء ابرز مفاجات ثورة ١٩١٩ .. ففي اليوم التالى لاعتقال سعد زغلول اندلعت المظاهرات فى شوارع القاهرة ، وخرجت جموع الشعب من كل الفئات والطوائف تواجه رصاص الانجليز فى شجاعة منقطعة النظير ، وتساقط الشهداء والجرحى وسالت الدماء فى الشوارع دون ان يفت ذلك فى روح الشعب المتعطش الى الحرية والاستشهاد ، ولم تكن المرأة المصرية اقل إقداما من الرجل ، وشهدت شوارع العاصمة لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث - وربما فى تاريخها الطويل - مظاهرات نسائية صرفة ترفع الاعلام وتهتف للحرية وتنادى بسقوط الاحتلال والحماية .

وفى يوم ١٦ مارس ١٩١٩ خرجت اول مظاهرة نسائية ، اى بعد اسبوع من نفى سعد ورفاقه الى مالطة وكانت تضم ٣٠٠ سيدة ، وقد وصف الرافعى احدى المظاهرات النسائية فقال :
نظمت السيدات مظاهرة فخرجن من جاردن سيتى وسرن ماشيات وفى مقدمتهن ستة اعلام مكتوب عليها شعارات وطنية باللغتين العربية والفرنسية وسارت المظاهرات وخلفهن مركباتهن حتى وصلن الى شارع قصر العينى وشارع سعد زغلول ووقفن امام بيت الامة هاتفات لمصر وحياة سعد ، ثم اقبلت قوة كبيرة من البوليس والجنود الانجليز فى سيارات مسلحة فضربوا نطاقا حولهن وظل الحصار نحو ساعتين وهن واقفات فى الشمس ، وأرسلن باحتجاجهن الى سفارات الدول ، وجاء القنصل الامريكى بنفسه واحتج على هذه الفظاعة ، فصدر الامر على عجل برفع الحصار ، وتمكين السيدات من الخروج من النطاق المضروب حولهن ، فركبن السيارات والعربات وانصرفن الى بيوتهن بعد ان وقفن الى جانب الثوار محتجات على قتل الابرياء مطالبات بحرية مصر .



وفى يوم ١٠ ابريل سقطت اولى شهيدات ثورة ١٩١٩ وهى شابة عمرها ٢٨ سنة اسمها شفيقة محمد ، وعقب وفاتها اصدرت السيدة

هدى شعراوي رئيسة اللجنة التنفيذية للنساء الوفديات ، منشورا اعلنت فيه ان شفيقة محمد هي اول امرأة مصرية تسقط برصاص الانجليز منذ اندلاع الثورة ، ثم اصدرت قيادة الثورة منشورا روت فيه قصة استشهادهما على النحو التالي :

شاركت شفيقة محمد في مظاهرة يوم ١٠ ابريل ١٩١٩ وكانت مظاهرة كبيرة ضمت السيدات من مختلف الطبقات وسرن في الشوارع حتى وصلن الى مقر المعتمد البريطاني وطلبن مقابلته ليرفعن اليه احتجاجا مكتوبا ، فمنعهن العساكر الانجليز بالسلاح وضربوا حولهن حصارا بالبنادق والسونكيات ، ومع ذلك لم يعبان ، وتقدمت واحدة منهن (شفيقة) وهي تحمل العلم في يد والاحتجاج في اليد الاخرى ، واخترقت الحصار وجرت حتى وصلت الى مكتب « ملن شيتهايم » القائم باعمال المندوب السامي البريطاني ، فتناول الاحتجاج من شفيقة ودعاها للدخول الى مكتبه فدخلت وراءه ، واثار إليها بالجلوس ولكنها رفضت قائلة : لن اجلس إنني مستعجلة!

وتصفح شيتهايم الاحتجاج وتظاهر بأنه لم يفهمه مع انه يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة وقال لشفيقة محمد : إن الاحتجاج مكتوب باللغة العربية ، ماذا تريدان ؟ فاجابت : انه احتجاج على الاعمال الوحشية التي يعاملنا بها جنودكم بدون ذنب الا اننا نطالب بحرية مصر واستقلالها وسألها شيتهايم : وما تلك الأعمال الوحشية ؟ فقالت : ضرب النار على اولادنا وأطفالنا الأبرياء ورجالنا المجريدين من السلاح لمجرد احتجاجهم بالمظاهرات السلمية على منع زعمائنا من السفر لعرض قضيتنا على مؤتمر السلام ، وذلك مثل باقي بلاد العالم وتنفيذا لمبادئ الرئيس ويلسون .. وسألها شيتهايم مرة ثانية : وهل هناك أشياء أخرى ؟ فاجابت نعم نحن على اعتقال زعمائنا ونفيهم الى مالطة .. وينس شيتهايم من شفيقة وضاق صدره بها فوقف وقال لها منذرا :

تلك هي المرة الأخيرة التي نراك فيها تشاركين في المظاهرات وإلا فسيكون الاعتقال مصيرك ! فقالت شفيقة : سترونني في كل مظاهرة .. واستدارت الشابة المصرية لتغادر الغرفة بخطى ثابتة وهي راقعة الرأس .. والعلم في يدها .. وفتحت الباب لتخرج ،

وأغلق الحارس الباب خلفها وأخذ شيتهم الاحتجاج الذى تركته
ومزقه وألقى به فى سلة المهملات .. وقطع سكون الموقف صوت
طلقات الرصاص ينهمر، وأطل المندوب البريطانى من نافذة غرفته
ليجد شفيقة محمد جثة هامدة مخرجة فى دماؤها الزكية ، ومن
حولها زميلاتها وهن يهتفن :
تحيا ضحايا الحرية .. فى ذمة الله يا شفيقة .

شهيد أسيوط

كان

البكباشي محمد كامل مامورا لبندر أسيوط
حين اندلعت ثورة ١٩١٩ وامتد لهيبها الى
الصعيد ، ودارت معارك طاحنة بين قوات

الاحتلال والأهالي العزل ، فما كان من المامور البطل الا ان فتح
غرفة « السلاحيك » على مصراعيها ، وترك الثوار يغترفون منها
البنادق والطبنجات ليقاوموا بها جحافل الغزاة .

كانت أسيوط قد علمت بنبا اعتقال سعد ورفاقه ونفيه الى
مالطة ، فخرج طلبة المعهد الديني ومدرسة الأمريكان ومدرسة
إخوان ويصا والمدرسة الثانوية في مظاهرة سلمية يهتفون لسعد
والثورة ، ويرددون هتاف الثورة المجيد « الاستقلال التام أو
الموت الزؤام » فتصدى لهم جند الاحتلال المتمركزون في
أسيوط ، وأطلقوا عليهم الرصاص فثارت مشاعر الأهالي ، وشكلوا
من بينهم لجنة محلية لتنظيم شئون الحماية والدفاع عن المدينة
وازدادت حدة التوتر عندما أقدمت سلطات الاحتلال على اعتقال
بعض الزعماء المحليين : المحامي أحمد علوان والمحامي محمود
بسيوني ومحمد محفوظ باشا . وتناقل الناس أنباء الإهانات
البالغة التي تعرضوا لها في السجن فازداد هياجهم ، وانطلقت
الجموع نحو معسكرات الانجليز لتعبر عن سخطها ، فصادت
أكواما من التبن كدستها سلطات الاحتلال لغذاء الخيول فأشعلوا
فيها النيران وتصاعد لهيبها إلى عنان السماء حتى بدت المدينة
وكانها شعلة من الوهج .

وفقد الانجليز أعصابهم فأخذوا يطلقون الرصاص على
المتظاهرين في وحشية ، وتساقط مئات الشهداء والجرحى
وسالت الدماء في الشوارع كافواه القرب مما دفع الثوار الى مزيد
من العناد والصلابة والاصرار على مقاومة الاحتلال ، وشددوا من
هجماتهم على المعسكرات البريطانية حتى اضطر الانجليز الى
تجميع أبناء الجالية البريطانية في مبنى المدرسة الثانوية
وفرضوا عليها ستارا حديديا من الحصار المسلح ، فكان الثوار
ينقضون على الثكنة العسكرية في هجمات فدائية جريئة ، مما

أثار فزع سلطات الاحتلال ودفعها الى الاستعانة بسلاح الجو الملكي البريطاني .

ولأول مرة فى تاريخ الصعيد ، وفى صباح ٢٤ مارس ١٩١٩ قامت طائرتان حربيتان بصب حمولتهما من القنابل على المدينة الباسلة فى غارات وحشية لم تفرق بين البيت والمستشفى والشارع والمدرسة ، وتساقط المئات دون أن ينال ذلك من روح الأهالى وصلابتهم .

وإمام هذا العناد الصعيدى لجأت سلطات الاحتلال إلى أسلوب دنىء لإذلال الأهالى ، فأعلنت أنها ستقوم بتفتيش البيوت ليلا ، وطلبت من الرجال مغادرة بيوتهم وترك نسائهم فيها ، ولم يستسلم الأهالى للتهديد الحقيق فهجرت العائلات البيوت إلى المقابر والكهوف والصحراء والأديرة ، حفاظا على الأعراس من أن تمسها شرانذم الاحتلال .

وعلم أهل أسيوط بقدوم قطار من الأقصر يقل بعض كبار الضباط الانجليز فى طريقهم الى القاهرة . وأرسلت مديرية أمن أسيوط إشارة الى جميع مراكز ونقط الشرطة لتشديد الحراسة على المحطات ، ولكن الضباط بدلا من أن يشددوا الحراسة ابلغوا الأهالى حتى لا يقلت منهم الصيد الثمين ، وتحركت جموع الثوار من القرى والنجوع نحو محطة ديروط ، حتى إذا توقف القطار اندفعوا داخله كالسيل ، وانهالوا ضربا على الضباط الانجليز فقتلوا منهم اثنين ومعهم خمسة جنود . وكان لهذا الحادث أثره فى أسيوط ، فشدد الانجليز الحصار على المدينة استعدادا للانتقام منها ، واخذوا فى حفر الخنادق وإقامة المدافع الثقيلة ، وأرسل القائد البريطانى رسالة الى البكباشى محمد كامل مأمور البندر يطلب اليه فيها التسليم ، فكان جواب الضابط الذى تحول الى ثائر : لن تدخلوا المدينة إلا فوق أشلائنا ، وبدأت القذائف تمطر المدينة بوابل من النيران ، ولكن المأمور لم يستسلم ، وقام بتوزيع ماله من سلاح على الأهالى ، وتقدم مع جنوده للقيام بواجب الدفاع عن المدينة الصامدة إلى أن وصلت تعزيزات هائلة من القاهرة ، وكان أول مافعلته القوات البريطانية اعتقال مأمور أسيوط وتقديمه الى محكمة عسكرية بتهمة التفريط فى السلاح « الميرى » وتحريض الأهالى على التمرد . وأصدرت المحكمة

حكمها بإعدام البكباشى محمد كامل ، وتلقى الرجل الحكم فى شجاعة نادرة ، وحاول وجهاء أسيوط إنقاذ رقبة المأمور البطل ، وقامت وفود منهم بمحاولة تخفيف الحكم عنه ، ولكن السلطات البريطانية أصررت على إعدامه . وفى يوم ١٠ يونيه ١٩١٩ سيق البكباشى محمد كامل الى ساحة الإعدام داخل أحد المعسكرات البريطانية ونفذ فيه الإعدام رميا بالرصاص ، وبقي اسمه فى سجل الخالدين الذين أنبتهم مصر على مدى تاريخها العريق .

دولت فهمی

كان

عبد القادر محمد شحاتة - الطالب بالمدرسة الالهامية الثانوية - جالسا على مقهى بميدان باب الخلق يلعب « عشرة طاولة » مع صديق له ، عندما تقدم منهما شاب متوسط الطول قمحي اللون ، فسحب كرسيه وانضم إليهما في مباراة الطاولة ، وقدم نفسه باسم « فهمي » . وبعد التعارف وتبادل الأحاديث الودية انصرف « فهمي » لحال سبيله ، ولكن زيارته لعبد القادر تكررت بطريقة مريبة . كان يهبط عليه فجأة في منزله وهو في زى عامل أحيانا .. أو زى أزهرى أو فلاح .. وأدرك عبد القادر أن وراء الصديق الجديد سرا عامضا ولكنه حار في تفسيره .. حتى جاء اليوم الذي كشف « فهمي » فيه عن حقيقة أمره . قال له : إسمع يا عبد القادر .. نحن نعرف الكثير عن شجاعتك ، والأعمال البطولية التي قمت بها في المنيا أثناء عدوان الانجليز على أهلها العزل ، ونعرف أنك أنت الذي أشعلت الثورة في المنيا ، والآن حان الوقت لاكشف لك عن مهمتي .. فانا مندوب الجهاز السرى ، فهل تقبل أن تكون عضوا معنا في الجهاز السرى للثورة .. ؟

قال عبد القادر على الفور : نعم .. أقبل بلا تردد وأقسم على حفظ السر .

وكان الجهاز السرى التابع لثورة ١٩١٩ يطارد الوزراء الذين يتعاونون مع سلطات الاحتلال البريطاني ، ويطعنون الثورة في ظهرها .. ويحطمون إرادة الأمة التي اختارت سعد زغلول وكيلا وزعيما ومتحدثا وحيدا باسمها في مواجهة الانجليز . وكان محمد شفيق باشا وزير الأشغال في وزارة ابراهيم سعيد باشا قد ارتكب جريمة نكراء حين وافق على إطلاق يد الانجليز في تغيير نظام الرى في السودان خدمة للمصالح الاستعمارية وإلحاق الضرر بالمصالح الوطنية ، وقررت قيادة الثورة قتله .

وفي يوم ١٩ فبراير ١٩٢٠ ذهب « فهمي » الى عبد القادر وأبلغه أن الاختيار وقع عليه لاغتيال شفيق باشا ، ولقنه تفاصيل الخطة المرسومة بدقة .. وقام الشاب الجريء بالعملية كما طلب منه ، وألقى قنبلة على سيارة الوزير أثناء مروره في العباسية ،

وانفجرت القنبلة ولكن الوزير افلت من الموت .. وقبض على الفدائي الجرىء ، وبدأت سلطات التحقيق تمارس معه اقظع الوان التعذيب لتعرف منه اسماء قيادة الجهاز السرى للثورة ، خاصة ان بعض شركائه فى المنزل شهدوا بأنه كان يبيت ليلاليه الأخيرة خارج البيت ، وهنا حدثت المفاجأة التى يرويها عبد القادر فى مذكراته التى نشرها استاذنا مصطفى امين فى (الكتاب الممنوع) :

« وإذا بى اتلقى داخل السجن رسالة من الجهاز السرى من خارج السجن ، بان سيدة اسمها دولت فهمى ناظرة مدرسة الهلال الأحمر سابقا ، ستتقدم للشهادة وتقول إنى كنت فى تلك الأيام أبيت عندها ! وإنه يجب ان اعترف بهذا ، رغم ان هذا يسىء الى سمعتى وإلى سمعتها ، ولكنها قبلت ان تقوم بهذه التضحية ! واستدعانى النائب العام توفيق رفعت باشا للتحقيق من جديد ليسالنى أين كنت أبيت ؟ وكانوا يتصورون ان هذا السؤال هو الخيط الذى سيوصلهم الى الجهاز كله ! فقلت وأنا اظهر الخجل : « إننى كنت أبيت عند السيدة دولت فهمى ناظرة مدرسة الهلال سابقا » وأصدر النائب العام على الفور أمرا بالقبض عليها ، فجاءت مكبلة بالحديد ، ودخلت سيدة حسناء الى غرفة النائب العام ، وإذا بدولت هذه تهجم على وتقبلنى وتنادينى : « يا حبيبى ! يا حبيبى ! اعترفت باننى أبيت فى بيتها واننى عشيقها .. وذهل النائب العام والحكمдар الانجليزى .

وصدر الحكم باعدام عبد القادر شحاتة ، ثم خفف الى الاشغال الشاقة المؤبدة ، وقضى القدائى الشاب أيامه ولياليه فى ليمان طرة وهو لا يكف عن التفكير فى أمر هذه السيدة التى ضحت بسمعتها من أجل إنقاذ شاب مصرى جسر .. كانت تملا عليه خياله وهو يقطع صخور الجبل .. وتؤنس وحشته وهو يأوى الى زنزانته ، ويناجى طيفها النبيل عبر قضبان السجن الكئيب .. حتى احس بأنه يحبها فعلا .. ومضت أربع سنوات تعيسة قضاها عبد القادر شحاتة فى ليمان طرة حتى جاءت حكومة الشعب الاولى برئاسة سعد زغلول ، فافرج عنه ضمن مجموعة من الفدائيين الذى سجنتهم سلطات الاحتلال ، وكان اول ما فكر فيه عبد القادر بعد عودته الى الحرية هو البحث عن دولت فهمى ليتزوجها ولكن

الجميع كانوا يتهربون منه ويطلبون منه أن يكف عن السؤال عنها ..

ولم يكف الشاب عن السؤال حتى وجد نفسه امام الحقيقة المفجعة .. فقد عرف أن اهله قد قتلوا ليغسلوا العار الذي لحق بهم اثناء التحقيق ، ولم يدركوا انها طوّقت اعناقهم باكاليل الغار حين ضحت بسمعتها من اجل إنقاذ زهرة شباب مصر ..

نموت وتحيا مصر

فى

أعقاب الاعتقال الثانى لسعد زغلول (ديسمبر ١٩٢١) اتخذت قيادة الوفد قرارا بتنظيم المقاومة السلبية للاحتلال . . وأصدرت عدة منشورات طالبت فيها المواطنين بمقاطعة الشركات والمحلات والبضائع الانجليزية واستعمال البدائل المصرية ، ونقل ودائعهم المالية من البنوك الأجنبية الى بنك مصر الذى مضى على إنشائه عام واحد . وفى اليوم التالى اعتقلت السلطات البريطانية قيادة الوفد التى كانت تضم : حمد الباسل وويصا واصف وعلى ماهر وجورج خياط وعلوى الجزار ومرقص حنا ومراد الشريعى وواصف بطرس غالى . وعلى اثر ذلك شكلت قيادة جديدة للوفد من المصرى السعدى وحسين القصصى وفخرى عبد النور وسلامة ميخائيل والشيخ مصطفى القاياتى ونجيب الغرابلى . وحملت الهيئة الجديدة راية الكفاح فأصدرت بيانا طالبت فيه الأمة بالاستمرار فى المقاومة ، واعتبار المقاطعة الاقتصادية شكلا من اشكال الجهاد لأنه يصيب المصالح البريطانية فى مقتل ، ويعمل على تشجيع الرأسمالية الوطنية الوليدة ، ويغرس فى الشعب روح الانتماء للوطنية المصرية الخالصة .

وبعد الافراج عن المعتقلين انضموا الى زملائهم الجدد ، وتحولت قيادة الوفد الى كتيبة نضالية تؤجج جدوة الجهاد لملاحقة المصالح البريطانية ، وتسميم الآبار فى وجهها ، وانهالت المنشورات فى كل انحاء البلاد تحض الجماهير على مقاطعة أنماط الاستهلاك الأجنبية والأقبال على منتجات بلادهم حتى لو كانت اقل جودة او أغلى سعرا من مثيلتها الأجنبية . واستجابت الأمة لنداء قيادتها الوطنية . . ونجحت المقاطعة حتى أوشكت المؤسسات البريطانية على الإفلاس وتعرضت المنتجات الأجنبية للوبار والكساد .

وفى ٢٥ يوليو ١٩٢٢ أصدرت سلطات الاحتلال امرا باعتقال سبعة من قيادات الوفد . وبدأت الحملة باعتقال حمد الباسل ومرقص حنا وواصف غالى والقى بهم فى ثكنات قصر النيل ، وكان مراد الشريعى فى بلدته - سمالوط - فلما علم بنبا القبض على

زملائه ركب القطار الى القاهرة وسلم نفسه الى سلطات الاحتلال . وكذلك فعل علوى الجزار الذى قُدم من شبين الكوم . اما ويصا واصف فقد قبضوا عليه فى راس البر . كما قبضوا على جورج خياط فى الاسكندرية ، والتام شمل الزعماء السبعة فى قشلاق قصر النيل دون أن يعرفوا حقيقة التهمة التى اعتقلوا من أجلها الى أن بدأت الصحف البريطانية تنشر تصريحات كبار رجال الحكومة البريطانية وجاء فيها أن الزعماء السبعة سيحاكمون بتهمة التحريض على قتل الانجليز فى شوارع القاهرة ، وأنهم وسيواجهون عقوبة الاعدام . واستقبل الأبطال هذه الأنباء بالسخرية وظلوا يمارسون نشاطهم اليومي فى لعب الطاولة ولا يتصورون أن يبلغ الهلع بالسلطات البريطانية الى حد إعدامهم لمجرد دعوتهم الشعب إلى العصيان المدنى .

وهذه صورة وصفية للروح المعنوية العالية للأبطال السبعة سجلها مرقص حنا فى مذكراته التى نشرها الاستاذ مصطفى أمين ويقول فيها : « كنا فى غاية الشجاعة .. ونؤمن بأننا دافعنا ، بتمام الشرف والهمة والاخلاص ، عن بلادنا وعن حقوقها . هذا هذا جرم ؟ إن العقاب على هذا الامر كالعقاب على الأكل والشرب ، غريب أن يسمى نفسه شريفاً ذلك الذى يسمى الدافع عن الوطن إجراماً ! أن الدافع عن الوطن فضيلة سامية ، فكيف يكون شريفاً ذلك الذى يستعمل قوته وسلاحه ضد أمة عزلاء ليسطو عليها ويسلب أصحابها أموالهم وأرزاقهم ؟ انهم يريدون عقابنا .. فليكن .. ولكن ماذا يريد أولئك المصريون الذين يتولون الحكم ، ويدفعون الانجليز الى هذا العمل وبأى وصف اصفهم ؟ إن احط الكلمات لا تكفى لوصفهم .. » .



ولما وجدت السلطات البريطانية أن تهمة التحريض على القتل لا تستند إلى دليل . عدلوا الاتهام وحصلوه فى دائرة الحض على كراهية الحكومة واحتقارها . وتسلم الأبطال قرارات الاتهام ، واتفقت إرادتهم على مقاطعة المحكمة وعدم توكيل محامين للدفاع عنهم . وأنابوا حمد الباسل لإلقاء كلمة أمام هيئة المحكمة العسكرية البريطانية فى أول جلسة من جلسات المحاكمة التى عقدت فى مبنى محكمة استئناف القاهرة بباب الخلق . ونهض

حَمَد الباسل يرقل فى ملابسه البدوية التقليدية يقول فى صوت عميق اهتزت له جنبات المحكمة : باسم الشعب المصرى .. إننا نحن الوكلاء عن هذا الشعب ، المكلفون بالمطالبة باستقلاله ، ولهذا لا نستطيع ان نعترف باى حال من الأحوال بقضاء محكمة اجنبية ، ولو ان هذه المحكمة العسكرية الانجليزية تأخذ بتصريح الحكومة الانجليزية او تعتبره تصريحاً جدياً ، (يقصد تصريح ٢٨ فبراير) وهو ان مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، لكان حقا عليها ان تعلن من تلقاء نفسها عدم اختصاصها بمحاكمتنا ! إن لكم ان تحكموا علينا .. ولكن ليس لكم ان تحاكمونا .. ! مهما تكن العقوبة التى يروق لكم ان تشرفونا بها ، فإننا سنقابلهما بالسرور والفخر ، لأنها خطوة إلى الأمام فى طريق المجد الذى تسير فيه مصر الى مصيرها الخالد ! ولو خرجنا من السجن فسنعود الى جهادنا مرة أخرى .. ولو متنا .. فإن مصر لن تموت .. !!



وخيم على القاعة سكون رهيب .. ووقف بقية المتهمين فقال كل منهم إن كلام حمد الباسل يعبر عن رأينا جميعاً .. ورفعت الجلسة للمداولة ثم عادت بعد قليل لتصدر حكمها بالإعدام على الأبطال السبعة .. وما إن فرغت المحكمة من تلاوة الحكم حتى وقف حمد الباسل ليهدف : نموت وتحيا مصر .. !! وضجت القاعة بالهتاف : تحيا مصر .. يحيا الاستقلال .. يحيا سعد .. وارسل الحكم الى اللورد اللنبى فصدق عليه وبعث به الى حكومته للتصديق . ووجدت الحكومة البريطانية ان إعدام الأبطال السبعة سيؤجج لهيب الثورة من جديد ، فخففت الحكم إلى السجن سبع سنوات وغرامة خمسة آلاف جنيه .

بنك مصر

كان

قيام بنك مصر فى مايو ١٩٢٠ هو اعظم إنجاز اقتصادى لثورة ١٩١٩ ، ولكي ندرك اهمية هذا الصرح الشامخ فى تاريخ مصر الحديث ، ينبغى أن نتذكر الحالة التى كان عليها الاقتصاد المصرى منذ التغلغل الاستعمارى الأوروبى الذى بدأ فى عصر الخديو اسماعيل ، ثم بلغ ذروته باحتلال مصر عسكريا وخضوع الاقتصاد المصرى للسيطرة البريطانية ، حتى تحولت مصر بكاملها الى مزرعة قطن لخدمة مصانع النسيج الانجليزية ، وتحول المصريون الى مستهلكين للمنتجات الانجليزية ، وانفتحت مصر على مصراعيها للبنوك والشركات والمؤسسات الأجنبية ، وباتت مرتعا للمرابين الخواجات الذين انتشروا فى المدن ، وانبثوا فى القرى يمتصون عرق ابنائها بارخص الائتمان . كنت تمشى فى قلب القاهرة التجارى فلا تجد محلا مصرية عليه القيمة ، فكل المحلات الكبرى تحمل أسماء اجنبية : شيكوريل ، شملا ، اوركو ، افرينو ، بنزاويون ، صيدناوى ، عمر افندى ، داود عدس . حتى محلات البقالة الكبيرة احتكرها الطليان والأرمن واليونانيون ، واقتصرت نشاط المصريين على تجارة العطاره فى المحلات الصغيرة المكدسة فى الغورية وبين الصوريين وعربات الفول والطعمية والكشوى التى تزين جدرانها بشعارات انهزامية تقول : ملك الملوك إذا وهب .. لا تسألن عن السبب .. !! وكانت البنوك - عصب الاقتصاد - تابعة للمصالح الاجنبية بما فيها بنك الدولة القائم على إصدار العملة - البنك الأهلى المصرى - كان بنكاً انجليزياً لحما ودما .. ولا يحمل من سمات المصرية سوى الاسم المزيف .. فلم يكن اهليا .. ولا مصرية .. !!

■ ■ ■

فى هذا الجو القاتم .. وفى هذه الغابة التى تمرح فيها وحوش كاسرة ، ظهر شباب مصرى مشبوب العاطفة ، صادق الوطنية ، متقدم الفكر اسمه طلعت حرب استحوذت على فؤاده فكرة اشبه بالخيال هى إنشاء بنك مصرى يعمل على تجميع مدخرات

المصريين واستخدامها في إنشاء صناعات مصرية وتمويل مشروعات مصرية .. ويعمل فيه مصريون ويستخدمون في معاملاته اللغة العربية .. وعندما بلغ طلعت حرب سن الخامسة والعشرين اصدر في عام ١٩١٠ كتابا صغيرا عنوانه (علاج مصر الاقتصادي ومشروع بنك مصر او بنك الامة) واذا كان الخطاب يقرأ من عنوانه، فإن عنوان الكتاب يكشف عن مضمونه وهو أنه «لكي يتم الاستقلال السياسي فإنه من الضروري أن تتوافر للوطن إمكانات التحرر الاقتصادي التي ترسي دعائم اقتصادية وطنية يستطيع الوطن أن يواجه بها الاختناقات التي سوف يجتازها في مراحل نضاله مع الاستعمار .. تغذى كفاحه وتدعمه وتمنحه الصلابة وقوة الصمود ..» .

لقد وضع طلعت حرب يده على بيت الداء .. إن الاستعمار الاقتصادي هو الهدف الحقيقي للاحتلال .. وراى بفكره الثاقب أن الاستقلال السياسي لن يكتمل إلا إذا تحررت البلاد من اغلال الرق الاقتصادي . وكتب بيده روضة العلاج في هذا الكتاب الصغير .. وكان العلاج قيام بنك مصرى خالص يرعى مصالح المصريين وياخذ بيدهم من مهاوى العجز والخمول .

ولكن .. كيف يمكن لهذا المشروع الاسطوري أن يرى النور وسط الدياجير المظلمة التي تخيم على مصر في ظل جبروت كرومر .. وتواطؤ عباس الثانى .. وسلبية كبار الملاك الذين هادنوا الاحتلال وارتبطت مصالحهم بمصالحه .. ولم ينظروا الى أبعد من أقدامهم فلم يتخيلوا إمكانية قيام بنك مصرى متحرر من اغلال القهر الانجليزى يعمل فيه مصريون .. كانوا يتصورون أن حرفة المال والتجارة سر لا يتقنه سوى الخواجات .. !



مثل هذا المشروع كان لا يمكن أن يرى النور إلا في احضان ثورة شعبية وطنية تقلب موازين القوى وتفتح عيون الغافلين على حتمية الاستقلال الاقتصادي ..

وقامت الثورة في مارس ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول .. وتفتحت ينابيع الوعي في الشخصية المصرية ، وترددت اصدااء الحرية في جنبات الوادى وتاقت نفوس المصريين الى الحرية بمعناها الشامل .. وبابعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ..

وارتبط شعار « الاستقلال التام او الموت الزؤام » بشعار « مصر للمصريين » وتحرير المصالح المصرية من السيطرة الأجنبية ، واستجاب المصريون إلى نداء سعد زغلول للمساهمة بقروشهم القليلة في راسمال (بنك مصر) .. ومن حصيلة هذه القروش تجمع مبلغ لا يزيد على ثمانين ألف جنيه كان هو النواة الأولى في بناء الصرح الكبير .. وارتبط بنك مصر بثورة مصر وأصبح أولى ثمراتها المباركة .. وأروع إنجازاتها العملية ..

وكان تشجيع بنك مصر هدفا ثابتا من أهداف الثورة الوطنية .. فحين لجأت الثورة الى أسلوب المقاطعة الاقتصادية للمصالح الأجنبية ، طلبت من المصريين أن يسحبوا أموالهم من المصارف الانجليزية وأن يودعوها في بنك مصر ، وحثتهم على شراء أسهم بنك مصر « حتى يبلغ رأسماله مبلغا يتناسب مع حالة البلاد الاقتصادية ، وبذلك يتسنى للبنك أن يساعد في إحياء المشروعات الوطنية وتنشيط الصناعة والتجارة المصرية » .

وشب الوليد عن الطوق واتسع نشاطه حتى بلغت شركاته ١٤ شركة تمارس نشاطها في جميع فروع الاقتصاد الوطنى .. وأثبت قدرة المصريين على الوقوف على أقدامهم .. وخرجت الى الأسواق منتجات مصرية أقبل عليها المصريون وهم يشعرون بالفخر والاعتزاز لأنها من صنع بلادهم .. وكان من بين الشركات التى أسسها بنك مصر شركة اسمها (بيع المصنوعات المصرية) تخصصت فى بيع السلع المصنوعة بايد مصرية .. ولكنها تحولت الآن - فى ظل الانفتاح - الى مركز لترويج السلع المستوردة مثل غيرها من شركات القطاع العام والخاص .. وتبدد الحلم الذى كافح من أجله طلعت حرب منذ ستين عاما على أيدي الغافلين الذين لا يدركون معنى الاعتزاز بالوطنية المصرية .

سنمار المصرى

ما

إن فرغ طلعت حرب من بناء قلعة الاقتصاد الوطنى
- بنك مصر - حتى كان جزاؤه نفس جزاء البناء
الشهير (سنمار) الذى بنى قصرا

فخيما لأحد ملوك الفرس الأقدمين ، فلما انبهر الملك من روعة
البناء خاف من سنمار ان يبني لغيره أفخم منه ، فصعد به الى
سطح القصر ، والقى به من حالىق ، وبات جزاء سنمار رمزا على
الجحود ونكران الجميل ، وكان جزاء طلعت حرب الإبعاد عن
الصرح الذى بناه على كاهله طوبة طوبة ، ولكن عزاءه الوحيد ان
البنك رسخت جذوره فى تراب مصر ، وفاعت ظلاله على الروابي
الخضر ، وبات حقيقة ماثلة على صلابة الإرادة الوطنية فى
مواجهة البطش الاستعمارى .. !

■ ■ ■

فعلى مدى عشرين عاما (١٩٢٠ - ١٩٤٠) استطاع طلعت حرب
ان يجعل من بنك مصر بيتا مصرية خالصا يأوى إليه المصريون
هربا من نار النفوذ الأجنبى الذى يأخذ بخناقهم ، ويستنزف
أموالهم ، ويسخر بلادهم سوقا استهلاكية لتصريف منتجات
المصانع الانجليزية ، فظهرت شركات بنك مصر لتبنى قواعد
النهضة الصناعية والتجارية والأدبية والفنية والثقافية ،
وبمقتضاها تحولت مصر من بلد زراعى خامل الى بلد مزدهر
بالحركة والوعى ، وانطلقت المداخل الى عنان السماء فى المحلة
الكبرى وكفر الدوار لتقدم الى المصريين نسيجا من اقطان
بلادهم ، ودارت عجلة (مطبعة مصر) لترعى حركة التنقيف
والتنوير وتقدم الى العقل المصرى ثمرات الابداع المصرى ، وقام
البناء فى مسرح الأزيكية ليقدّم الى الناس فنا مصرية راقيا ،
وغذاء ثقافيا مفيدا ، حتى صناعة السينما لم تغفل من نشاط
طلعت حرب وقام ستديو مصر فى صحراء الهرم ليرعى صناعة
السينما التى كانت حكرا على الأجانب ، واتسع نشاط ٢٤ شركة
ليشمل كل مجالات العمل الوطنى من التأمين الى العقارات ، ومن
صناعة الزيوت والالبان إلى صناعة الاسمنت المسلح والمناجم

والمحاجر ، ومن السياحة والفنادق إلى النقل والملاحة البحرية والطيران .. وباختصار لم يترك طلعت حرب فرعاً من فروع الاقتصاد إلا غزاه ، وأقام له شركة تحمل اسم (مصر) العزيزة ، وبأموال مصرية خالصة ، وبسواعد مصرية شابة وضعت في موضع الاختبار فكشفت عن جدارتها ، وتولد لديها الاحساس بالثقة والاعتداد بالنفس والاعتزاز بالنسب المصري ، واضحت شركات بنك مصر مدارس لتفريخ الخبرات التي حملت عبء النهضة الوطنية ، واستردت أرضاً كانت سداحاً مداحاً للغرباء والأجانب .



فعل طلعت حرب كل هذه الأفاعيل في ظل الوجود الانجليزي المتسلط على شئون مصر والمتحكم في إرادتها ، كانت مصر في ذلك الحين قد حطمت بالثورة اغلال التبعية ، ومضت تمزق اكفانها وتستروح نسيمات الحرية ، ولم يكن الطريق سهلاً ميسوراً .. كانت الحركة الوطنية تشق طريقها في الصخر لاستكمال مسيرة الثورة ، وتكافح كفاح الصابرين من أجل تحرير الإرادة الوطنية من نفوذ ممثل الاحتلال القابع في قصر الدوبارة ، واستبداد الطاغية القابع في قصر عابدين ، وهي بين هذا وذاك تتقدم خطوة وتتعرض خطوات ..

وفي هذا الجو المبلد بالدسائس والمؤامرات استطاع طلعت حرب أن يقود سفينة بنك مصر في غفلة من عيون الاحتلال ، ولو شئت الدقة لقلنا أنها كانت غفلة الذئب الذي يترك فريسته حتى تتعثر في شباكه وتسقط مستسلمة في بؤرة الفشل والاحباط .. في البداية كان الانجليز يظنون أن بنك مصر مشروع محكوم عليه بالفشل انسياقاً وراء الوهم المستحكم بعدم قدرة المصريين على اقتحام دنيا المال والتجارة والصناعة ، ولكن الأيام أثبتت لهم كذب مايزعمون ، ووقف البنك على قدميه كالمارد العملاق .. فلما ثارت غيوم الحرب العالمية الثانية ، واشتدت قبضة الانجليز على اقتصاد مصر ، حانت لحظة الانتقام من طلعت حرب ، وهدم البنك على رأس بانيه ، فاوعزت الحكومة البريطانية الى مستشارها المالي في مصر ليطلب من حكومة علي ماهر أن تسحب من بنك مصر رصيد الحكومة المصرية ، وودائع صندوق توفير البريد .

فتعرض البنك لأزمة خانقة في السيولة النقدية ، أراد طلعت حرب أن يعالجها بالطريق المصرفي السليم وهو اللجوء الى بنك الاصدار - وهو يومئذ البنك الاهلى - المصرى اسما والانجليزى فعلا - ليرهن عنده محفظة اوراقه المالية لقاء قرض يعيد للبنك استقراره ويوفر له السيولة المنشودة ، بعد ان تزاحم الناس لسحب ودائعهم بسبب نذر الحرب ، ولكن البنك الاهلى رفض الطلب بجة ان طلعت حرب افترط في تقديم قروض « معدومة » الى بعض عملاء البنك . وانكشفت المؤامرة التى افاض احمد السوادى في وصفها في الفصل البديع الذى كتبه عن طلعت حرب ضمن كتابه (اقتطاب مصر بين الثورتين) فقد بعث المستشار الانجليزى برسالة الى طلعت حرب فحواها انه من الممكن معالجة ازمة البنك إذا استقال الرجل ، ونقل الاصدقاء الرسالة ، وكانت دهشتهم بالغة حينما وجدوا طلعت حرب وقد انبسطت اساريه وهو يقول : الحمد لله .. فليبق بنك مصر لمصر .. وليذهب الف طلعت حرب ..

واجتمعت الحكومة المصرية ، وبدلا من ان تصر على بقاء طلعت حرب على رأس البنك الوطنى ، استجابت للمطلب الانجليزى واعدت مشروعا تحل فيه الحكومة محل البنك الاهلى ، واجتمع البرلمان لبحث الاتهامات الدنيئة الى وجهت الى طلعت حرب وتبين للمجلس ان الرجل لم يزل كما كان دائما مشرق الصفحة وضاء الضمير ، وان كل ما قيل عنه مفتريات املاها الحقد ووافق البرلمان على مشروع على ماهر ، وذهب طلعت حرب وجاء حافظ عفيفى المعروف برعايته للمصالح الانجليزية ، لينفذ الجزء الاخير من المؤامرة وهو ملاحقة رجال الاعمال المصريين ، الذين كانوا يتعاملون مع البنك ، وفرض عليهم تسديد القروض فى وقت جفت فيه منابع السيولة النقدية ، فبيعت بيوتهم فى المزاد



وقضى طلعت حرب ايامه الاخيرة فى سكون بعيدا عن الصرح الذى شيده بإصراره وجلده وايمانه . ولم يندم إذ اوى الى الظل بقوة القهر ، وبقي البناء شامخا يواصل عطاءه النبيل . وظل اسم طلعت حرب مقترنا باعلى اسم لم يزل مرفوعا على هامات المصانع .. اسم مصر .

الوزارة الشعبية

تمكث وزارة سعد زغلول الأولى والأخيرة في الحكم سوى عشرة شهور و٢٤ يوما ، وبعدها بدأت لعبة الانقلابات الدستورية التي باتت طابع الحياة السياسية في العصر الملكي ، وكان من نتائجها ان قضى حزب الأغلبية البرلمانية معظم وقته في المعارضة ، وتربعت أحزاب الأقلية على دست الحكم ، وكان آخر الانقلابات : الانقلاب العسكرى فى يوليو ١٩٥٢ الذى أطاح بالدستور وبالبرلمان وبالحياة النيابية والحزبية معا .



والمؤرخون يخلعون على وزارة سعد اليتيمة صفة «الوزارة الشعبية» ، أو وزارة الشعب الأولى ، وهم على حق فى هذه التسمية ، لأنها كانت أول وزارة فى تاريخ مصر تتولى الحكم بارادة الشعب وليس بارادة السلطان ، ولقد حاول الملك أحمد فؤاد أن يتملص من هذه الحقيقة الجديدة المؤرقة له ، بأن يخدع نفسه ويخدع معه سعد زغلول ، ويفهمه فى خطاب تكليف الوزارة بأن اختياره لهذه المهمة الجليلة لم يكن إلا «لصدق ولائك وعظيم خبرتك وسداد رأيك فى تصريف الأمور» ولكن سعدا الجسور الواعى لم يبلع هذه العبارات المزوقة التى كانت ترد فى خطابات التكليف فى عصر الوزراء الأغوات .. وردها لملك مصر الاتوقراطى : إننى ما توليت الوزارة إلا بناء على ثقة الأمة ونوابها بشخصى الضعيف ، مما يوجب على والبلاد داخله فى نظام نيابى احترام ارادة الأمة وارتكاز حكومتها على ثقة وكلائها .

ومضى سعد القادم على أعناق الجماهير يضمن «بروجرام» وزارته مبادئ جديدة ثقيلة الوطاء على مسامع احمد فؤاد : التمسك بالروح الدستورية فى جميع المصالح ، وتعويد الكل احترام الدستور والخضوع لأحكامه .

ومضى سعد المعجون من تراب مصر وماء نيلها ، بطعم وزارته بوزراء من صميم الشعب ، ولدوا وعاشوا وليس على رؤوسهم ريشة سوى ريشة الجهاد الوطنى ، وزير المواصلات مصطفى النحاس ابن تاجر الأخشاب فى سمند ، ومحمد نجيب الغربابلى افندى المحامى فى طنطا ، ومرقس حنا المحامى فى أسيوط ، واحمد ماهر افندى وعلى الشمسى افندى .

ولك ان تتصور شعور افندينا المعظم سليل الارستقراطية التركية المتفطرة وهو يتعامل مع وزراء لا يعرفون الاسموكن والردنجوت ، وليس فى بيوتهم عبيد ولا محظيات ولا جوار .. ورئيسهم نفسه فلاح ابن فلاح واخوته فى إبيانة يحملون أسماء شلجى والشناوى وستهم وفرحانة !

●● هل كنت تتصور ان تسكت اوكار الارستقراطية عن هذا التغير الاجتماعى الهائل الذى حدث باسم الديمقراطية .. وباسم الدستور .. وباسم الحياة النيابية !!!

●● وهل يمكن لمن تربى فى احضان الاستبداد والطغيان والحكم المطلق ان يسكت عن هذا الفلاح وهو يدق باب قصرة قائلاً : عفوا يا مولانا .. ان تصرفك هذا غير شرعى .. لأن الدستور لا يسمح به .. الدستور لا يعطيك حق تعيين اعضاء مجلس الشيوخ المعينين .. والدستور لا يعطيك حق تعيين كبار موظفى القصر دون موافقة الحكومة .. ولا .. ولا ..

●● الله اكبر ..

سلطة الشعب تكبر وتنمو وتتسع لتصل إلى عقر عابدين .. وتسلب صاحبه حقوقا كانت له ولأجداده اشبه بالنوابات والمسلمات غير القابلة للنقاش !..

●● ولكن .. هكذا قال الدستور .. وإذا تكلم الدستور .. فعلى الجميع ان يصمتوا ، فهل يصمت احمد فؤاد الاتوقراطى بطبعه ، المستبد بالوراثة ، الذى لم يتعود سوى سماع عبارات السمع والطاعة من أفواه العبيد .. وهل نلومه إذا امتلات نفسه حقدا على هذا الدستور يوم ولد .. ويوم صدر .. ويوم أصبح حدا فاصلا بين سلطاته وسلطات الأمة !..

●● وهل يسكت كبار ملاك الاراضى الذين وصفوا انفسهم باصحاب المصالح الحقيقية ، وظنوا أنهم الورثة الطبيعىون لطبقة الشركس المنقرضين ، لقد أسقطهم الشعب فى الانتخابات ولم يمنحهم ثقته ، واسقط هيبتهم فى مراكز نفوذهم التقليدى فى الريف !.. فتعجبوا من امر هؤلاء الفلاحين الذين يعملون فى الوسايا والتفاتيش والابعديات والشفالك .. ما إن أتيج لهم حق الانتخاب حتى تخلوا عن سادتهم وانتخبوا مرشحي الوفد !.. فكيف يمكن - بعد ذلك - ترويض هؤلاء الفلاحين وقد انحازوا إلى

معسكر سعد واصبح لهم وزراء ونواب وشيوخ ..! ومن المسئول
عن هذا التغير الهائل سوى الدستور والبرلمان والحياة
النيابية ..! وهل نلوم هؤلاء الجبابرة إذا امتلأت نفوسهم حقدا
على الدستور والبرلمان والوزارة الشعبية .. وسعد والوفد ..!!
●● وكبار المثقفين القادمين من اكسفورد وكمبريدج
والسريون ، وقد امتلأت رؤوسهم غرورا واستعلاء على الشعب ،
وظنوا ان الانتخابات سوف تحملهم من ابراجهم العاجية إلى
المقاعد المخملية في البرلمان .. فما بال الشعب خذلهم .. ولقنهم
درسا في السياسة .. وعلمهم ان التمثيل الشعبي يختلف عن
التمثيل الثقافي ، وان الزعامة الشعبية لها اربابها ورجالها الذين
يحسون بنبض الجماهير .. فهل نلوم هؤلاء أيضا إذا هم نقموا
على الدستور والبرلمان الذي ازدهم «بالجهلة» وخلا من العباقرة
«الملهمين» ..!!

وتكونت من كل هؤلاء الشراذم جبهة قوية متحدة .. تفرق بينهم
المصالح المتباينة ، ويجمع بينهم الحقد على الدستور والنقمة
على الوفد ، والتحامل على الحياة النيابية ، والتربص بالسلطة
الشعبية .. والتآمر على وزارة الشعب الأولى .. واستجمعت هذه
القوى الشرسة اسلحتها يساندها الاحتلال الانجليزي .. فضربت
ضربتها .. واطاحت بكل المكاسب التي حصل عليها الشعب ..
وبدا عصر التزوير العلني .. والتزييف القاضح .. والتدخل
السافر لتحطيم إرادة الشعب . وكان سعد يرى هذه المهازيل
ويتذكر حكومة الشعب فيقول متحسرا : عيينا الاكبر في تلك
الوزارة أننا أخذناها جدا .. وصدقنا أننا مستقلون ..!!

حزب العرش

مصر في حياتها النيابية حياة اقصر البرلمانات عمراً في العالم ، حيث لم يستغرق عمره سوى تسع ساعات صدر بعدها مرسوم حله قبل أن يتبدد في الفضاء العريض صدى خطاب العرش الاى القاه رئيس الوزراء احمد زيور باشا امام سيده ومولاه احمد فؤاد .. لقد فعلها الملك تاديباً وتهذيباً وانتقاماً من الشعب الذى افسد الخطط الملكية التى عكف فؤاد على تدبيرها فى الظلام . وكانت تهدف إلى هدم الوفد وإقصاء سعد زغلول عن زعامة الشعب ، وسلب الحقوق الشعبية التى تضمنها الدستور ، وإخماد صوت الشعب الذى هتف تحت شرفة قصر عابدين : سعد او الثورة ! لمجرد ان الملك تجرأ على تعيين حسن نشأت وكيلًا للديوان الملكى دون إذن من الحكومة ..!



وكانت استقالة وزارة سعد زغلول فرصة ذهبية لتدبير هذه المؤامرة واسعة النطاق لضرب الحياة النيابية فى الصميم ، ونسف مبدا السيادة الشعبية والعودة إلى حكم الصفوة المفروضة على الشعب دون سند أو مساندة من الشعب ، وشاركت فى هذه المؤامرة كل القوى التى اضيرت فى الانتخابات ، فالأحرار الدستوريون الذين صاغوا الدستور وطبخوه على نار هادئة انقلبوا عليه وأبدوا استعدادهم لمرمطه انتقاماً من الشعب الذى خذلهم فى الانتخابات ، وتناسوا خصومتهم التقليدية مع الملك فؤاد مادامت المصالحة سوف تدفع بهم إلى كراسى الحكم ولو عنوة .. أو على جثة الدستور الذى وصفوه بأنه «فضفاض» . ومع ذلك ، فإن الملك فؤاد - السياسى المحنك - لم يسلم ذقنه لخصوم الأمس ، ورأى أن يعطيهم قسمة صغيرة من الكعكة ، اما الهبرة الكبرى فتكون من نصيب حزب جديد يقوم بتأليفه أذناب القصر ومن يلوذ بهم من الوصوليين وطلاب المنافع واصحاب الحاجات ، عسى ان ينجح هذا الحزب الملكى فى سحب البساط من تحت اقدام الوفد ويقتنص منه الاغلبية الشعبية فى الانتخابات .

وفى يوم ١٠ يناير ١٩٢٥ وفى حفل مزملى باذخ اقيم فى فندق سميراميس اعلن عن ميلاد (حزب الاتحاد) وشهد الاحتفال نجوم الارستقراطية المصرية ، قديمها وحديثها ، تحيط بهم شرذمة من محترفى السياسة ، وتتبعهم زمرة من كبار الضباط القدامى ، وتلحق بهم عصابة من الانتهازيين الباحثين عن اللقمة الدسمة فوق أى مائدة .. وبعض الخارجين على الوفد .

●● هكذا ولد حزب الملك ..

وانقض الحفل .. فانفض الحزب .. ولم يسمع له صوت فى أرجاء مصر الصابرة الصامدة التى كانت ترقب ما يدبر لها وهى تكظم غيظها وتتحين لحظة الانتقام كى تلقن هؤلاء الأوغاد درسا فى احترام ارادة الشعب .

■ ■ ■

وكان تشكيل حزب الملك انتهاكا صريحا لأحكام الدستور ، وخرقا للتقاليد النيابية التى تجعل الملك فوق الأحزاب ، وتناى به عن المعارك الانتخابية حتى لا يكون فشله فيها استفاء شعبيا يحسب عليه ، وعلى هذه النقطة يعلق الرافعى المؤرخ قائلا : لم يكن تأليف حزب «الاتحاد» على قاعدة أنه حزب الولاء للعرش من الحكمة السياسية ، ولا من الاخلاص للبلاد والعرش فى شىء ، فالعرش يجب أن يكون بعيدا عن الأحزاب ، وان يظل للأحزاب كلها ، لا أن يكون له حزب خاص لأن هذا معناه التشكك فى ولاء الأحزاب الأخرى للعرش ، ومعناه أيضا أن الدعاية لهذا الحزب إذا لم تنجح - وهى لم تنجح - ولم تنضم له أغلبية الأمة ، كان ذلك دليلا على أن أغلبية الأمة مشكوك فى ولائها للعرش مما يعد كشفا للعرش وإعلاما بأنه لم يكتسب محبة الشعب ..

ويعلل الرافعى دوافع انشاء هذا الحزب فى تصور أصحابه بأن الشعب يجب أن يسيره الحاكم كما يشاء ويهوى ، وأن تكون السراى هى مرجع الحكم ومصدره ، أما الشعب - فى تصورهم - فلا يصح أن تترك له إرادة فى ولاية الحكم أو توجيهه . بل يجب أن يحكم بواسطة حكومة تفرض عليه فرضا ، دون أن يكون له رأى فى قيام الوزارات أو سقوطها ، وبعبارة أخرى ، لا محل لما يسمونه الدستور ، وإذا كان لابد من نظام دستورى فليكن نظاما صوريا ، أو كان لابد من أحزاب فليكن أهمها وسيدها الحزب الذى

تنشئه السراى او يخضع لارادتها وتحركه كيف تشاء ، وهذا الضرب من الحكم هو من انواع الحكم المطلق ، واساسه إهدار حقوق الشعب ، والرجوع به إلى نطاق الذل والعبودية ، وهو نظام يمتنع معه كل تقدم سياسى او أخلاقى فى البلاد .



هذا هو حزب القصر الذى ولد فى الظلام ليكون أداة القصر إلى الحكم .. ومعه بدأت الأحزاب السياسية تستنفر أنصارها وتحشد اتباعها استعدادا لليوم المنتظر .. اليوم الذى تجرى فيه الانتخابات .. ويقول فيه الشعب كلمته الفاصلة .. وفى ذلك اليوم قال الشعب كلمته فكان لها وقع الصاعقة على رؤوس أعدائه .

وفدية .. سعدية .. زغلولية

كان

حل مجلس النواب في ٢٣ مارس ١٩٢٥ ، وهو لا يزال في المهد ، أشبه بمهزلة تأثير الدهشة والسخط والأشمئزاز ، وكان هذا التصرف الشاذ هو بداية الطريق السوء الذي اختطه الملك فؤاد المستبد الطاغية ، وتوغل فيه ابنه فاروق المستهتر الذي بلغ العبث بالدستور ، والاستهانة بالإرادة الشعبية في عهده مبلغا عظيما .. وانتهى كل ذلك بتصدع النظام النيابي .. وزعزعة إيمان الأمة بجدوى النصوص الصريحة القائلة بأن الأمة مصدر السلطات .. وانهيار النظام الملكي كله .

وعندما تبحث عن مبرر معقول لحل مجلس النواب ، الذي انتخبه الشعب ، بعد تسع ساعات من انعقاده - فلن تجد سوى مبرر واحد هو الحرص على استبعاد سعد زغلول الذي آلت إليه مقاليد الزعامة الشعبية ، وبات - ومعه الوفد - الناطق الرسمي الوحيد باسم شعب مصر ، في وقت ظن فيه الظانون أنهم أحق وأجدر بهذه الوكالة اعتمادا على ثراء عريض ، أو مجد موروث ، أو علم مكتسب .



قبل موعد الانتخابات بشهرين جاءوا باسماعيل صدقي ليدبر المعركة على هوى الملك ، ويضع السود والمتاريس أمام عودة الوفد إلى البرلمان ، وتقبل صدقي التكليف ممثنا ، فسوف تتاح الفرصة له للانتقام من سعد الذي طرده من الوفد فانتقل إلى المعسكر الآخر ، ومضى في طريقه غير عابئ بقانون أو دستور .. ووضع خطة لتغيير معالم الأرض الانتخابية حتى يتوه فيها أصحابها ، وسلك في ذلك مسالك أصبحت فيما بعد تقاليد راسخة في عمليات التزييف والتزوير والتأثير على جهاز الإدارة ، فقد عمل على تعديل الدوائر الانتخابية بحيث تخدم مصالح المرشحين غير الوفديين ، ثم تراجع عن نظام الانتخاب المباشر وعاد إلى نظام الانتخاب الثلاثيني الذي الغته حكومة سعد زغلول (ومعناه أن كل ثلاثين ناخبا يختارون ممثلا عنهم لانتخاب أحد المرشحين) والقي بكل ثقله على جهاز الإدارة من مأمير وعمد ومشايخ مستخدما كل

محرم من وعد أو وعيد .. وإغراء أو تهديد .. حتى اثمرت هذه الخطة وظهرت البشائر بتخلي الشعب عن مرشحي الوفد ، لدرجة أن سعد زغلول نفسه لم ينجح في الانتخابات الثلاثينية (يعنى لم يجد ثلاثين شخصا يجمعون على انتخابه في انتخابات الدرجة الأولى) !!..

وعندما فرغ اسماعيل صدقي من إعداد المسرح ، وظن أن كل الترتيبات قد تمت على ما يروم ، مضى إلى مولاه الملك قائلًا : تمام أفندم .. كل شيء عال .. وتحدد يوم ١٢ مارس ١٩٢٥ لاجراء الانتخابات وتقدمت إليها كل الأحزاب : الوفد والوطني والاحرار الدستوريون .. ومعهم بالطبع حزب القصر (الاتحاد) الذي اطلق عليه سعد زغلول (حزب القش) .

ويبدو أن الهوية الحزبية للمرشحين لم تكن واضحة للسلطات ، وان كانت واضحة للناخبين الذين افلحوا في إخفاء مشاعرهم عن مرشحيهم الحقيقيين ، انتظارا للحظة التي يقفون فيها أمام صناديق التصويت .. وعندها يكشفون عن انتمائهم الصحيح . ولعل هذه العملية الانتخابية التي تمت في يوم ١٢ مارس ١٩٢٥ كانت من اشد الأحداث غموضا .. وإثارة ، بل كانت « اغمض » انتخابات عرفت مصر كما وصفها بحق الدكتور يونان لبيب رزق ، فلم تظهر نتيجتها إلا بعد عشرة ايام من اجرائها ، وقضى القصر والحكومة ودار المتدوب السامي طوال هذه الفترة وهم حيارى : كم حصل الوفد ؟ .. وكم حصل الآخرون ؟ وتسرعت الحكومة في صبيحة يوم اجتماع المجلس الجديد وأعلنت أن الأحزاب غير الوفدية حصلت على أغلبية تسمح باستمرار الحكومة ، وبالفعل أصدر الملك فؤاد مرسوما باستمرار حكومة زيور ، وألقى زيور خطاب العرش أمام الملك ، وبعد انصراف الملك أجريت مراسم انتخابات رئيس مجلس النواب والوكيلين ، وهنا حدثت المفاجأة التي كان لها وقع الصاعقة : حصل سعد زغلول على ١٢٣ صوتا مقابل ٨٥ صوتا حصل عليها عبدالخالق ثروت مرشح الاحرار الدستوريين ، وفاز بمنصب الوكيلين ، النائبان الوفديان : على الشمسي وويصا واصف !!.. وتبين أن المجلس يضم أغلبية وفدية سعدية زغلوية !!.. واكتشف الملك أنه أمام مجلس نواب وفدى ، وأن كل الحيل

التي ابتدعها لم تغلح في إبعاد الوفد عن الشعب ، وإن ذكاء شعب مصر أكثر فاعلية من خبث صدقي ، وأحس خصوم الوفد بأن الأرض تميد تحت أقدامهم ، وأن ما حسبوه تحطيما لقوة الوفد ، انقلب فأضحى إثباتا لهذه القوة ، ويصف الدكتور هيكل هذه اللحظة التاريخية بقوله : لقد وجم أنصار الحكومة وجعلوا يضربون إخماسهم في أسداسهم ويتساءلون : ما عسى أن يتمخض عنه الموقف بعد ..؟؟



ولم يضيع زيور باشا وقته في التفكير .. وإنما عكف سحابة النهار .. وهي المسافة الممتدة بين انتخابات الصباح واجتماع المجلس في المساء - على إعداد مرسوم حل المجلس ، وذهب به إلى الملك فؤاد فوقعه على الفور ، وعاد زيور إلى النواب المجتمعين ، وتلا عليهم مرسوم حل المجلس وكأنه يقول لهم : نحن لا نريد الوفد ولا نريد سعدا .. ولا نريد الدستور .. ولا نريد البرلمان .. ولا نعتز بشيء اسمه إرادة الشعب .

لطمة ملوكية

كان

احمد فؤاد سادس أبناء الخديو اسماعيل الثمانية ، وعندما طرد أبوه من مصر فى عام ١٨٧٩ ، كان هو لا يزال صبيا تخطى العاشرة فكتب عليه أن يقضى صباه وصدر شبابه منفيًا فى العواصم

الأوروبية فعمل ضابطا فى الجيش الايطالى ولقى العطف من كبار القادة الذين عاملوه على أنه (عزيز قوم ذل) . وارتبط فؤاد بالحياة الايطالية شكلا وروحا ، وظلت المؤثرات الإيطالية واضحة فى حياته حتى بعد أن صار ملكا ، فكان للايطاليين وجود كبير فى القصر وفى المشروعات الكبرى ، وورث فاروق عن أبيه حب الطليان ، فكان منهم معظم العاملين فى القصر : الحلاق والطباخ والكهربائي والجنايني .. حتى منسق السهرات الخاصة انطون بوللى .

واستنكف السلطان العثماني أن يعمل أحد رعاياه ضابطا فى الجيش الايطالى فاستدعى الأمير احمد فؤاد إلى الأستانة والحقه بمعينه ثم أوفده ملحقا عسكريا فى فيينا ، إلى أن مات أخوه الخديو توفيق سنة ١٨٩٢ وخلفه ابنه عباس حلمى الثانى فاستدعى عمه احمد فؤاد من المنفى وعينه رئيسا للحرس الخديوى ، وعاد فؤاد إلى مصر ليبدأ مرحلة الصعلكة والفساد فى حياته التى قاربت السبعين . وكان المعروف عنه - فى هذه الفترة المبكرة - أنه زير نساء ، وزبون دائم على الحانات وعلب الليل وصالات القمار .. يشرب ولا يدفع .. ويخسر ثم يستدين .. ولا يتخرج من أن يمد يده إلى الجرسونات طالبا قروضا غير مردودة لكى يواصل اللعب .. وهناك كثير من أثرياء مصر يفخرون - صدقا أو كذبا - بأن الأمير فؤاد مدين لأبائهم بخمسة جنيهات أخذها على مائدة القمار ..

□ □ □

وتزوج فؤاد إحدى أميرات الأسرة العلوية ، وهى الأميرة

شويكار فانجب منها فتاة وحيدة هي الأميرة فوقية ، وكان فؤاد دائم الإلحاح على زوجته الثرية لتمده بالدعم اللازم للمجون ، فكانت تآبى حيناً ، وتذعن أحياناً ، وذات يوم رفضت الأميرة شويكار تلبية طلباته فاستشاط غضباً .. ورفع يده وهوى بها على وجه زوجته في لطمة دوى صداها في أنحاء البلاد حتى بلغ مسامع أخيها الأمير سيف الدين ، وكان شاباً عصيباً حاد المزاج لا يحسن التفاهم باللسان ، فما كان منه إلا أن حشاً مسدسه بالرصاص وانطلق كالنور الهائج بين البارات والكباريات بحثاً عن زوج أخته ليغسل العار الذي لحقه من اللطمة الملوكية ، حتى عثر عليه في النادي الخديوى - نادى محمد على فيما بعد - ودارت بين الأميرين مشادة ساخنة - باللغة التركية ، طبعاً انتهت بأن أخرج الأمير سيف الدين الطبخة وأطلق منها رصاصة استقرت في حنجرة الأمير فؤاد .. وفشل الأطباء في استخراجها فبقيت حيث هي ، وبقيت مؤثراتها على حباله الصوتية .. فكانت تصدر عنه أصوات أشبه بالنباح مما يسبب الارتباك لسامعيه .. وقع هذا الحادث يوم ٧ مايو ١٨٩٨ ، وبعدها قدم الأمير المعتدى إلى المحاكمة ، فحكم عليه بالسجن سبع سنوات ثم خفف إلى خمس .. واستكبر بعض الأمراء الأقوياء أن يعيش أحدهم في السجن بين اللصوص والنشالين وقطاع الطرق ، فتدخلوا لدى حاكم مصر الفعلى - اللورد كرومر - واستعانوا بتقرير طبي كتبه أحد أطباء الأمراض العصبية ، وافتى فيه بأن الأمير لا يتمتع بكامل قواه العقلية ، واقتنع كرومر بهذه الفتوى .. واستطاع أن يقنع بها حاكم مصر الشرعى - الخديو عباس حلمي - فأصدر مرسوماً بالإفراج عن سيف الدين على أن يقضى بقية حياته تحت العلاج في إحدى المصحات النفسية بإنجلترا .. ومرت السنون والشباب سجين المصحة العقلية حتى ودع الشباب والكهولة وأشرف على الشيخوخة دون أن يتمتع بالضيق الواسعة والثروة الطائلة والنعيم الرغد الذي خلفه في مصر .



وتطورت الأمور في مصر على المستويين العام والخاص ، فطلق الأمير أحمد فؤاد زوجته شويكار انتقاماً من أخيها المتهور ، ثم أصبح سلطاناً على مصر بعد وفاة أخيه حسين كامل واعتذر

ابنه كمال الدين عن ولاية العرش .. وجلس فؤاد على الأريكة السلطانية فواتته الفرصة لتعويض أيام الضنك والصعلكة التي قضاهما في البارات والحانات متسولا ومقترضا .. وفكر في الزواج الثاني فوق بصره على الفتاة الجميلة - نازلي - كريمة عبدالرحيم باشا صبرى مدير المنوقية السابق ، وحفيدة الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) ، وكانت الفتاة على علاقة عاطفية بشباب يمت إليها بصلة القربى ويعتزمان الزواج عندما شاءت إرادة عظمة السلطان أن ينفرد هو بالفتاة دون خطيبها ، واتخذت إجراءات الزفاف بسرعة بالغة . وفى ليلة الزفاف هربت نازلي من قصر أبيها ولجأت إلى بيت خطيبها ، واخذ العاشقان يتنقلان من بيت إلى بيت هربا من جحافل السلطان التى جددت فى البحث عنهما . وأخيرا استسلم الشاب وأعاد خطيبته ليلا إلى بيت أبيها لتزف فى اليوم التالى - عنوة واقتدارا - إلى عظمة السلطان احمد فؤاد . وشاعت انباء الحادثة فى أرجاء مصر ، وسجلها بيرم التونسى فى قصيدة مشهورة تدخل تحت باب الأدب الغاضح أو الجارح - أو الهابط .. ودفع بيرم ثمن تطاوله نفيا وتشريدا .

نزاهة النحاس

وَقَعَ

اختيار شوكت بك ، وكيل الامير نوجوان ، على المحامين الثلاثة : مصطفى النحاس ، ويصا واصف ، جعفر فخري ، لرفع الدعوى لإلغاء الحُجْر المفروض على الامير أحمد سيف الدين وتقرير نفقة سنوية له تتناسب مع ثروته الهائلة ومكانته العالية ، وحرر الوكيل مع المحامين الثلاثة عقدا بالأتعاب وطريقة دفعها ، وبدأ المحامون في ٢ فبراير ١٩٢٧ الاجراءات القضائية ، وسارت الدعوى سيرها الطبيعي امام المحاكم . ولكن القضية لم تكن كغيرها من آلاف القضايا التي تنظرها المحاكم ، فبطل القضية هو الرجل الذي حاول قتل الامير أحمد فؤاد وأطلق عليه رصاصة استقرت في حلقه ، وسببت له عاهة مستديمة جعلته عاجزا عن توضيح مخارج الألفاظ فيصدر عنه فحيح أشبه بالنباح .

لقد اصبح فؤاد ملكا على مصر ، ورأسا لعائلة محمد علي ، فأنى له ان يصفح عن الرجل الذي حاول قتله وتسبب له في كل هذه الأوجاع ، وهل كان له أن يتغافل عن هؤلاء المحامين ويغفر لهم جراتهم عندما قبلوا الوكالة عن الرجل الذي حاول قتل الملك قبل ثلاثين عاما .. لم يكن فؤاد بالرجل الديمقراطي الذي يقدر معنى الواجب الانساني الذي يفرض على المحامي الوقوف إلى جانب موكله ليستخلص له حقه الضائع .. بل كان يرى في القيام بهذا الواجب مساسا بذاته المصون .. ومن ثم بُيِّت النية على الانتقام .



واخذت الاحداث السياسية الكبرى تختلط بالامور الشخصية التافهة حتى ليصعب على الناقد الفصل بينهما ، ففي ذلك الوقت كان الائتلاف قائما بين الحزبين الكبيرين : الوفد صاحب الاغلبية الشعبية ، والاحرار الدستوريين صاحب الاغلبية الارستقراطية ، كان الائتلاف وحسن التفاهم صيغة فرضتها الضرورة بعد الانتخابات العامة التي اجريت في ٢٥ مايو ١٩٢٦ وفاز فيها الوفد - للمرة الثالثة - باغلبية ساحقة ، ولكن بات مفهوما أن

الوفد لن يسمح له لتولى سلطاته الدستورية كما تقضى التقاليد النيابية بتسليم مقاليد الحكم إلى صاحب الأغلبية .. فعندما ظهرت نتائج الانتخابات تحركت بارجتان بريطانيتان نحو ميناء الاسكندرية إشارة إلى إصرار بريطانيا على منع سعد زغلول من العودة إلى كرسي الوزارة حتى لو كان شعب مصر يريد ذلك ، وتقبل الملك فؤاد إشارة الاسطول البريطاني سعيدا مسرورا .. فقد كان ابغض ما يتصوره عودة سعد - أو عودة الشعب - إلى المشاركة في شؤون الحكم . وللخروج من هذه الورطة ، ولكي لا تتكرر مهزلة حل مجلس النواب مرة ثالثة ، تم الاتفاق على أن يتولى عدلى يكن رئاسة الوزارة ، ويتولى سعد زغلول رئاسة مجلس النواب . وبعد أقل من عام استقال عدلى وخلفه عبدالخالق ثروت . وفى عهد وزارته انتقل سعد زغلول إلى جوار ربه ، وتصور الأحرار الدستوريون أن موت سعد قد أزال من طريقهم خصما عنيدا ، وتوقعوا انقضاء الجماهير من حول الوفد بعد غياب زعيمه الأكبر ، ولكن الشعب التف حول مصطفى النحاس بنفس القوة التى التف بها حول سعد ، وبويع النحاس خليفة وزعيما ثم انتخب بالاجماع رئيسا لمجلس النواب فاجتمعت له زعامة الأمة ورئاسة المجلس النيابى ، ثم دخل ثروت فى مفاوضات يائسة مع الحكومة البريطانية لحل المسائل المعلقة بتصريح ٢٨ فبراير ، فلما فشلت المفاوضات استقال ثروت فعهد الملك إلى النحاس بتشكيل أولى وزاراته فى ١٦ مارس ١٩٢٨ ، فلما جلس النحاس على كرسي الوزارة رأى أن التقاليد القضائية تفرض عليه التنحي عن نظر القضايا التى كان موكلا فيها ومن بينها قضية سيف الدين ، وكتب النحاس خطابا إلى شوكت بك وكيل الأميرة نوجوان يخطر فيه بتنحيه عن الوكالة ، أما ويصا واصف الذى خلف النحاس فى رئاسة مجلس النواب فقد عهد بمهمته فى القضية إلى المحامى محمود بك بسيونى .

ووجد الأحرار الدستوريون أن سياسة الائتلاف مع الوفد لم تحقق لهم أغراضهم فبدأوا يعملون بإيعاز من القصر والانجليز على فض الائتلاف ، والانسحاب من وزارة النحاس واحدا بعد الآخر .. وحانت الفرصة للملك فؤاد للانتقام من مصطفى النحاس عن طريق تلويث سمعته وتعرض نزاهته المعروفة للشكوك ..

وبدأت المؤامرة الدنيئة بسرقة عقد الاتفاق المبرم بين المحامين الثلاثة والوكيل .. ومحاولة إثارة الأقاويل حول فداحة الاتعاب التي تضمنها العقد .. وأخذت المؤامرة طريقها إلى العلنية على وجه الصحف المعادية للوفد ، وفي شكل حملة تجريح لم يسبق لها مثيل ضد النحاس وهو لا يزال على رأس الوزارة . ففي يوم ٢٤ يونية ١٩٢٨ خرجت صحيفة «السياسة» تحمل العناوين الآتية : «مصطفى النحاس وويضا واصف وجعفر فخرى ينتهزون فرصة ضعف الأمير سيف الدين والأميرة أمه ويسعون كما يسعى أحط الأندال لابتراز أموال هذه الأسرة ابتزازا ..» وقالت «الأخبار» لصاحبها أمين الرافعي .. «ألا إنه شرف النعال ، وإنها لكرامة الأوجال ، وإنها لأمانة المحتال ، وإنها لصيانة دستور الدجال .. ألا تخشى أن يتلطف معك صاحب الجلالة ويسالك أين استقالتك ؟ فيماذا تجيب أيها النتن القذر ..!» .

وصدقت نبوءة الصحيفة وفي اليوم التالي انكشفت أبعاد المؤامرة ، فصدر الملك فؤاد مرسوما بإقالة النحاس زعيم الأغلبية . وهكذا دبر ونفذ أشد الانقلابات الدستورية إسفافا ، وأفسدها ، اسلوبا .. وأخطأ تعبيراً .. وأوى مصطفى النحاس إلى الظل ينتظر عدالة السماء لتقضى بينه وبين خصومه الإلداء .. حتى يراه الله مما قالوا .

اليـد الحـديـديـة

إقالة أول وزارة للزعيم مصطفى النحاس فى ٢٥ يونية ١٩٢٨ ، عن مؤامرة محبوكة شارك فى تدبيرها أصحاب القصرين : عابدين والدوبارة ، بالإضافة إلى حزب الأحرار الدستوريين الذى كان مؤتلفا مع الوفد فى وزارة النحاس .



لم يكن هدف المؤامرة - فقط الاطاحة بوزارة النحاس ، وتلويث سمعة الرجل الناصر الذى عمل قاضيا ومحاميا ووزيرا فكانت نوايته أبرز صفاته ، وإنما كان الهدف اعمق ، وهو الانقلاب على الدستور ، وتصفية البرلمان ، ووضع البلاد تحت مظلة حكومة استبدادية ليس لها سند سوى تأييد القصر والانجليز ، فاطلقت على نفسها اسم «اليـد الحـديـديـة» دلالة على انتهاجها العنف والقمع وكبت الحريات وتكسير فوانيس الديمقراطية . تلك كانت وزارة محمد محمود باشا زعيم حزب الأحرار الدستوريين الذى كان وزيرا فى وزارة النحاس ثم استقال بايعاز من الملك حتى يترنح الائتلاف ، ويوجد مبرر أمام الملك لأقالة الوزارة بحجة تصدع الائتلاف . وتلاقت إرادة المقامرين الثلاثة : الأحرار والانجليز والملك على تصفية الائتلاف . بعد أن فشل كل طرف فى استثماره لمصلحته الخاصة .

أما الأحرار الدستوريون فقد أرادوا من الائتلاف أن يهيئ لهم فرصة الاستيلاء على تراث الوفد بعد رحيل زعيمه الأكبر سعد زغلول . وكان ظنهم أن شخصية مصطفى النحاس لن تسد الفراغ الهائل الذى تركه سعد . ولكن النحاس خيب فالهم .. وكشف عن شخصية عنيدة صلبة يصعب أكلها ، ومن ثم تبخرت آمال الأحرار فى تعويض ضعفهم الشعبى عن طريق شعبية الوفد ، فاتجهوا إلى فض الشركة حتى ينفردوا بالحكم ولو على جثة الدستور الذى

ينتسبون إليه اسما وتاريخا .. ولكنه انقضوا عليه طمعا في السلطة

أما الانجليز فقد وقعوا في نفس الشرك الذى وقع فيه الأحرار بالنسبة لشخصية النحاس ، وظنوا أنه سيكون أقل صلابة من سعد ، وأكثر استعدادا منه لقبول العروض البريطانية لعقد معاهدة تحدد علاقة مصر بانجلترا ، ولكن النحاس لم يكن أقل صلابة من سعد . ولم يكن لديه أدنى استعداد للتهاون في حقوق مصر القومية ، وتعهد لويد جورج - المندوب السامى - أن يقدم للنحاس نفس العروض التى سبق أن رفضها النحاس عندما عرضها عليه عبدالخالق ثروت فى الوزارة السابقة . وكان معنى ذلك الاطاحة بحكومة النحاس الائتلافية ، وتشكيل وزارة أقلية تكون أكثر ليونة .

وأما الملك فقد قبل صيغة الائتلاف بين الوفد والأحرار لأن سعد زغلول ارتضاها .. أما وقد مضى سعد إلى جوار ربه - فلا محل لبقاء الائتلاف ، ولا معنى لبقاء النحاس شوكة فى حلق الملك مثل الرصاصة التى أطلقها عليه سيف الدين - ومن ثم تولدت الرغبة فى العدول عن الحكم النيابى والعودة إلى الحكم المطلق عن طريق وزارة (اليد الحديدية) التى استفتحت عهدها بتعطيل البرلمان لمدة شهر ، قامت خلاله بحملة دعائية غوغائية ضد الدستور والحياة النيابية ، وتسميم المناخ الديمقراطى ، والزعم بأن الشعب المصرى لا يصلح للحياة البرلمانية ولا يستحق الدستور ، وأن الأغلبية تمارس الاستبداد ، من هنا ظهر تعبير (طغيان الأغلبية) الذى ورد كثيرا على لسان الدكتور هيكى باشا .. وقبل نهاية الشهر استصدرت الوزارة أمرا ملكيا بحل مجلسى النواب والشيوخ لمدة ثلاث سنوات حتى تنهى الوزارة فرصة العمل فى هدوء !!

وهكذا تمت وقائع الانقلاب الدستورى الثالث خلال خمس سنوات هى عمر الحياة الدستورية المصرية ، وتم حل البرلمان للمرة الثالثة ولم يتجاوز عمره سنتين وبضعة أيام ، وبدأت مرحلة جديدة من مراحل الحكم الاستبدادى بقيادة الملك أحمد فؤاد ، وبرعاية المندوب السامى البريطانى ، أما أداة الانقلاب فكانت الأحرار الدستوريين .. وبدأ محمد محمود سياسة القمع

والارهاب بتعطيل الصحف اليومية ومنع الاجتماعات السياسية ،
وفتحت السجون ابوابها لتستقبل احرار الساسة والكتاب
والصحفيين ، واستدار الملك لينتقم من مصطفى النحاس ورفيقه
ويصا واصف وجعفر فخري ، لقبولهم الوكالة عن الامير سيف
الدين . واستحكمت حلقات الانتقام بتقديمهم إلى النيابة ومنها
إلى المحاكمة التأديبية في ظل حملة غوغائية شرسة لتطليخ
سمعة مصطفى النحاس ، ووقف مكرم عبيد المحامي مدافعا عن
رفيق جهاده مصطفى النحاس .. موجه الكلام إلى القضاة :
« عندما بدا للنيابة ، أو ابدى لها ، أن ترفع هذه الدعوى
التأديبية وجاءنا نبؤها ، كنت مع صاحب الدولة الرئيس الجليل
مصطفى النحاس باشا واتيح لى أن اتبين اثر ذلك النبا السئ في
نفسه قبل ان اتبينه في نفسى ، فرائته يضحك من خصومه ويهزأ
باساليبهم ، ولولا بريق في عينيه وهزة في صوته دلت على كمين
جرحه ، وثورة في نفسه ، لظننت أن شعوره كان مقصورا على
عدم المبالاة والازدراء ، ولكن مصطفى النحاس الذى عُيِّنت جميع
القوات لمحاربته ، وشُحذ كل سلاح وتُبشت كل قاذورة إما للنيل
من شجاعته أو من كرامته ، هذا الرجل ما كان خصومه ليعبأوا
بمقاتلته إذا لم يكن مقاتلا ، أو يجمعوا جموعهم لمناضلته إذا لم
يعرفوا فيه مناضلا ، ولذلك لم يدهشنى أن رايته يستبشر بتلك
المعركة النهائية الحاسمة بين حقه وباطلهم ، وأن يعد لها العدة ،
لا من صحيفة الاتهام ، بل من صحيفة نفسه الطاهرة . »

حادث سرقة !



تعيين النحاس باشا رئيسا لمجلس الوزراء في ١٦ مارس ١٩٢٨ ، بادر إلى التنازل عن الوكالة في قضية الأمير سيف الدين ، وبعث إلى شوكت بك وكيل الأميرة نوجوان أم سيف الدين إخطارا بتنحيه عن نظر القضية .. لقد فعل النحاس ما يمليه عليه ضميره ، وما تفرضه مقتضيات الأمانة والشرف ، فلم يكن مقبولا ولا معقولا أن يستمر - وهو رئيس الوزراء - في ممارسة مهنة المحاماة ، وتصوّر الرجل الطيب أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، ونسى أن الخير قد ينام مطمئنا ، ولكن عيون الشر لا تنام ، وأن أبناء إبليس يتحركون في الظلام يدبرون له المكائد والانسائس ، ويبحثون عن كل نقيصة لتلوّث سمعة رجل كان كل رأسماله الشرف والنزاهة .. ولم يتورعوا في سبيل تحقيق مآربهم عن ارتكاب جرائم تماثل تلك التي نراها في القصص السينمائية .



قبل أسبوع من تعيين النحاس باشا ، وقع بالاسكندرية حادث سرقة تافه في مظهره ، خطير في مغزاه وأبعاده ، كان جعفر بك فخرى المحامى وشريك النحاس وويضا وأصف في الوكالة عن سيف الدين يقضى مع أسرته إجازة بالقاهرة ، وترك بيته في حراسة الخدم بعد أن أحكم إغلاق النوافذ ، ولكن في صبيحة ٨ مارس ١٩٢٨ لاحظ بعض الخدم أن إحدى النوافذ مفتوحة على مصراعها فأبلغوا مكتب جعفر بك ، فخف إليهم بعض المحامين العاملين بالمكتب ودخلوا إلى المنزل عبر النافذة المفتوحة فاكتشفوا أنها مكسورة من الداخل ، ثم تفقدوا أثاث البيت فوجدوه سليما من كل عبث فاطمانوا وأقفلوا النافذة وأخطروا جعفر بك تليفونيا بالأمر ، فاطمان لما علم بأن شيئا من التحف الثمينة لم يسرق ، فلما عاد إلى بيته بعد بضعة أيام تبين له بعد البحث الدقيق في غرفة المكتب أن سرقة قد وقعت بالفعل ، وأن السرقة قد اقتصررت على مستندات خاصة تتعلق بقضية سيف الدين أهمها عقد الاتفاق المبرم بين المحامين الثلاثة وشوكت بك وكيل الأميرة ، واتهم جعفر بك طبّاخ البيت بالسرقة فقبض عليه وسبق

إلى النيابة للتحقيق ، وقد سحب معه أحد المحامين العاملين في دائرة الأمير سيف الدين ، مما يقطع بأن الدائرة كانت على علاقة بحادث السرقة وإن لم يكن الطباخ هو السارق الفعلي ، فقد تبين بعد ذلك أن اللص هو كاتب في مكتب جعفر بك ، خان سيده لحساب المتأمرين الكبار .



وانتهى الفصل الأول من هذه الكوميديا السوداء ، بالافراج عن الطباخ لعدم كفاية الأدلة ، وبقيت المستندات المسروقة مخفية في انتظار الوقت المناسب لنشرها في شكل فضيحة تحط من كرامة المحامين الثلاثة على أساس أنهم اتفقوا مع الوكيل على اتعاب باهظة مقابل العمل على رفع الحجر عن الأمير أمام مجلس البلاط ، وأنهم استغلوا نفوذهم السياسي للتأثير على الوكيل .
وجاء الوقت المناسب لتفجير القضية عندما فقد الانجليز الأمل في تطويع إرادة مصطفى النحاس ، وحمله على قبول عروضهم لعقد اتفاق ينظم العلاقة بين مصر وانجلترا . وأضاء الانجليز النور الأخضر للملك فؤاد للتخلص من النحاس - زعيم الأغلبية الشعبية ...!! - فاوعز بدوره إلى الوزراء التابعين لحزب الأحرار الدستوريين كي يستقبلوا فيتصدع الائتلاف الوزاري ويقال النحاس .

وقبل الاقالة بيومين ، فوجيء الناس بالمستندات المسروقة منشورة في الصحف الموالية للقصر وفي جريدة الأهرام وسط سيل من الشتائم والقاذورات الموجهة إلى شخص مصطفى النحاس واتهامه بالنصب والاحتيال والرشوة واستغلال النفوذ ، وإن كان الهدف الحقيقي منها هدم الدستور وتحقير الحياة البرلمانية وإقناع الرأي العام بعدم جدوى النظام النيابي ، والربط المتعمد بين قضية الوثائق المسروقة وقضية الديمقراطية في مصر . فتحت عنوان «مساكين» قالت صحيفة «السياسة» لسان حال الأحرار الدستوريين في ٢٥ يونية ١٩٢٨ : «إنهم ياتمرون بالوطن وحقوقه حرصا منهم على البقاء في الحكم لينصبوا وليسرقوا وليرتشوا وليفعلوا ذلك كله بالوثائق موقعة باسمائهم ، وقعوها في غير خجل ولا حياء .. إلى أن قالت : دعك من أنهم لا يقدرّون شيئا اسمه الشرف ولا الكرامة ، فليس يطلب إلى الناس

جميعا ان يكونوا ذوى شرف وكرامة ما دام فى الناس مجرمون
بالفطرة يستحقون ان يتخلص المجتمع منهم تخلصا حاسما .



وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى تكشف الهدف الأعمق من
إثارة قضية سيف الدين وتلويث سمعة النحاس وزميليه . فقد
عهد الملك إلى محمد محمود باشا زعيم حزب الأحرار - المستقل
من وزارة النحاس - بتشكيل الوزارة الجديدة ، فعطّل البرلمان
لمدة ثلاث سنوات بحجة أن الفساد قد دب فيه فاستحق التعطيل ،
وقال فى حديث مع مراسل صحيفة شيكاغو تريبيون ونشرته
الأهرام : «ان البرلمان عندما يصير مشوبا بالفساد لا يعود
دستوريا ، وهذا هو البرلمان الذى عطلته ، فقد كان زعماء البرلمان
الماضى يتاجرون بمناصبهم العالية ..» .

●● فهل صحيح أن النحاس تاجر بمنصبه العالى ؟؟ .
●● ألم يتنازل الرجل عن وكرامته فى القضية وتضحى عن النظر
فيها فور تعيينه رئيسا للوزراء ؟؟ .
ولكنها الأحقاد السياسية والضغائن الحزبية التى دفعت
خصوم النحاس إلى التغاضى عن مسالك الحق .. وارتاب
أساليب الفحش من أجل الإطاحة بالرجل وتلطّيح صورته فى عيون
الجماهير التى تحبه وتثق بنزاهته وإمانته وشجاعته ..
« ويمكرون ويمكر الله .. والله خير الماكرين»
صدق الله العظيم .

أمير في المنفى

وعشرون عاما قضاها الأمير سيف الدين حبيس السجن والياس والضياع بسبب رصاصة طائشة أطلقها على زوج اخته الأمير أحمد فؤاد ، منها سنتان عاشهما في أحد السجون المصرية ، أما ربع القرن الذي امتص عصارة حياته ، فقد قضاها منفيا في إحدى المصحات العقلية في قرية تقع بالقرب من لندن عاصمة الامبراطورية البريطانية ، وهي فترة كانت كفيلة بتدمير قواه العقلية والجسمانية والنفسية ، حتى تحول إلى كائن سقيم . وكانت عملية إبعاد الأمير سيف الدين من سجنه المؤقت في مصر ، إلى منفاه المؤبد في بريطانيا عام ١٩٠٠ تحت ستار العلاج ، قد تمت من خلال مؤامرة دنيئة من مؤامرات القصور التي كانت شائعة في ذلك العصر ، وشاركت فيها القوى الخفية التي كان يهملها الخلاص من الأمير الثرى الأهوج ، حتى يخلو لها الجو لاستلاب ثروته الطائلة التي قدرت يومئذ بعشرة ملايين جنيه ، ولاتزال أثارها باقية حتى اليوم في تلك العمارات الشامخة بشوارع قصر العيني ، وفي العمارات المتكررة القائمة على أرض خان الخليلي ، ولاتزال ابوابها الحديدية تحمل اسم : سيف الدين . ولقد تم تنفيذ المؤامرة وفق خطوات محسوبة ، بدأت باستصدار حكم بتوقييع الحجر عليه حتى يحرم من التصرف في أمواله ، وكانت الخطوة الثانية إبعاده عن مصر نهائيا ، ووضعته في مكان سحيق يقضى فيه بقية عمره ، وعلمت أمه الأميرة نوجوان - وكانت تقيم بصفة دائمة في تركيا - بما يدبر لابنها في الخفاء ، فكتبت الى اللورد كرومر مستنجدة ومحدرة ليقطع على المتأمرين سعيهم ، ووعدوا اللورد بما اثلج صدرها ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى وقع ما خشيته الأم ، وتمكن عليه القوم من تنفيذ مخططهم ولم يتحرجوا من ارتكاب التزوير لتنفيذ مسعاهم .. فجاءوا باحدى اميرات البيت المالك فانتحلت لنفسها صفة أم الأمير وحررت التماسا إلى حكومة الخديو عباس حلمي تطلب فيه نقل ابنها - المزعوم - من سجنه ليلقى الرعاية والعلاج في مصحة « تايسهرست » في بريطانيا ، واستجابت الحكومة



لطلب الأم المزيفة ، وتم بالفعل نقل الأمير إلى منفاه السحيق دون أن تدري أمه الحقيقية بما جرى له .

وبدأت الأم المنكوبة نوجوان رحلة البحث عن ابنها الضائع في المدن الأوروبية ، حتى عرفت المكان الذي وضع فيه ، وفي عام ١٩٢٤ طلبت الأم رؤيته فرفضت إدارة المصحة ، وقالت لها أنها لا تعرف له أما غير الأم التي طلبت إدخاله المصحة ، ولجأت الأم إلى أحد كبار المحامين الأتراك اسمه جلال بك عارف ، كان سفيرا سابقا لتركيا في روما ، فانتقل إلى بريطانيا وقابل رئيس الوزراء رامزي مكدونالد وعرض عليه مأساة الأم المحرومة من لقاء ابنها .. وقضية الأمير المسجون رغم أنه .. ولكن إدارة المصحة أظهرت له نص الطلب الأصلي الذي تقدمت به الأم المزيفة لعلاج الأمير ، ويحتوي على امر صريح منها يحظر على الأمير مقابلة أى إنسان .. ! وبالرغم مما ينطوى عليه هذا الطلب من ريبة ، فقد التزمت به إدارة المصحة مما يدل على أنها كانت متواطئة مع المتآمرين .. ومع ذلك تمكن المحامى من لقاء الأمير سيف الدين عن طريق الرشوة فوجد شيوخا دب فيه الضعف والوهن ، وحصل المحامى على تقرير من الحارسين المكلفين بحراسته قالوا فيه : كان الأمير عند دخوله المصحة في حالة طيبة للغاية ، واستمرت هذه الحالة خمس أو ست سنين ، وكان محبوبا من الجميع وقد بدأ الاضطراب العقلى بعد ذلك من جراء التضييق عليه ، ولأنه كان محروما من الاختلاط الجنسي ، ولأن حياته كانت متشابهة جملة ، ولأنه كانت تعطى له كمية هائلة من الخمر والبخار .. الأمر الذى يكشف عن رغبة مبيتة لتدمير الرجل .

وعندما اطلعت الأم البائسة على حالة ابنها جن جنونها ، واصرت على تحريره ليقتضى ما بقى من عمر فى حضانتها ، واستخدمت سلاح الرشوة حتى تمكنت من تهريبه إلى تركيا فى اغسطس ١٩٢٥ وهناك اتاحت له رعاية طبية مكثفة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من بقايا عمره الضائع ، وازادت الأم أن تستخلص ثروته التى تكالب عليها النهابون ، فاوقدت وكيلها محمد شوكت بك إلى مصر ليرفع قضية أمام المحاكم المصرية يطلب فيها رفع الحجر عن الأمير سيف الدين ، وتقرير نفقة شهرية من أمواله المجمدة تتناسب مع مكانته الاجتماعية ، ووقع اختيار الوكيل على ثلاثة

من مشاهير المحامين لبياشروا القضية ، اما اول هؤلاء المحامين فكان حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا ، وكان الثاني ويصا بك واصف ، وكان الثالث جعفر بك فخرى ، واما عن سبب اختياره هؤلاء المحامين الثلاثة من دون خلق الله فقد قال : لمعرفتى لاهمية القضية أردت ان انتخب اناسا اصحاب علم غزير وقوة دفاع ، وشجاعة مدنية ، واصحاب ذمة طاهرة ولهذه الاسباب انتخبت صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا لكونه صاحب هذه الصفات كلها وصاحب الشجاعة المدنية ، صحيح والله .. ما شفتش فى عمرى إلا إميل زولا فى فرنسا ومصطفى النحاس باشا فى مصر .. فهما الاثنان اتهما النيابة فى القوة المستبدة بقولهما : انى اتهم .. وده وجه مشابهتهما لبعض .. فترجيت من حضرة رئيس النيابة إذا كان لديه معرفة بالشخص الثالث اللى يماثلهما فى الشجاعة المدنية حتى افتخر به بصفتى إنسانا ، وانتخبت ويصا واصف بك لعلمه الغزير وطهارة ذمته ، وانتخبت جعفر فخرى بك أولا لمعرفته باللغة التركية ، وثانيا لمعرفتى بماضيه الشريف .

ولكن هذا الاختيار كان سببا فى ابتلاء المحامين الشرفاء وتعريضهم لأبشع أنواع الانتقام .

براءة

كان

المنتظر - وقد ظهرت المستندات المسروقة من بيت المحامى جعفر بك فخرى منشورة فى الصحف - بعد ان تبادل النيابة العامة إلى إعادة التحقيق فى جريمة السرقة للتوصل الى الفاعل بعد ان ظهر جسم الجريمة ، ولكن النيابة سكنت سكوت اهل الكهف ، عندئذ تقدم جعفر بك الى النيابة طالبا التحقيق ، ومرة أخرى لم تتحمس النيابة للبحث عن اللص لأنها كانت تعرفه وتعرف الى الجبارة التى تقف خلفه ، واكتفت النيابة بسؤال مديرى صحيفتى الاخبار والسياسة عن كيفية حصولهما على الوثائق المسروقة ، فاحتفى كل منهما وراء « سرية المهنة » فابلى جعفر فخرى النائب العام بان الاحتفاء وراء سرية المهنة هو تضليل ، الهدف منه إعانة المتهم على الهرب من وجه العدالة ، ومرة ثالثة لم تحرك النيابة ساكنا مما دفع مكرم عبيد المحامى إلى نقد موقف النيابة نقدا لاذعا .. واعتبره تقصيرا معيبا فى حق العدالة ، وقال ساخرا : لو ان الامر كان خاصا بمنشور سياسى لقامت النيابة وقعدت وفتشت جميع المطابع والمحال القريبة والبعيدة للبحث عن ذلك المنشور ولو لم تكن عناصر الاجرام متوافرة ، اما الجريمة ظاهرة والدليل ملموس فالنيابة لم تتحرك بينما تجهد نفسها فى تحقيق المفتريات ضد النحاس وزميليه ، وتنتقل من بلد إلى بلد عسى ان تصل إلى دليل أو شبهة إدانة . واختتم مكرم عبيد هذا الشق من دفاعه بهذه العبارة البليغة فى قسوتها : حقا إن عدالة النيابة فى هذه القضية عدالتان .. وإذا كانت هناك عدالتان فلا عدالة بالمرة .. !



كان هذا موقف النيابة من قضية سرقة الوثائق .. أما موقفها من حملة السباب والقذف فى حق الزعيم مصطفى النحاس فقد كان ادهى وامر .. لقد تقدم النحاس باشا ببلاغ الى النيابة ضد الصحف التى وجهت إليه اذع التهم واشنعها واحطها .. ومع ذلك حفظت النيابة التحقيق بالنسبة للقاذفين ، وقدمت النحاس وزميليه إلى المحاكمة التأديبية .. وهم ضحايا القذف

والسبب .. !! وكان هذا الموقف من النيابة من أغرب المواقف في تاريخ القضاء المصري ، وارتكبت النيابة في قرار الحفظ الى أن الوقائع المنسوبة للنحاس باشا وزميليه صحيحة ، وأن ما يشكون منه فقط - هو التعليق عليها .. وارتكبت أيضا إلى أن الأحكام القضائية تبيح نقد الخصوم السياسيين .

وانبرى مكرم عبيد لتفنيد حجج النيابة فقال إن الطعن في هذه القضية ليس موجها إلى الخصوم السياسيين بوجه عام ، بل إلى أشخاص معينين بالذات هم النحاس وزميلاه ، ولذلك فالألفاظ الموجهة إليهم تعتبر من قبل الإهانة والسبب .. وإذا كان النقد مباحا في النظم الديمقراطية إلا أنه يجب أن ينصب على العمل دون غيره .. ثم تساءل : فإين هذا من تعليق الصحف على الوثائق المسروقة .. هذا التعليق لم يتناول العمل ، بل تناول الأشخاص وجاء بعيدا عن الاعتدال والاخلاص اللذين جعل منهما القانون شرطا أساسيا في النقد ، لا يمكن أن يكون منه أن ينسب إلى المطعون عليهم أنهم نصابون ومرتشون ومجرمون بالفطرة واحط الاندال .. قدرون .. ومنتنون ؟ إنه بذلك لا ينقد عملهم أو سياستهم .. ولكنه طعن في الشرف والأمانة بأجلى معانيه .. ولو قلنا بأن هذا نقد مباح لفسد الجو الذي نعيش فيه وأصبح جو شتائم وسباب !!

ونفض مكرم عبيد لتفنيد تهمة استغلال النفوذ السياسي التي وجهتها النيابة إلى النحاس وزميليه فقال : إن الاتهام لا يحدد كيفية استخدام النفوذ ؟ بل يتهرب من التحديد عمدا بحجة أن هذا التحديد لا يهم الاتهام !! وتساءل مكرم عبيد : ماهذا الهزل في قالب الجد ، هل من المعقول أن توجه إلى متهم تهمة عائمة حائرة لا تستقر على حال ، حتى إذا سد الدفاع بعض الأبواب استفتحت الاتهام أبوابا أخرى .. وهكذا دواليك إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا ..

ولم يكن مكرم عبيد باشا هو المحامي القدير الوحيد في هذه القضية المثيرة ، وإنما كان يعمل ضمن فريق من فطاحل المحامين تطوعوا للدفاع عن زعيم الوفد وزميليه هم : محمد نجيب الغرابلي باشا ، وحسن صبرى باشا ، ومحمود بك بسيونى ، وكامل بك صدقى ، وانبرى كل منهم للرد على جانب من جوانب الاتهام ،

وشغلت مذكرات دفاعهم أكثر من ألف صفحة كانت في مجموعها شهادة فخار وتمجيد لمصطفى النحاس ، وبياناً لسلوكه البعيد عن مواطن الشبهات .

وفي يوم ٢ فبراير ١٩٢٩ انتهت إجراءات المحاكمة ، وانعقد مجلس تاديب المحامين المنبثق عن محكمة استئناف مصر الأهلية برئاسة حضرة صاحب المعالي حسين درويش باشا وكيل المحكمة ، وبحضور حضرات أصحاب العزة عبد الحكيم عسكر بك ، ومحمود سامي بك ، ومحمد بهي الدين بركات بك المستشارين بالمحكمة ، وعبد الخالق عطية أفندي عضو نقابة المحامين وأحمد شرف الدين بك رئيس نيابة الاستئناف ، وأحمد عوض الشاذلي أفندي سكرتير المجلس . وأصدر المجلس حكمه التاريخي ببراءة كل من :

- حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا
- ويصا واصف أفندي رئيس مجلس النواب
- جعفر فخري بك المحامي .

وأسدل الستار على هذه القضية التي شغلت الرأي العام لكثرة ما استخدم فيها من فنون الدس والتآمر والتلفيق والسب والقذف ، ومع ذلك لم تفلح كل هذه الأساليب الدنيئة في إطفاء نور الحق .. ولم تذلل من سمعة النحاس بأكثر مما تنال ريح السموم من المعدن الأصيل .. « وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً » صدق الله العظيم .

فى خندق الشعب

كان

مصطفى النحاس من الزعماء القلائل الذين اعتنقوا الديمقراطية فكرا وسلوكا .. لدرجة يصعب معها الفصل بين افكاره وممارسته العملية . فكان يقول مايفعل ، ويفعل مايقول ، وهو فى هذا يختلف عن طراز من السياسيين المصريين كانوا يتغنون بالديمقراطية مادامت الديمقراطية تعود عليهم بالمغانم ، ويتغزلون فى عظمة الشعب بشرط ان يدفع بهم إلى السلطة ، ولكنهم سرعان ما يتنكرون للديمقراطية إذا حالت بينهم وبين الحكم ، وسرعان مايسبون الشعب اذا حجب ثقته عنهم ، ولا يتورعون عن الانضمام الى صفوف اعدائه وفرض الوصاية عليه بحجة انه قاصر .. ومضلل .. ولايعرف مصلحته .

كان مفهوم الديمقراطية عند مصطفى النحاس بسيطا لا تعقيد فيه ولا فذلكة ، إنه يعنى الاحتكام الى الشعب ، واحترام إرادته ، واحترام مبادئ الدستور التى تنظم السلطات العامة ، وتنص على ان الأمة - وليس الملك - مصدر السلطات ، وكان الخروج على الدستور او انتهاك احكامه - كبيرة الكبائر التى لا تغفر ولا تقبل التسامح عند مصطفى النحاس ، ولذلك كانت حياة النحاس السياسية سلسلة من المعارك والحروب الشرسة مع اعداء الدستور واذناب القصر ، وانصار الحكم المطلق ، وجميع القوى الرجعية والفاشية التى أرادت ان تجعل من الدستور مجرد ديكور مستورد من بلاد الفرنجة يرضى احلام المثقفين المفتونين بنظم الحكم الغربية ولكنه - فى النهاية - يعنى استمرار الحكم الأتوقراطى الموروث عن عصر الاغوات

● ● ●

من أين اكتسب مصطفى النحاس هذه النزعة المتشددة فى احترام الدستور والقانون والانحياز إلى الكتلة الشعبية العريضة ؟ هل تعود إلى سليلته التى فطرت على عشق الحرية والنفور من الاستبداد ؟ ربما .. هل تعود إلى نشأته القانونية محاميا وقاضيا ؟ ربما .. هل تعود إلى جذوره الاجتماعية الممتدة فى الشريحة الوسطى من السبيكة المصرية الخالصة ؟ يجوز ..

على أية حال كان مصطفى النحاس ظاهرة فريدة في تاريخ مصر بين ثورتى ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، وشاء حظ مصر الطيب أن يظهر مصطفى النحاس على هذه الصورة المتشددة في التمسك بحق المصريين في إدارة شئونهم عن طريق حكومة مسئولة أمام برلمان منتخب ، وشاء حظ النحاس العاثر أن يعاصر الحلقات الأخيرة من سلالة الأسرة العلوية وهى تدخل مرحلة الاحتضار وتحارب معركة البقاء ، وتدافع عن وجودها الاستبدادى فى مواجهة الشعب المصرى وهو يتلمس طريق الخلاص والفكك ..

فالملك فؤاد كان ينطوى على بغض دفين للديمقراطية ، ويرث عن آبائه احتقارا خسيسا للشعب المصرى ، وفى خلال السنوات الست الأخيرة من حكمه ، وهى الفترة التى شهدت مولد الحياة النيابية بعد دستور ١٩٢٣ استخدم هذا الاتوقراطى العريق حقه فى حل مجلس النواب بكثرة لم يشهدها إطلاقا تاريخ الدساتير .. فقد بلغت مرات الحل أربعاً انتهت بإلغاء الدستور نفسه .

أما فاروق - الغلام العنيد الأحمق - فقد ورث عن أبيه كراهة الدستور ومصطفى النحاس ، ولذلك قضى النحاس - زعيم الأغلبية الشعبية - ما مجموعه عشر سنوات بعيدا عن حقه الدستورى فى الحكم خلال عهد فاروق الذى بلغ ١٦ سنة ، وكانت سنوات الغيبة العشر من نصيب أحزاب الأقلية وأذناب القصر الذين استخدمهم فاروق فى انتهاك الدستور والمشاركة فى حكومات لا تحظى بثقة الشعب .



كان مصطفى النحاس يرى رفاق النضال القديم وقد تقطعت انفاسهم من طول الكفاح ، فيضعفون أمام وهج السلطة الزائف ، ويتساقطون فى مستنقع القصر ويتحولون إلى أدوات فى يد الملك يلهب بهم ظهر الشعب ، ثم لا يلبث أن يلفظ لفظ النواة .. ويبقى مصطفى النحاس - وحده - فى الميدان .. تتناوشه السهام ، فلا يساوم .. ولا يضعف .. ولا يبيع ثقة الشعب برضاء الملك .. كان يقف فى خندق الشعب غير عابىء بمجد زائف أو سلطة زائلة .. فالوقوف مع الشعب هو ذروة الفلاح للزعيم الصادق .. وكان مصطفى النحاس زعيما حقيقيا يعرف موقعه جيدا .

انقلابات دستورية



الأول من يناير ١٩٣٠ شكل الزعيم مصطفى النحاس وزارته الثانية بعد انتخابات حرة أجراها المرجوم عدلى يكن باشا ، وأسفرت عن فوز الوفد فوزا ساحقا إذ حصل على ٩٠٪ من مقاعد مجلس النواب .

كانت تلك رابع انتخابات عامة تشهدها البلاد منذ دستور ١٩٢٣ ، وجاءت لتحمل الوفد إلى موقعه الطبيعي في الحكم بعد الانقلاب الثالث في سلسلة الانقلابات الدستورية التي دبرها الملك فؤاد للتخلص من حكم الشعب ، وتعطيل الحياة البرلمانية ، وإسناد الوزارة إلى أشخاص لا يتمتعون بثقة الشعب ، ولا يؤمنون بحقه في حكم نفسه ، ويضعون أنفسهم في مكان الوصي على الشعب « القاصر » في نظرهم ، ويظنون أن مهارتهم وكفاءتهم الذاتية ترجح قوة الشعب .

أما الانقلاب الأول فقد وقع أثناء حكم وزارة الشعب الأولى برئاسة سعد زغلول عام ١٩٢٤ ، فقد استغل الملك فؤاد حادث مصرع السردار واستقالة الحكومة ، فأمر بحل مجلس النواب حتى يتهيأ الجو أمام أحمد زيور للعبث بمقدرات البلاد في غيبة الرقابة البرلمانية ، ووقف الزحف الشعبى الذى ظهر جليا في أول برلمان منتخب ، فقد كان برلمان ١٩٢٤ أول مظهر نظامى لبروز سلطة الشعب كقوة مؤثرة في الحكم ، بل القوة الوحيدة التى لها حق الحكم ، الأمر الذى رأى فيه المؤرخون تطورا عميقا دل على أن الشعب نما نموا كبيرا ، واضحى على الرغم من كل القوى التى حاربتة القوة الأولى الملهوية الجانب .

ولكن .. هل كان من الممكن أن يستمر هذا النمو كي يأخذ مداه ، وترسخ به سلطة الشعب ؟ وهل كان من الممكن أن تتواصل قوة الفئات الشعبية مع قوة الزعامة الشامخة التى خرجت من صفوف الفلاحين ممثلة في سعد زغلول ؟ ؟

لقد أجابت الحوادث عن هذا السؤال من خلال أول انقلاب دستورى دبره الملك بايعاز من الانجليز وبالتواطؤ مع كبار ملاك الاراضى الذين حسبوا أنفسهم أصحاب المصالح الحقيقية ثم خذلهم الشعب في الانتخابات .

ووقع الانقلاب الثانى فى العام التالى عندما أجرى احمد زيور باشا الانتخابات العامة بعد مؤامرات واحتياطات وتدخلات أشرف على حبكها قطب الدهاء والديكتاتورية اسماعيل صدقى وزير الداخلية ، وكانت كلها تهدف إلى إبعاد الوفد عن قيادة الأمة ، ثم فوجئ مدبرو الانقلاب بأن المجلس الجديد يضم أغلبية وفدية انتخبت سعد زغلول رئيسا لمجلس النواب ، وتبين أن ذكاء الشعب ودقة تنظيم الوفد يفوقان دهاء صدقى ، ولم يخجل أصحاب الانقلاب الأول من تنفيذ انقلابهم الثانى فاصدر الملك فؤاد مرسوما بحل مجلس النواب بعد تسع ساعات من انعقاده ، واستمرت البلاد تحت حكم وزارة غير شرعية تحكم دون سند دستورى ودون تأييد من الشعب .

أما الانقلاب الثالث فقد وقع فى صيف ١٩٢٨ بعد ثلاثة شهور فقط من تشكيل النحاس باشا وزارته الأولى .. كان الصراع بين الفئات الشعبية بقيادة الوفد والعناصر الارستقراطية برعامة القصر قد بلغ أشده ، ولم يكن هذا الصراع السياسى - فى رأى بعض المحللين التاريخيين - إلا انعكاسا حقيقيا للصراع بين طبقتين على النفوذ :

● طبقة الأعيان من أصحاب الاملاك الواسعة التى تحدث باسمها لطفى السيد فى الجريدة منذ أوائل القرن ، وهى التى تعتقد انها طبقة أصحاب المصالح الحقيقية التى يجب أن يستقر فى يدها الحكم لرعاية هذه المصالح .

● البورجوازية المتوسطة والصغيرة التى نمت فى ظل ثورة ١٩١٩ ، وفى ظل النهضة الاقتصادية التى قامت على يد طلعت حرب وبنك مصر ، وهى الطبقة التى قوامها التجار والشباب المتعلم ومفكرو المدن وموظفو الحكومة وضباط الجيش يؤيدهم الفلاحون والعمال بحكم مصالحهم فى تأييد الوفد ، وكان نضال الوفد من أجل الاستقلال التام والتخلص من الحكم الاجنبى وإصراره على التمسك بحق الانتخاب المباشر ، يتلاقى مع أهداف هذه الطبقة الجماهيرية فى الاشتراك فى الحكم عن طريق النواب .



ونجح التحالف بين القصر وحزب الأعيان (الأحرار

الدستوريين) فى الإطاحة بحكومة النحاس بعد حملة تشهير مبتذلة ، اتخذت من قضية الأمير سيف الدين مادة لتلويث سمعة مصطفى النحاس ، وعهد الملك فؤاد إلى محمد محمود باشا زعيم حزب الأحرار الدستوريين بتشكيل وزارة استهلت حكمها بحل مجلس النواب حتى تنفرد بالشعب ، واطلق محمد محمود على وزارته اسم « اليد الحديدية » اعلنا عن انتهاجه أسلوب العنف فى تاديب الشعب ، وسلكت الوزارة فى ذلك سلوكا شرسا ، فعطلت الصحف الوطنية وحرمت الاجتماعات العامة ، واطلقت الحكم البوليسى ، وانتهكت حرمت البيوت والأفراد ، وفتحت أبواب السجون والمعتقلات لتستقبل حشودا من الأحرار والمناضلين الذين لم يخضعوا لحكم الإرهاب ، وتحرك حزب الوفد حركة منظمة وشعبية عارمة لمكافحة هذا المد الاستبدادى ، ونشطت لجان الوفد فى كل المدن والقرى لتحريك همه الجماهير للوقوف فى وجه « اليد الحديدية » وتحولت نقابات المحامين فى القاهرة والمدن الكبرى إلى بؤرات للاشعاع السياسى ، وامتألت المدارس بلجان الطلبة الوفديين الذين اشعلوا الحمية فى نفوس الجماهير ، وانتشرت العناصر الوفدية فى صفوف العمال بالقاهرة والاسكندرية ، وأسفر هذا عن النشاط الحزبى الجماهيرى عن صحوة شعبية فعالة ، أثبتت لصاحب اليد الحديدية أنه مجرد نمر من ورق .

أكبر رأس في البلاد

لَمْ

تمكث وزارة النحاس الثانية في الحكم أكثر من خمسة شهور ، وتسعة عشر يوما ، تعرضت خلالها للدسائس من جانب القصر وأعوانه أعداء الديمقراطية الألداء الذين لم يؤمنوا بجدوى البرلمان المنتخب من الشعب ، ولم يؤمنوا قط بحق الشعب في أن يحكم نفسه عن طريق حكومة مسئولة أمام البرلمان . وإنما كانوا يؤمنون بحكم « العباقرة » المستبدين الذين يختارهم القصر فيكون ولاؤهم له وليس للشعب .

وكان النحاس باشا يسعى جاهدا للافادة من دروس الماضي الأليم . ويحاول أن يضع الضمانات الدستورية التي تعالج القصور في دستور ١٩٢٣ بما يحول بين الملك فؤاد ومعاودة العبث بالدستور ، بعد أن أسرف هذا الطاغية في استخدام حقه الدستوري في حل مجلس النواب إسرافا مسفا ، لدرجة أنه أقدم على حل المجلس ثلاث مرات خلال أربع سنوات ما بين ١٩٢٤ - ١٩٢٨ ، وكانت المادة ٣٨ من الدستور التي تعطيه حق حل المجلس دون قيد أو شرط ، بمثابة سيف مُضَلَّت على رقبة الحياة النيابية ، وهذا هو السبب الذي من أجله عارض الوفد وضع الدستور عن طريق (لجنة الأشقياء) المعنية بمرسوم ملكي ، وكان من رايه أن يوضع الدستور عن طريق جمعية تأسيسية منتخبة من الشعب حتى يضمن حقوق السيادة الشعبية في مقابل حقوق الملك الاتوقراطية التي أصر صاحب العرش على أن ينضمها مشروع الدستور ، وبها انتقلت السلطة الحقيقية من يد الأمة الى يد الملك ، وقال سعد زغلول يومها انه من الخطر الكبير أن توضع سلطات كبيرة في أيدي الملوك خاصة إذا كانت البلاد تخضع للنفوذ الأجنبي .

وصدقت نبوءة سعد زغلول ، وتحولت السلطات الممنوحة للملك الى سوط يستخدمه الاحتلال الانجليزي في إرهاب الأمة ، كلما لاحظ اشتداد قوة الشعب ونضجه السريع ، ورغبته في أن يكون مصدر السلطات جميعا ، فلما جاء النحاس باشا الى الحكم في أول يناير ١٩٣٠ وفي جعبته هذه المغامرات الملكية المدمرة ،

أراد أن يضع حداً للعبث بالدستور، فوضع مشروع قانون لمحاكمة الوزراء الذين يُقدمون على قلب الدستور أو حذف حكم من أحكامه، أو تغييره، أو تعديله بغير الطريقة التي رسمها الدستور، ولم يكن لمثل هذا المشروع الخطير الذي يقيد الملك، أن يمر من تحت ذقن الاتوقراطي العريق الذي كان يبغض الحكم الدستوري من أعماق قلبه، فعمد إلى عرقلة أعمال الوزارة حتى يضطرها إلى الاستقالة، وأدرك النحاس أن المعركة الدستورية بينه وبين الملك يجب أن تنتقل إلى الشارع السياسي ليكون الشعب حكماً في هذا الصراع الدستوري



ويلاحظ الدكتور عبدالعظيم رمضان في رصده لتطور الحركة الوطنية أن ما فعله النحاس في ١٩٣٠ كان محاولة من الوفد لتلقيح الملك نفس الدرس الذي لقنه إياه سعد زغلول في ١٥ نوفمبر ١٩٢٤ وهو اليوم الذي صاحبت فيه الجماهير في ساحة عابدين صيحتها المشهورة «سعد أو الثورة» ففي ١٧ يونية ١٩٣٠ قدم النحاس باشا إلى الملك فؤاد استقالته «الوحيدة» وسجل فيها الأسباب التي دعت به إلى تقديمها، وهي: عدم تمكنه مع زملائه من تنفيذ البرنامج الذي قطعوا على أنفسهم العهد بتنفيذه، ولم يلبث أن اتبع هذه الخطوة بخطوة أخرى فتوجه إلى مجلس النواب حيث أعلن استقالته بطريقة مؤثرة، وفصل أسبابها بعدم تمكن الوزارة من أن تتقدم إلى البرلمان بمشروع محاكمة الوزراء الذي تقضى به المادة ٦٨ من الدستور، وقد فعلت خطبة النحاس فعلها في نفوس النواب، ووقف الدكتور أحمد ماهر ليطلب من النواب الثقة بالوزارة «حتى تسمع الأمة تأييدهم لصاحب الدولة الرئيسي في موقفه المشرف الذي يعمل به للدفاع عن الحياة النيابية وعن النظام الدستوري للبلاد»، وقوبلت كلمة ماهر بتصفيق حاد، وسادت المجلس روح التأييد بالمحاولات التي تقع من جانب القصر لإرغام النحاس على الاستقالة، وهنا وقف النائب الوفدي عباس محمود العقاد وقال قولته الشهيرة «ألا فليعلم الجميع أن هذا المجلس مستعد أن يسحق أكبر رأس في البلاد من أجل صيانة الدستور وحمانيته».

وفى اليوم التالى احتشدت الجماهير أمام بيت الامة وهى تهتف بحياة النحاس والدستور ، بينما كان الوفد المصرى مجتمعاً الى ساعة متأخرة من الليل ، وعقدت الهيئات والمنظمات الشعبية اجتماعات لتأييد الوزارة ثم خرجت « الاهرام » لتعلن عن اعتزام قيام مظاهرة شعبية ضخمة يوم الجمعة التالى لتطوف بشوارع العاصمة وتذهب الى ساحة عابدين للتهتاف بحياة الدستور ومطالبة الملك بعدم قبول استقالة النحاس .

وأدرك الملك فؤاد خطورة السباق بينه وبين الوفد الذى يتسلح بالجماهير ، ويحركها لإرغامه على رفض استقالة الوزارة ، وأيقن الملك انه سيواجه موقفاً عسيراً شبيهاً بما حدث أيام سعد .. فانقض فى حركة سريعة لإجهاض مخطط الوفد وسارع إلى إصدار أمر ملكى بتكليف اسماعيل صدقى بتشكيل الوزارة فى نفس اليوم الذى صدرت فيه « الاهرام » وفى صدر صفحتها الاولى خبر المظاهرة الشعبية ، وبذلك سلب الجماهير ذريعتها للتحرك الى ساحة عابدين واتخذ من التدابير الامنية والاحتياطات البوليسية ما حال بين الشعب والوصول الى القصر .

وبمجيء اسماعيل صدقى الى الحكم وقع الانقلاب الدستورى الرابع ، وانتقلت البلاد الى عهد بغىض .. ساد فيه الظلام ، وانهدم البرلمان ، وألغى الدستور ، واصطبغ الصراع الدستورى بالدم .

البرلمان في الأغلال

كان

تكليف اسماعيل صدقي باشا بتشكيل الوزارة - عقب استقالة النحاس باشا - نذيرا بدخول البلاد في مرحلة البيات الديمقراطي والانهيار الدستوري ، فقد كان معروفا عن اسماعيل صدقي 'رأيته بالامة ، واستهانته بكل ما يتصل بإرادة الشعب ، ويرى ان عبقريته او كفاءته السياسية تغني عن النظام النيابي كله ، وكان اختيار الملك فؤاد لهذا المستبد الطاغية دليلا على نية الملك في تاديب الشعب وإذلاله عن طريق اساليب البطش والتشكيل التي برع صدقي في انتهاجها وكان له فيها باع طويل . وشكل صدقي وزارته من عناصر عرفت بعداثتها التقليدي للدستور ، واحتقارها للإرادة الشعبية ، وكرهها الموروث للوقد الممثل الشرعي للامة ، وجاء بخليط من السياسيين الذين يفتقرون الى السند الشعبي من امثال علي ماهر وحلمي عيسى وتوفيق دوس وحافظ عفيفي . ورغم كون اسماعيل صدقي من مؤسسي حزب الاحرار الدستوريين ، إلا انه في كتاب تشكيل الوزارة تبرأ من اتصاله بهذا الحزب مدعيا انه س يلتزم بالحيدة السياسية المطلقة ، ويعني ذلك انه انفصل عن حزبه في آخر لحظة ، لا لسبب إلا لكي يؤلف الوزارة . ويعقب الراقعي على هذا التصرف اللاأخلاقي بقوله : « إن الانتساب إلى الأحزاب أو الانفصال عنها عند هؤلاء القوم هو وسيلة إلى الوصول إلى مناصب الوزارة فحسب ، ولا يبعد عن هذا الغرض قيد انملة ، وهذا يعطيك فكرة واضحة عن انحطاط الاخلاق السياسية والشخصية في هذه البيئة من الناس ، وانهم من العوامل الاساسية لفساد الحياة العامة والخاصة في البلاد . » ولم تكن الحيدة التي زعمها صدقي اكثر من الحيدة التي ادعاها الانجليز حيال هذا الانقلاب ، وقد كانوا سنده الحقيقي والمحرزين عليه . وكان من دلائل كذب الادعاء ان صدقي عمد الى اصطناع حزب جديد اطلق عليه اسم (حزب الشعب) وكانما كان الرجل يشعر بعقدة الذنب تجاه الشعب ، فسرق الاسم واطلقه على حزبه المصطنع .. ثم شرع في تنفيذ الخطة المبيتة التي دبرها مع سيده صاحب العرش فاستصدر مرسوما بتأجيل البرلمان لمدة شهر بدءا من ٢١ يونيو ١٩٣٠ دون ان يعرض المرسوم على

مجلس النواب الذى كان من المقرر ان ينعقد بعد ٤٨ ساعة . وتم الاتصال بين ويصا واصف بك رئيس مجلس النواب وعدلى يكن باشا رئيس مجلس الشيوخ واتفق الرئيسان على ان مرسوم التاجيل يجب ان يتلى على المجلسين . وبلغت انباء الاتفاق اسماع صدقى فوقع فى حيص بيص .. وقاده غروره إلى ان يقترح على ويصا واصف موافقته على عرض المرسوم على مجلس النواب بشرط ان يعطيه عهدا بالا يتكلم اى عضو من اعضاء مجلس النواب عقب تلاوة المرسوم ، ولكن ويصا واصف رفض هذا الشرط واعتبره تدخلا من الحكومة فى شئون المجلس وغضا من كرامته ، فبعث صدقى بكتاب عاجل الى رئيس المجلس يحمل لهجة التهديد والوعيد بانه سوف يتخذ الوسائل الرادعة إذا لم تصله موافقة رئيس المجلس قبل الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم المقرر لاجتماع النواب . وللمرة الثانية يتخذ رئيس مجلس النواب موقف الشجاعة فى مخاطبة رئيس الحكومة ، فبعث اليه بخطاب جرىء ابلغه فيه انه ليس من حق الحكومة ان توجه إلى رئيس مجلس النواب مثل هذا الخطاب لما فيه من تدخل السلطة التنفيذية فى ادارة الجلسات التى هى من اختصاص رئيس الجلسة دون سواه .

وما إن تلقى صدقى باشا هذا الخطاب حتى ركب راسه ، واصدر اوامره باغلاق ابواب البرلمان وربطها بالسلاسل الحديدية ، واستدعى فصائل من الجيش فاحاطت بابواب المجلس لمنع النواب والشيوخ من دخوله ، فلما حانت الساعة الثالثة تجمع ممثلو الشعب حول ابواب المجلس بعد ان اخترقوا النطاقات المسلحة ، واخذوا يهتفون بحياة الدستور وسقوط الطغیان والاستبداد ، ومن المؤكد ان هذه الهتافات النارية خرقت آذان رئيس الوزراء الذى كان يتوارى فى مقعده بمبنى مجلس الوزراء المقابل لمبنى مجلس الشعب . ومن المحتمل انه قام الى النافذة فشاهد ويصا واصف وهو يامر حراس المجلس بتحطيم الاغلال ، ولم يكن امامهم إلا ان يستجيبوا ، فانهاؤا بالبلط على السلاسل حتى كسروها وفتحت الابواب وتدفق النواب على القاعة بينما اخذ الشيوخ سبيلهم الى مجلسهم واقسم الجميع يمين الولاء للدستور ، واستنكروا ما ارتكبته الحكومة باغلاقها ابواب

البرلمان ، وإحضارها جنود القوات المسلحة لمنع الشيوخ والنواب من ممارسة حقوقهم الدستورية ، ووقف عدلى يكن - سليل الأرستقراطية - موقفا مشرفا كشف عن معدنه الاصيل وانحيازه إلى جانب الحق والعدل على حساب صداقته القديمة لإسماعيل صدقى ، فبعث اليه برسالة احتجاج على أعماله المنافية للدستور ، وكان لهذا الاحتجاج اثره فى إبراز العدوان الذى ارتكبه رئيس الوزراء ، وانتهى هذا اليوم التاريخى بانتصار ارادة الشعب واندحار قوة الطغيان ، ولكن فات نواب الشعب ان يطلبوا من الحكومة ان تتقدم اليهم بطلب الثقة كما ينص الدستور ، وهذا هو الخطا الذى وقع فيه الوفد فى غمرة الهرج والمرج اللذين سادا البرلمان ، فقد كان باستطاعة الاغلبية البرلمانية ان تمارس حقها الدستورى فى حجب الثقة عن الوزارة .. وعندها تضع الملك ورئيس وزرائه فى موقف حرج .. واستدراكا لهذا الموقف رأى الوفد ان ينقل المعركة من البرلمان المعطل إلى الشارع الذى كان يموج بالغليان والثورة .

مذبحة في المنصورة

كان

يوم تحطيم السلاسل بداية معركة حامية الوطيس بين الوفد وحكومة اسماعيل صدقي التي كشفت عن نواياها في حكم البلاد حكما مطلقا ظهرت بوادره في تعطيل البرلمان واعتزام إلغاء قانون الانتخابات ودستور ١٩٢٣ وتفصيل دستور جديد ينتقص من حقوق الشعب ويضعف من مبدأ السيادة الشعبية الذي ظهر جليا اثناء حكومات سعد زغلول ومصطفى النحاس . وكعادة الوفد في الاحتكام إلى الأمة قررت قيادته النزول إلى الجماهير لتتولى بنفسها الدفاع عن حقوقها المعرضة للضياع .

وتحدد يوم ٨ يوليو لزيارة يقوم بها النحاس باشا لمدينة المنصورة ، وبدأت الجماهير تستعد لاستقبال الزعيم فاتفقت لجنة الوفد العامة بالدقهلية مع شركة سكة حديد الدلتا على تاجير قطار خاص يستقله النحاس مع اقطاب الوفد من بنها إلى المنصورة حتى يتاح لأهل القرى لقاء الزعيم ، وتقرر ان يتناول النحاس طعام الغداء في منزل محمد بك الشناوى رئيس لجنة الوفد العامة بالدقهلية ، ثم يلتقى ولجان الوفد في منزل محمود بك نصير ، وادركت حكومة صدقي ما سوف تسفر عنه هذه اللقاءات الجماهيرية من قوة شعبية تقلب خطة الحكومة رأسا على عقب ، فقررت إلغاء مادية الغداء والاجتماع ، بحجة ان الاجتماعات العامة ممنوعة ، فاحتجت لجنة الوفد على هذا الاجراء ، وبعث الشناوى بك إلى مدير الدقهلية يبلغه ان وصف الاجتماعات العامة لا ينطبق على الاجتماع المزمع عقده لأن المدعويين اليه سيجملون دعوة شخصية وان الاجتماع سيعقد سواء قبلت الحكومة او رفضت ، وانه يحمل الادارة تبعة ما يحدث من جراء التعرض للحريات العامة التي كفلها الدستور .

وتراجعت الحكومة فوافقت على اقامة وليمة الغداء ولكنها قررت منع الوفد من السفر عن طريق قطار الدلتا او بالسيارة . وسمحت له بالسفر عن طريق قطار السكة الحديد الحكومية ، وتنفيذا لذلك امرت شركة الدلتا فسحبت موافقتها على تاجير القطار المخصوص وفتحت الحكومة كل الكبارى التي تقع في الطريق من بنها إلى المنصورة حتى لا يسافر الوفد بالسيارات

وأصدر مدير الدقهلية أوامره إلى رجال الإدارة بإزالة كل مظاهر الحفاوة التي اقيمت في مدينة المنصورة . وطلب من محمود نصير بك إزالة السرادق الذي أقامه في بيته فرفض ، وانتشر عساكر البوليس يهدمون الأقواس والزينات التي أقامها الأهالي في عرض الشوارع ولكنهم لم يتمكنوا من إزالة الزينات التي أقامها التجار على واجهات محلاتهم . وأخذت قوات الجيش والبوليس تتوافد على المنصورة حتى باتت المدينة في ليلة الزيارة كأنها ميدان حرب يغص بالجنود المسلحين بمختلف أنواع الأسلحة . ونشرت مديرية الدقهلية « إعلان تحذير للجمهور » هددت فيه باستعمال القوة لمن يجرؤ على مخالفة أوامرها .

عندئذ اجتمعت لجنة الوفد وأذاعت نداء أعلنت فيه أن تعرض الإدارة للاجتماع يتعارض مع مبادئ الدستور وقانون الاجتماعات ، وخاطبت الأهالي قائلة « لا يرهقنكم تحذير الإدارة وتهديدها لأنه تهديد أجوف لا تستطيع تنفيذه وهو مخالف للقانون مخالفة صارخة » .



ولم تتردد حكومة صدقي في استعمال كل وسيلة تحول بين الشعب وزعيمه وتفسد الاستقبال المنتظر ، فأمرت بفتح جميع الكبارى المحيطة بالمنصورة حتى تمنع تدفق أهالي القرى إليها ، وغمرت شوارع المدينة بالزفت والقطران لتعويق المرور فيها ، وأصدرت تعليماتها إلى العمدة لمنع الأهالي من الخروج من قراهم ، وقررت البلدية قطع التيار الكهربائي عن السرادق والزينات المقامة على واجهات المنازل ، فاجتمع أعضاء المجلس البلدى - وطنيين وأجانب - وذهبوا إلى المدير محتجين فوافق على إقامة مولد كهربائي خاص لتغذية السرادق بالتيار ومد توصيلة إلى منزل الشناوى بك .

وأراد الوفد أن ينتزع من الحكومة آخر سلاح تستغله لمنع الزيارة فقبل السفر عن طريق سكة حديد الحكومة ، وعلمت الجماهير بتغيير خطة السفر فانتقلت الحشود إلى المحطات الواقعة ما بين بنها وطنطا والمحلة وسمنود والمنصورة ، وخرج الفلاحون والعمال من مزارع والمصانع يهتفون للنحاس وللدستور وخماته ، وجاء خط الرحلة أطول من الخط السابق ، مما أتاح

للووفد لقاء حشود أكثر ، وجماهير أضخم . وجاءت النتيجة في مصلحة الوفد حيث أرادت الحكومة العكس ، ودخل القطار محطة المنصورة ، فاستقبله على الرصيف حشد كبير من الأعيان وأعضاء لجان الوفد فأرادوا حمل الزعيم على أعناقهم ولكنه أبى ، وتقدمهم الى الباب الخارجى للمحطة ، وأطل النحاس على الميدان الفسيح وقد تحول الى ثكنة حربية تزدهم بجنود السوارى ، وقد وضعوا خوذاتهم على رؤوسهم وسدوا منافذ الطرق حتى يحولوا بين الزعيم وجماهيره ، ومرت سيارة النحاس فى المسار المتفق عليه بين الوفد والادارة ، واجتازت السيارة النطاق العسكرى الأول ثم الثانى ، فلما اشرفت على اجتياز النطاق العسكرى الثالث وقعت المذبحة .

مروءة نادرة

تحرّكت سيارة الزعيم الجليل مصطفى النحاس فى المنصورة وسط حشد كثيف من جنود الجيش ، والبوليس المسلحين بالبندق المزودة بالحراپ (السناكى) بينما وقفت الجماهير عند أفواء الطرق المؤدية إلى شارع البحر فى انتظار موكب الزعيم . وجلس إلى يمين النحاس محمد نجيب الغرابلى باشا ، وإلى يساره سينوت حنا بك وعلى الجمل بك الذى انتدبته لجنة الوفد ليكون حلقة الاتصال بين الوفد والسلطات . وقد طلب منه رجال السلطة أن يجلس فى سيارة النحاس تمييزا لها على بقية السيارات .

وكان سينوت حنا بك يشعر فى قرارة نفسه منذ غادر القاهرة صباحا بأن الرحلة لن تمر بسلام ، وأن حكومة صدقى لن تتورع عن تدبير خطة دنيئة لاغتيال النحاس باشا أثناء طوافه بشوارع المنصورة . وأسر سينوت حنا بما يخالج نفسه من هواجس وشكوك إلى صديقه محمد حامد جودة بك . واتفق الصديقان على أن يلاصقا الزعيم طوال الرحلة حتى يفتدياه بروحيهما إذا تعرض لمكروه . فلما نزل النحاس هو وصحبه من محطة المنصورة ، أسرع سينوت حنا إلى السيارة المخصصة للنحاس ، وجلس فيها فى انتظار وصول الزعيم إليها ، أما حامد جودة فقد فرق الزحام بينه وبين النحاس ، ولم يتمكن من مصاحبته فى السيارة . وتحركت السيارة من الميدان فأخترقت النطاق العسكرى الأول .. ثم الثانى .. وما إن اشرفت على شارع البحر حتى اطبق عليها حشد من الجنود حاملى الحراپ . ولمح سينوت حنا أحدهم يسدد الحربة إلى صدر النحاس ، فما كان من سينوت إلا أن برز بصدره ليهدى الزعيم ، ويتلقى الطعنة القاتلة .. فأنفردت فى كتفه .. وانكسر نصلها فى لحمه .. وسالت دماؤه الزكية على ملابس الزعيم .. وتقدم جندى آخر ليسدد طعنة أخرى فتلقاها على الفدى الموجى .. وفى نفس اللحظة انهمرت الحجارة والطوب والزجاجات المعبأة بالرمل على موكب الوفد من منازل أعضاء حزب الأحرار الدستوريين .. وهجمت الجماهير العزلاء تفدى الزعيم بارواحها .. وحدث الصدام الدموى بينهم وبين رجال

الجيش والبوليس المدججين بالسلاح .. وانهارت الطعنات المسمومة على اجساد الاهالى فقتل اربعة منهم فى مقابل ثلاثة جنود ، اما عدد الجرحى والمصابين فقد بلغ ١٤٥ شخصا .



واسفرت المجزرة التى دبرها صدقى باشا عن هذه النتيجة المؤسفة . وتبين ان الحكومة كانت تدبر للمذبحة منذ وقت طويل وعهدت بالمهمة إلى احد ضباط الجيش من ذوى السوابق فى الاعتداء على الشعب واسمه الاميرالائى عبد العظيم بك على . وقد كافاته الحكومة على إدارته لمجزرة المنصورة بنجاح وامرت بترقيته إلى رتبة لواء بصفة استثنائية ، وفى نفس الوقت عاقبت الصاغ محمد امين لأنه سعى إلى حقن الدماء وأبى استعمال القوة ضد أبناء وطنه فاحالته الى الاستبداد ، وكانت الترقية والعقوبة تهدفان إلى إغراء رجال الجيش والبوليس كى لا يترددوا فى التكنيل بالشعب وتجنب الرفق بالاهالى العزل ..

وماكدت انباء مجزرة المنصورة تذاق فى انحاء البلاد حتى هبت الجماهير للتعبير عن سخطها على حكومة صدقى . واندلعت المظاهرات فى طنطا وبورسعيد والاسماعيلية والسويس والاسكندرية ، وتساقط الشهداء تحت وابل الرصاص الذى كان الجنود يطلقونه بلا رحمة او شفقة ، حتى بلغ عدد القتلى فى الاسكندرية وحدها عشرين شهيدا فضلا عن ٥٠٠ جريح غصت بهم المستشفيات ، وقبض البوليس على بعض اعضاء لجنة الوفد بالاسكندرية وهم : الاساتذة عبد الفتاح الطويل وحسن سرور والدكتور احمد عبد السلام .

اما فى المنصورة فقد خرج مائة الف من ابناء الدقهلية والمديريات المجاورة لتشييع جنازة الشهداء الذين سقطوا فى المجزرة . ولم تسلم الجنازة من اعتداء البوليس عليها بالكرايخ والعصى الغليظة ، وقبض على الكثيرين حيث اودعوا السجون ، وهم يهتفون بحياة الدستور وسقوط الدكتاتورية والاستبداد . وارادت بعض المدن ان تظهر شعورها بتحية الشهداء إجلالا لهم وتقديرا للتضحيات التى قدموها . فسارت الجنازات الصامتة فى شبين الكوم وسوهاج ومغاغة وكفر الزيات وامبابة وطنطا .. وحاولت السلطات ان تفرق المحتظنين الصامتين وان تعمدى على

الحرمت المقدسة الأمر الذى كشف عن فظاعة اسماعيل صدقى ،
وتحجر عواطفه ، وخلو قلبه من أبسط المشاعر الإنسانية .



أما البطل الجريح سينوت حنا فقد عاد إلى القاهرة حيث
أجريت له عملية جراحية لاستخراج الشظية المكسورة في كتفه ،
وتحولت داره القابعة على شط النيل بالجيزة إلى قبلة يرتادها
الوطنيون من جميع أنحاء البلاد للاطمئنان على صحته ، والتعبير
عن غبطتهم للدور البطولى الذى قام به فى صمت ، وكشف فيه عن
معدنه النادر ونفسه الابية ، ولكن تأثير الطعنة المسمومة كان
أكبر من جهود الأطباء ودعوات المخلصين ، فصعدت روحه
الوثابة إلى بارئها ، ومضى إلى ربه راضيا مرضيا ، وبقيت قصته
رمزا حيا على الشجاعة .. والمروءة .. والتضحية .. والتلاحم
المقدس بين أبناء مصر الخالدة .

المجاهد الزاهد

كان سينوت حنا من طليعة الاقباط الذين لبوا نداء الثورة الوطنية عام ١٩١٩ ووقفوا إلى جوار سعد زغلول في حماس حار ، وإيمان صادق بوحدة الألم والمصير بين المسلمين والاقباط ، وعندما اعتقل سعد زغلول للمرة الثانية في آخر ديسمبر ١٩٢١ ، كان سينوت أحد الرفاق الخمسة الذين صحبوه إلى المنفى في سيشل مع مصطفى النحاس ومكرم عبيد وفتح الله بركات وإخيه عاطف ، ويقال ان سعدا عندما بارح بيت الأمة في طريقة الى المجهول كان شديد التأثر ، بادی الألم ، فلما أقلعت به السفينة من السويس صعد الى ظهرها وحوله الصحاب ، فوضع يدا على كتف مصطفى النحاس ، ويذا على كتف سينوت حنا ثم ابتسم قائلاً : مع ابنائى لا اشعر بالمنفى .. كان الله فى عون ابنائى الذين تركتهم فى مصر .



كان هذا الجيل من شباب الاقباط قد اكتوى بنار الفرقة التي أشعلها الانجليز بين المسلمين والاقباط بعد حادث دنشواى ، ولكن جهود هؤلاء الشباب لتطويق الأزمة كانت اضعف من حماسة المتطرفين الذين أصروا على عقد مؤتمر للاقباط فى اسبوط ، وتم لهم ما أرادوا .. وعقد المؤتمر فى الأسبوع الأول من مارس ١٩١٠ برئاسة بشرى حنا الشقيق الأكبر لسينوت حنا .. وتكلم المتحمسون وخطب المتطرفون .. وفى النهاية تغلبت روح العقل والحكمة .. وانتهى المؤتمر دون أن يمس الحقيقة الخالدة التي جعلت من مصر اما عطوفا على ابنائها جميعا مسلمين واقباطا .. وعلى الجانب الآخر تحمس المسلمون وعقدوا مؤتمرا شبيها فى مصر الجديدة برئاسة رياض باشا فى أبريل ١٩١١ وتكلم الخطباء والشعراء .. واصر هذا الرعيل المستنير من شباب الاقباط - سينوت حنا وواصف غالى وجورج خياط وويصا واصف ونجيب إسكندر - على حضور المؤتمر الاسلامي تأكيدا لمعنى الوحدة ، واستنكارا لوصمة الشقاق بين أبناء الوطن ، وانتهى المؤتمر كما انتهى سابقه .. وقد زالت الغشاوة عن عيون الغافلين فى الجانبين ، وتفتحت على عمق الهاوية التي يحفرها العدو

المشترك لتثبيت أقدامه في مصر ، وتأكد للجميع انه لا أمل لهم في البقاء أو الوجود بغير استمرارهم على الحالة التي وجدوا انفسهم عليها منذ آلاف السنين .

وجاءت سنوات الحرب العالمية الاولى بما صاحبها من قهر وظلم وسخرة لتؤكد بدهاء المصير المشترك في نفوس المسلمين والاقباط ، واخذوا يتطلعون الى اليوم الذي يتخلصون فيه من كابوس الاحتلال الذي امتص قواهم ونهب ثرواتهم واذل كرامتهم ، فلما اندلعت الثورة تولد الأمل الذي انتظروه طويلا وانخرط سينوت حنا في اتون الثورة مضحيا بماله الوفير وشبابه الغض دون انتظار لثمن .. او ترقب لمنصب .. بينما وقف اخوه بشرى مترددا .. خائفا من مخاطر الثورة على ضياع أسرته التي كانت تشغل مساحات واسعة من مديرتى بنى سويف والفيوم .



يقدم العالم المؤرخ الدكتور حسين مؤنس لقطة رائعة من حياة المجاهد الزاهد سينوت حنا نقلا عن الدكتور جورجى صبحى الذى كان يجمع بين مهنة الطب ودراسة تاريخ مصر القديم وكان يحسن اللغة القبطية ويقرأ الهيروغليفية ، وكان يلقي دروسا فى التاريخ على طلبة معهد الآثار المصرية . يقول الدكتور مؤنس : « سألته ذات ليلة ونحن منصرفون من المعهد فى طريقنا الى ميدان التحرير :

- هل صحيح ان بشرى حنا شقيق سينوت حنا ؟
- نعم كان بشرى هو الأخ الأكبر ، وكان غير راض عن الاتجاه الوطنى المتطرف الذى سار فيه سينوت . وقد عاتب بشرى اخاه سينوت الذى كان شديد الحماسة لمؤتمر مصالحه المسلمين والاقباط الذى عقد فى مصر الجديدة ، وكان بشرى يخالف على مركز العائلة وثروتها من الاتجاه الوطنى المتطرف فقلل لآخيه يوما :

- اذا اصررت على سلوك هذا السبيل فستسجن وتعذب ، وربما نفوك من البلد كما نفوا عرابى ..

فقال سينوت ، وكان شابا يتميز بالحياء والادب الشديدين :
- ياأخى بشرى لا تخف على . إننى أسعى فى الحصول على استقلال مصر وإخراج الانجليز منها . لأن هذا هو الضمان الوحيد

لسلامتنا جميعا أقباطا ومسلمين . أنت تظن أن الانجليز يحرسون أموالنا ويحمون حقوقنا نحن الأقباط .. هذا خطأ .. إنهم لا يحمون إلا أنفسهم . وهانت ذنا تراهم يستكثرون من نصارى الشوام ويعتمدون عليهم دوننا ، وانظر عنايتهم بالاروام (اليونان) والأرمن والمالطيين ! أنت تعرف أن الحكومة الانجليزية هي التي بنت من مالها كنيسة الروم وكنيسة الأرمن في القاهرة ، وهم يمولون المستشفى الاسرائيلي .. فهل ساهموا بقرش في بناء كنيسة قبطية ؟ انهم ياأخي أعداء المصريين جميعا ، أملنا الوحيد هو أن نظل متحدين مع إخواننا المسلمين ، فنحن وهم دائمون في هذا البلد ، وما عدانا زائل .. هذا هو الأمان الوحيد لي ولك ولأموالك التي تخاف عليها » ..

ثم يستطرد الدكتور جورجى صبحى قائلا : « وبعد ذلك بسنوات وبعد أن اجتمعت كلمة المسلمين والأقباط تحت زعامة سعد ، وبدأت دعائم الاحتلال تتزعزع ، وأصبح سينوت الى جانب سعد وأصحابه من رجال مصر وأبطالها ، وصل بشرى ذات يوم الى الفيوم في زيارة عمل فوجد مظاهرة في انتظاره ، وحمله الناس على اكتافهم ، لمجرد أنه أخو سينوت .. وعندما التقى مع أخيه بعد ذلك بأيام قال له : كنت أنت على حق ياأخي .. لا تتصور كيف يستقبلني الناس الآن في الفيوم .. قبل ذلك ، وفي أيام أزمنا مع إخواننا ، كنت اطلب من الحكماء أن يرسل معي حرسا .. لقد مضى ذلك والحمد لله » ..



هذا هو سينوت حنا .. المجاهد الزاهد الذى عاش الثورة بكل عنفوانها .. وعاش ما بعد الثورة دون أن يطمع في منصب أو جاه أو نفوذ .. وكان استشهاده في المنصورة خير مثل على نزاهته ومروءته وعطائه النبيل .

الصيف الساخن

كان صيف ١٩٣٠ صيفا تصاعدت فيه حدة المواجهة بين الوفد وحكومة اسماعيل صدقي بعد الأحداث الدامية التي وقعت في المنصورة وغيرها من مدن القطر ، كانت خطة اسماعيل صدقي « الضرب في المليان » ، وقمع كل أشكال الاحتجاج عن طريق العنف وإراقة الدماء . وكانت خطة الوفد المضى في طريق الصمود مهما كانت التضحيات . كان الوفد يتحرك من احساسه بالخطر المبيت لإجهاض المرحلة الدستورية التي لم يمض عليها أكثر من سبع سنوات حُل فيها البرلمان أربع مرات بمقتضى النص الذى أصر الملك فؤاد على أن يتضمنه مشروع الدستور ، ويعطيه حق حل البرلمان دون قيد أو شرط ، ونتج عنه ان فترة تعطيل الحياة النيابية كانت أطول من فترة عملها ، وكان الوفد يرى أن المعركة الدستورية لا تقل أهمية عن المعركة الوطنية وتستحق مثلها شرف التضحية ، لأن الاعتداء على الدستور هو اعتداء على الحقوق الشعبية التي برزت لأول مرة في التاريخ الحديث ، وأن على الشعب أن يهب لاستخلاص هذه الحقوق قبل أن تتحقق خطة الملك في تفصيل دستور جديد على مفاسه يحقق اطماعه الدكتاتورية .

ومضى الملك في طريق الشوك مستغلا النزعة الاستبدادية المتأصلة في نفس صدقي وكراهيته المقيتة للشعب ، وتلاقت إرادة الرجلين على تنفيذ خطة رجعية تعود بالبلاد الى صيغة الحكم المطلق التي كانت سائدة قبل دستور ١٩٢٣ ، وكانت الخطوة الأولى فض الدورة البرلمانية حتى لا تواجه الحكومة البرلمان الذى كان من المقرر أن يجتمع يوم ٢ يوليو بعد انتهاء مهلة الشهر التي تعطل فيها ، وكان قرار فض الدورة مخالفة صريحة لنص الدستور الذى يقضى بعدم فض المجلس قبل إقرار الميزانية العامة ، ولكن صدقي لم يابه بهذه الاعتراضات الفقهية لأنه كان ينوى ما هو أخطر من ذلك وهو حل البرلمان وإلغاء الدستور ذاته .

وقرر أعضاء البرلمان أن يجتمعوا في اليوم الاخير من المهلة لحجب الثقة عن الحكومة ، ولكن صدقي لم يترك الفرصة لتكرار ما

حدث يوم تحطيم السلاسل ، فأمر بطرد قوة حرس البرلمان وجاء بقوات هائلة من الجيش احتلت كل أركان المبنى وجلس الجنود فوق سطح البرلمان فى وضع استعداد لإطلاق النار على أى شخص يقترب من المبنى ، وأذاع صدقى على الشعب إنذارا بضرب النار على أى شبح يقترب من المنطقة المحيطة بالبرلمان . واحتج عدلى يكن باشا رئيس مجلس الشيوخ على هذا الاعتداء الهمجى من جانب الحكومة ، وفعل نفس الشيء عبد السلام فهمى جمعة بك وكيل مجلس النواب . وقرر أعضاء المجلسين عقد اجتماعهم فى مبنى النادى السعدى (مقر حزب الوفد) حيث أعلنوا عدم ثقتهم بالحكومة وسجلوا عدوانها السافر على الحياة البرلمانية ، وفى نفس الوقت أصدرت بعض مجالس المديريات (الغربية والبحيرة) بيانا استنكرت فيه تصرف حكومة صدقى فأمر بحلها بحجة (أنها تتدخل فى مسائل خارجة عن اختصاصها) .



وكان من شأن هذه الأساليب البربرية التى انتهجها صدقى باشا فى العبث بالدستور والنظام البرلمانى .. أن أشعلت رغبة الانتقام فى نفوس الشباب الذين رأوا بأعينهم ملك البلاد ورئيس وزرائه يتآمران على سلطات الشعب الدستورية ، وارتفعت نبرة العنف ومحاولات الاغتيالات السياسية بعد أن توقفت منذ حادث السردار ، وبينما كان صدقى باشا عائدا بالقطار من الاسكندرية يوم ٢٥ أغسطس ضابطوا شابا يتخفى فى زى عمال عربية البولمان ويخفى فى طيات ملابس بلطه حادة لذيبح رئيس الوزراء . وتبين ان الشاب - وكان سودانيا - من خريجى كلية غوردون بالسودان ويعمل موظفا بهندسة السكة الحديدية واسمه حسن محمد طه نجل محمد طه بك عضو مجلس النواب عن مركز الدر ، وقد حوكم الشاب بتهمة الشروع فى قتل صدقى فحكم عليه بالسجن سبع سنوات ولكنه مات بعد سنتين فى السجن .

وفى يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٣٠ بلغت خطة الملك منتهاها ، فأصدر امرا ملكيا بالغاء دستور ١٩٢٣ وإعلان دستور جديد ينقل إليه كل السلطات التى كانت مكفولة للشعب . ويجعل من الحكومة العوبة فى يد الملك أو بمعنى اصح ستارا يغطى استبداده بالحكم ، ولم تخف هذه الحقيقة عن الدوائر الأجنبية فقالت صحيفة الديلى ميل : معنى هذا أن الحكومة تكون حكومة السراى ! وان الحكومة

هي الملك نفسه ! وستكون نتيجة ذلك نقل السيطرة البرلمانية من
الوفديين المتطرفين المضادين لبريطانيا - الى الملك الذي يتسنى
له الآن ان يحكم البلاد حكما مطلقا .



ومن الطريف ان الملك فؤاد لم يقسم على احترام الدستور
الجديد كما تقضى التقاليد الدستورية حتى لا يقع فى خطيئة
الحنث باليمين الاولى التى اقسمها على احترام دستور ١٩٢٣ ،
وهو فى نفس الوقت لا يستطيع التحلل من هذا القسم من حيث ان
الدستور (عقد) بينه وبين الامة . ومن ثم لا يحق له ان يفسخ من
جانبه هذا التعاقد الرسمى العلنى ..
وفى هذا الجو القاتم المترع بدماء الضحايا .. والمشيع بفنون
التزييف والحيل والمغامرات .. ولد دستور ١٩٣٠ ولادة ميتة .

على رصيف بنى سويف

فى

أرشيف الصحف القومية صورة شهيرة للزعيم مصطفى النحاس وهو ينام فوق « دكة » خشبية على رصيف محطة بنى سويف . ولهذه الصورة قصة أروىها للجيل الجديد ، كى يعرف حجم التضحيات التى بذلها زعماء الوطنية المصرية من أجل حرية الشعب ، وصيانة الحقوق العامة التى حصل عليها بمقتضى دستور ١٩٢٣ ، ثم راق لبعض الطغاة أن يعصفوا بهذه الحقوق ظنا منهم أن الشعب غير قادر على استيعابها .

ففى عام ١٩٣١ كان اسماعيل باشا لايزال يحكم البلاد بالحديد والنار بعد أن ألغى دستور الشعب .. ورأى الوفد أن السكوت سيؤدى بالبلاد إلى كارثة ، ويعود بها إلى عصر الحكم المطلق ، وينسف الحقوق الدستورية التى حصل عليها بعد كفاح مرير .. ولما كانت وسائل الاتصال بال جماهير قد تقطعت ، فقد رأى الوفد أن ينزل إلى الناس ليحثهم على مقاطعة الانتخابات التى أراد صدق أن يتخذ منها أداة لتزييف إرادة الأمة ، وإسباغ الصبغة الشرعية على حكمه الارهابى ، وإظهار نفسه بمظهر الحاكم الديمقراطى الذى يحكم باسم الشعب !!..

وتحالف الأحرار الدستوريون مع الوفد فى الكفاح من أجل سيادة الأمة ، وانقلبوا على صديقهم القديم بعد أن تبين لهم عمق الهاوية التى يحفرها للنظام الدستورى . واختار النحاس باشا مدينة بنى سويف - أحد معاقل الوفد العريقة - لتكون أول محطة فى مشواره الطويل الشاق .. وركب النحاس ورفاقه قطار الصعيد فى إبريل ١٩٣١ ، ولكن ما أن هبطوا محطة بنى سويف حتى وجدوها أشبه بثكنة عسكرية ، وإذا بقوات مدججة بالسلاح تحيط بهم وتحول بينهم وبين الحركة .. بينما كانت الجماهير تزحف نحو المحطة بعد أن علمت بوجود النحاس ، ففوجئوا بالمصفحات تحيط بمبنى المحطة إحاطة السوار بالمعصم !!..

كان المشهد رهيبا .. مهيبا ..

فلا الزعيم ورفاقه يستطيعون الخروج من المحطة .. ولا الجماهير تستطيع دخولها .. ولا يسمع فى الميدان سوى هدير الناس تتخلله طلقات الرصاص .

ومرت ١٢ ساعة من الساعات الخالدة فى تاريخ هذه الامة وكفاحها البطولى من أجل الحرية ، واستخلاص حقوقها من براثن الطغاة .. واضطر النحاس ورفاقه إلى النوم على الدك المتناثرة فوق الرصيف ، حتى إذا لاح القطار المتجه إلى القاهرة ، تقدمت فرقة من الجيش وحملت النحاس ورفاقه قسرا .. ووضعوهم داخل القطار الذى عاد بهم إلى القاهرة بينما جماهير بنى سويف تغلى غيظا .. وكمدا .. وعاد الزعماء إلى بيوتهم مرهقين .. مجهدين .. ولكن همهم لم تفتر .. وحماسهم لم يخمد .. وقرروا استمرار كفاحهم والاتصال مباشرة بجماهير الشعب .

ففى يوم ٢ مايو ١٩٣١ قرر النحاس باشا ومعه محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين السفر بالقطار إلى طنطا ومعهم حشد من أقطاب الحزبين ، ونجح الوفد فى اختراق نطاق البوليس الذى كان يحاصر ابواب محطة مصر ، فلما استقروا داخل القطار تفنق ذهن صدقى باشا عن حيلة لا تخطر إلا على بال كتاب القصص البوليسية ، فقد أمر مدير مصلحة السكة الحديدية بأجراء مناورة كان من نتيجتها فصل العربات التى يجلس فيها الزعماء عن بقية عربات القطار ، ثم جاءت قاطرة خاصة فسحبت العربات واتجهت بها إلى طريق صحراء العباسية الذى يلتف حول القاهرة باتجاه حلوان حتى توقفت بهم وسط الصحراء ، وتسامع أهل القاهرة بما جرى فأنطلق بعضهم يحمل الماء والزاد إلى الزعماء المنفيين فى العراء . حتى إذا جن الليل تحرك القطار نحو محطة المعسكر - قرب طرة - وجاءت فرقة مسلحة واجبرت الزعماء على مغادرة العربات طوعا أو كرها !!..

ولم تلب قناة مصطفى النحاس .. فقد كان العناد والصلابة من أبرز صفات هذا الرجل العظيم . وفى اليوم التالى كان وفد المقاومة يستقل السيارات - فى غفلة من السلطة - نحو بنى سويف للمرة الثانية ، وما إن استقر النحاس باشا ورفاقه فى بيت رئيس لجنة الوفد حتى انطلقت الجموع كالطوفان تحيط بالبيت وهى تهتف بسقوط الطغيان والاستبداد ، ولم يتراجع صدقى باشا عن المضى فى خطته الدموية فأمر قوات الحكومة المسلحة بإطلاق النار على الجماهير فقتل سبعة شهداء وجرح المئات . وانتهى اليوم بإعادة النحاس باشا ورفاقه مخفورين إلى محكمة مصر بباب الخلق لمحاكمتهم .

ولم تضيع دماء الشهداء سدى ..
ولم يذهب كفاح الوفد من أجل الحرية والدستور هباء .. وادرك
الشعب حجم التضحية التي يبذلها النحاس كي يعود للشعب
دستوره ولا يتحكم فيه الطغاة ، فلما كان يوم الانتخابات قاطعها
الشعب مقاطعة أعادت إلى الأذهان ذكريات ثورة ١٩١٩ ، وبينما
خلت لجان التصويت من الناخبين انطلقت جموع الشعب تهتف
بسقوط المزيفين ، وسقط عشرات القتلى ومئات الجرحى ، ومع
ذلك لم يخجل صدقي من أن يعلن نتيجة الانتخابات - بعد موعدها
ببومين - فيزعم أن نسبة الذين أدلوا بأصواتهم كانت ٦٧/٨ %
فكان أول من ابتدع هذا اللون من الفساد السياسى فى تاريخ
الانتخابات المصرية ، وكان الشعب يبتسم ساخرا وهو يستمع
إلى هذه الأرقام ، وظل الشعب يواصل كفاحه الشريف - بزعامة
النحاس - حتى نجح فى إسقاط دستور صدقي وإعادة دستور
الشعب .

فماذا كان حكم التاريخ ؟..
لقد وُضع اسماعيل صدقي - رغم ذكائه وعلمه ودهائه - فى
لائحة الساسة المكروهين أعداء الشعب والديمقراطية ، وبقي
اسم مصطفى النحاس فى سجل الخلود ، حارساً للديمقراطية ،
امينا على حقوق الشعب ، طاهر اليد والقلب حتى النفس
الأخير .. وما أصدق الذين هتفوا له يوم مماته : عشت فقيرا ..
ومت كريما ..

أكذوبة رخيصة

بشخصية الزعيم الجليل مصطفى النحاس الفة روحية وروابط نفسية وعقلية ليست وليدة الانتماء الحزبى أو الولاء السياسى ، ولكنه حصيلة المعاناة والبحث والتنقيب فى تلك الحقبة



الخصبة من تاريخ مصر ، التى أفرزت كما هائلا من رجال السياسة والحكم ، وكما نادرا من ذوى العظمة الحقيقية ، وأصحاب البطولات الصادقة .

واجتلاء جوانب العظمة فى شخصية مصطفى النحاس امر حيوى ومطلوب فى هذا العصر الذى اختلت فيه القيم ، واختلطت المفاهيم ، واضطربت المقاييس ، حتى بات الناس فى حيرة من امرهم .. لا يميزون بين العظمة الحقيقية ، والعظمة المزيفة .. بل أصبح حديث العظمة نفسه حديثا بغیضا إلى عامة الناس ، ظنا منهم أن المساواة التى شاعت فى عصرنا قد أزاحت العظماء عن عليائهم ، واطاحت بهم إلى مهاوى النسيان ، وأصبح تلويث العظماء وتلطیح سيرتهم متعة رخيصة عند ذوى النفوس الضعيفة . انظر اليهم وقد تعمدوا نسيان تاريخ (النحاس) وكفاحه العريض ثم توقفوا امام اكذوبة تقول انه قبل يد الملك فاروق .. ولقد أعجبني وصف الدكتور رفعت السعيد لهذه الاكذوبة بأنها من نسج اناس عاشوا حياتهم ، وصعدوا ، أو بالدقة هبطوا من أجل تقبيل حذاء كل حاكم وكل طاغية . ثم يعقب على هذه الفرية قائلا : ان علم التاريخ يابى ان يرصد حادثة عارضة - حتى لو كانت صادقة - لتقييم تراث متكامل ، وتاريخ النحاس يكفيه ويزيد - وبدون اية حجج أو براهين - أن يسمو به فوق هذه الصغائر .

ولا اتصور زعيما تعرضت سيرته للتشويه والافتراء والايذاء .. كما تعرض مصطفى النحاس ، وفى يقينى ان الجيل الحالى الذى تلقى صورة النحاس مشوهة مزيفة .. أحوج من أى جيل سبق إلى معرفة الحقيقة حتى تستقيم رؤيته إلى معانى العظمة ، فيستعيد سلامته النفسية والعقلية ، ويبرا من داء الاجترار على سير العظماء ، ويضع الابطال فى المكانة التى يستحقونها ، ولن يتيسر ذلك بقراءة الكتب التى صدرت عن الزعيم الجليل ، فهى

شحيحة ومبتسرة ، ولكن التاريخ الحقيقي لمصطفى النحاس يوجد في تضاعيف الأحداث الجسام التي شغلت تاريخ مصر فيما بين ثورتى ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، عندئذ سيستوى أمامك الرجل عملاقا ينطلق من القمم الذى سجنه فيه أهل الجحود والنكران ، وسوف تشعر بالندم لأنك لم تكن من مريديه قبل أن يموت ، وستشعر بالأسى لأنك لم تحاول رفع الظلم الذى حاق به حيا وميتا ، وستشعر بسعادة غامرة لأن مصر أنجبت هذا الرجل الذى أحب مصر بكل ذرة من كيانه ، وقضى حياته مجاهدا فى سبيل حريتها وكرامتها ، فلم يقبض من ثمن الجهاد سوى النفى والتشريد والتجنى والافتراء ، عاش فقيرا يستدين من البنوك ليستكمل نفقات معيشته ، ولا يمد يده إلى مال الدولة . وكانت طهارة قلبه لا تقل عن طهارة يده ، والصورة التى يرسمها لنا على سلامة فى كتابه عن مصطفى النحاس تعطينا صورة الرجل الطيب الودود والاب الحنون الذى لا يعرف الحقد ، يظهر ما يبطن .. ولا يعرف الكلام المنمق المزوق ، وكل ما يحتويه قلبه ينطق به لسانه ، ولا يستطيع أن يبتسم فى وجه شخص يكرهه ، ولا يستسيغ الكذب والمخاتلة والرياء .. ولا ينصور انسانا يحترف الكذب .. ويتخذ وسيلة للوصول إلى الغاية .

كيف استطاع الرجل وهو على هذا القدر من نبل الصفات ومكارم الاخلاق ، أن يخوض بحر السياسة الغامر بالكاذب والتضليل والدس والتآمر والابتسامات الصفراء المرسومة على شفاة غليظة ؟.. ان الجواب على السؤال يبدو سهلا إذا تذكرنا ان السنوات التى قضاها مصطفى النحاس فوق كرسي الحكم لا تزيد على عشر الفترة التى قضاها فى احضان الشعب .. مواطننا وقائدا وزعيما .. والعلية النادرون فى تاريخ الأمم لم يستمدوا عظمتهم من زخارف الجاه والسلطة .. ولكن من الايمان برسالتهم والارتباط بشعوبهم والارتقاء بنفوسهم فى معارج الروح ، والارتفاع عن الدنيا والصغائر ، وكان مصطفى النحاس نموذج العظمة السياسية التى فرضت على قلوب الناس خلال جيلين .

صاحب المقام الرفيع

لَمَّ

يسعدنى القدر برؤية الزعيم خالد الذكر مصطفى النحاس ، وإن كنت لا انسى صوته الجهورى وهو يجلجل عبر موجات الاثير من قاعة البرلمان : « من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦ ، ومن أجل مصر اطلبكم اليوم بالغائها، كنت وقتها طالبا فى المرحلة الثانوية لا اعرف بالضبط محتويات المعاهدة ولا الظروف التى دعت إلى إبرامها ، ولا مسببات إلغائها ، ولكنى ادركت ان حدثا خطيرا يوشك ان يقع ، وما هى إلا أيام حتى تحولت مصر كلها إلى شعلة حماسية ، فالفدائيون يقتحمون معسكرات الانجليز ، والشهداء يتساقطون ، والمظاهرات تعم أرجاء البلاد ، وذات خرجت مصر فى مظاهرة جارفة وتدفق الملايين على العاصمة للمشاركة فيها ، وكان شيئا مثيرا أن يخرج رئيس الوزراء - مصطفى النحاس - ووزارؤه على رأس المظاهرة التى جابت شوارع القاهرة ، وأعدت إلى الأذهان ذكريات ثورة ١٩١٩ ، وبعد اسابيع احترقت القاهرة وأقبلت حكومة النحاس ، وخيمت على مصر سحائب الظلمات ، واختفى اسم مصطفى النحاس من الصحف والأذاعة ، وبدأت حملة مشبوهة لتلطخ اسمه وزحزحته عن زعامة الأمة . وبعد الثورة ، وطرد الملك ، توقع الناس أن يعود مصطفى النحاس إلى موقعه الطبيعى بحكم زعامته لحزب الاغلبية وتطبيقا للمبدأ السادس من مبادئ الثورة الذى يدعو إلى إقامة حياة ديمقراطية سليمة . ولكن تبين أن مفهوم الديمقراطية عند قادة الثورة يختلف عن المفهوم الموروث عن الديمقراطية ، وتطوع الفلاسفة والمنظرون - وهم للأسف من فئة كبار المثقفين - بإعطاء الديمقراطية عشرات التفسيرات ، وإلباسها اقنعة مزيفة تخفى وجهها الحقيقى الذى يتمثل فى الاحتكام إلى الشعب واحترام ارادته ايا كانت النتائج .

وكما عاش مصطفى النحاس بعيدا عن كرسي الحكم معظم سنى عمره السياسى ، فى ظل النظام الملكى ، قضى بقية سنوات عمره سجين بيته فى ظل النظام الثورى ، وكما عمل القصر وأعداء الحرية وأحزاب الاقلية على تحطيم زعامة مصطفى النحاس ، واصلت الثورة نفس العمل ، عن طريق سلسلة من المحاكمات

تناولت أقرب الناس إليه ولم تتناوله شخصيا ، ربما - وهو الأرجح - خوفا من أن تزيده المحاكمة رفعة وتالقا .. فيصبح في ظل الثورة «صاحب المقام الرفيع» كما كان قبلها .

هل كان مصطفى النحاس يستحق كل هذا العذاب الذى وقع له سواء فى العهد الملكى أو فى العهد الثورى ؟! يمكننا أن نعرف الجواب إذا عرفنا حقيقة الصراع الذى كان يدور حول قضية الحكم والسلطة منذ عرفت مصر النظام النيابى وما يستتبعه من قيام حكومة مسئولة أمام برلمان شعبى منتخب ، وإعلان دستور ينظم السلطات الثلاث ويحصر سلطة الملك فى دائرة ضيقة .

ويجعل من الأمة - وليس الملك - مصدر السلطات ، ولم يكن من اليسير على القصر بحكم تراثه التاريخى وتكوينه الأوتوقراطى أن يتقبل هذا التحول الجذرى الذى يجعل من الشعب سيدا .. بعد أن كان قطيعا يساس بالعصا .. كان هذا هو محور الصراع بين سعد زغلول والملك فؤاد ، وامتد فيما بعد بين مصطفى النحاس والملك فاروق . ولما كان الوفد هو الحزب الذى تجسدت فيه رغبة الأمة فى التحرر من تسلط الأسرة العلوية والتخلص من التسلط الأجنبى ممثلا فى قصر عابدين وقصر الدوبارة ، فكان القصران يتصديان لهذه الظاهرة وإحباطها بشتى الحيل .. مرة عن طريق تزيف الانتخابات ، ومرة عن طريق اصطناع أحزاب تدين بالولاء للقصر وتحكم بطريقة غير دستورية ، ومرة بتشجيع قيام تنظيمات فاشية ترفع شعارات طنانة بقصد خداع الجماهير وصرفها من حول الوفد .. الخ .. وكل هذه الأساليب كانت تلتقى عند هدف واحد هو حرمان المصريين من حكم أنفسهم عن طريق ممثلهم الشرعى وهو الوفد ، وإبقاء السلطة فى يد القصر ليواصل سياسته القديمة فى الحكم الاستبدادى ، وإذا كان هذا السلوك مفهوما من جانب النظام الملكى ، إلا أنه لم يكن مقبولا من جانب الثورة التى قامت أصلا للاحتجاج على الانتهاكات الدستورية التى أدت إلى إقصاء صاحب الحق الشرعى عن الحكم ، وإسناده إلى من لا يستحق !!

انه لغز لا يسهل فهمه إلا على ضوء شخصية مصطفى النحاس وفهمه العميق لقضية الديمقراطية .

النحاس .. أسيرا

كان

الزعيم الجليل مصطفى النحاس يقضى السنوات الأخيرة من عمره فى بيته كالأسير يعانى مرارة الجحود والظلم والإهمال .. فالصحف لا تذكر اسمه إلا تهجما أو تهكما .. أو تحاملا على جيل بأكمله ، جيل السياسيين المصريين الذين انتزعوا مقاليد مصر من يرثى الترك والشركس والأغوات ، وبعد أن كنا نسمع أسماء نوبار وباغوص ورفقى ولاطوغلى ، أصبح الوزراء يحملون أسماء زغلول والنحاس والغرابلى وأبو علم وويصا وأصف .. رجال من صميم الطينة المصرية .. ومع ذلك أصبحوا فوجدوا تاريخهم يتعرض لأبشع أنواع التلطيخ والتزوير .. وهم لا يملكون دفاعا عن أنفسهم فليؤذون باركان بيوتهم حتى يأتى بهم الموت . !!

● ● ●

ذات يوم طرقت فتاة بيت الزعيم مصطفى النحاس ، قالت انها مندوبة التعداد العام، وتريد الحصول على البيانات عن سكان البيت ، واستقبلها الرجل العظيم هاشا باشا .. وجلس امامها ليرد على أسئلتها .. وتهيأت الفتاة لعملها ففتحت حقيبتها وأخرجت أوراقها وبدأت فى طرح أسئلتها فكان السؤال الأول : اسم سيادتكم ؟ أجابها الرجل فى هدوء : مصطفى النحاس ، ومضت الفتاة الى السؤال الثانى دون أن يبدو عليها أى انفعال لدى سماعها اسم الرجل .

- وسيادتكم بتشغل ايه ؟

وهنا توقف الزعيم عن الرد ، والتفت الى الفتاة مستفسرا هو انت يابنتى ماتعرفيش مصطفى النحاس كان بيشتغل ايه ؟ !! وأرتبكت الفتاة . وظهر انها لم تفهم مغزى السؤال ولم تعرف شيئا عن الرجل الذى يجلس امامها .. فسألتها : انت متخرجة منين قال : من كلية الآداب .. قسم التاريخ .. وازداد حزن الرجل الذى أفنى عمره كله من أجل مصر .. ولم ينجب ولدا ولا بنتا .. وكان يعتبر كل أبناء مصر أولاده .. فسألتها : وأنت تدرسين تاريخ مصر ألم تسمعى عن رجل اسمه مصطفى النحاس ؟ !! وأحمر وجه الفتاة خجلا وكأنها تعتذر عن جريمة لم ترتكبها .. فطيب الرجل خاطرها حتى انصرفت .

من المسئول عن جريمة إهمال تاريخ هذا الرعيل من زعماء
الوطنية المصرية ؟ ومن الذى يملك حق استمرار الحظر على
تاريخ الزعماء فى مناهج التعليم وبرامج الإعلام ؟ إن التاريخ
ليس ملكا لحكومة معينة ، وليس حكرا على نظام بعينه يعيث به
كيف شاء ، وجريمة العدوان على التاريخ تدفع الأجيال اللاحقة
ثمناها خصوصا عندما تكتشف الخدعة التى تعرضت لها ، فتكفر
بكل ما يقال لها ، ولا يظن التليفزيون انه يبيث فى نفوسنا روح
الوفاء للخالدين عندما يصدع رءوسنا كل يوم بإحياء ذكرى بعض
المشاهير ومعظمهم من المطربين والممثلين وكتاب الأغاني !!
فليس هؤلاء هم رموز الوطنية التى تستحق التخليد ، فالناس تريد
ان تعرف تاريخ زعمائها الذين جحدناهم احياء .. ونسيناهم
امواتا ..

رجل فلاح

كان أحمد حسين زعيم مصر الفتاة مطاردة من قبل سلطات الاحتلال البريطاني اثناء الحرب العالمية الثانية ولكنه نجح في الافلات والهرب ، وقضى فترة طويلة مستخفيا عن الانظار حتى ضاقت به سبل العيش ، فعزم على تسليم نفسه الى الحكومة . واستعرض اسماء بعض الوزراء ليختار من بينهم الوزير الذى يسلم نفسه اليه ، وهو مطمئن الى ان كرامته ستكون محفوظة ، ووقع اختياره على وزير الداخلية فؤاد سراج الدين لاعتبارات ترجع الى زمالة قديمة بينهما فى كلية الحقوق ، ورفع أحمد حسين سماعة التليفون ورد عليه فؤاد سراج الدين مهلا مرحبا وقائلا : انت فىن ياراجل .. عاوزين نشوفك !! وقال الزعيم المطارد : وانا اريد ان اقابلك فقال الوزير : اذن تفضل فى بيتى الآن ان شئت فقال أحمد حسين : ساحضر الآن بشرط الا تعلم احدا بحضورى .. وركب أحمد حسين سيارة « تاكسى » ، ومضى الى بيت فؤاد سراج الدين المواجه لبيت النحاس باشا رئيس الوزراء ، والشك يساوره فى ان يعد له الوزير كميناً لاعتقاله . فلما لم يجد حول البيت شيئا مريباً سلم امره الى الله ودخل بيت سراج الدين واستقر فى غرفة الاستقبال وقد غمرته الفرحه « فلم اكن اتصور ان سيكون الرجل امينا فى تنفيذ وعده الى حد الا يخطر النحاس باشا مع انه كان يعلم ان هذا الموضوع فى الدرجة الاولى من اهتمام رئيس الوزراء » .

وبعد حديث وُدّى بين الزعيم الهارب والوزير المسئول عن الامن استأذن سراج الدين من ضيفه لعرض الموضوع على النحاس باشا ، وبعد فترة - كانها دهر - عاد الوزير ليترى لضيفه تفاصيل اللقاء : لقد قلت للنحاس باشا ان عندى خبرا يسرك .. أحمد حسين عندى ! فقال النحاس باشا : واين هو اريد ان اراه .. فقلت له : وهو ايضا يريد ان يراك .. ولكن قبل ان تتقابلا اريد ان اتفق معك يا باشا على وجوب اخلاء سبيله .. « فالاستاذ أحمد حسين زميلى فى الدراسة ، وصداقة المدرسة عندى اغلى ما اعتر به ، على ان هناك فوق ذلك كله ، أننى رجل فلاح . ولقد جاء أحمد حسين الى بيتى ، فلا يمكن ان يخرج من بيتى سجيناً أو معتقلاً

ابدًا .. وإذا كان الباشا يرى أن لا مناص من اعتقاله فليأذن لي أن
أعود إلى الأستاذ أحمد حسين كي أساعده على الرجوع من حيث
أتى .. ثم يعمل الباشا بوسائله الخاصة على اعتقاله ..



مازلت أذكر الأثر الذي تركته هذه الواقعة في نفسي عندما
قرأتها لأول مرة وأنا في مرحلة الصبا في كتاب (وراء القضبان)
الذي أصدره المرحوم أحمد حسين في سلسلة - كتب للجميع -
عام ١٩٤٩ ، ورغم مرور ٣٥ سنة فلا تزال رموز هذا اللقاء المثير
تشبع في وجداني إحساسا بالدهشة والسعادة .. وكلما مضى
الزمن اتسعت دائرة الدهشة وضاقت دائرة السعادة .. !
كان المصريون في ذلك العصر يقيمون اعتبارا كبيرا للقيم
والتقاليد والأخلاق ، وكانت قواعد اللعبة - بين الدولة
وخصومها - مصونة من الطرفين ، لا يجزؤ احد على اختراقها والا
قوبل بالخزى والعار من جانب ضميره أولا ومن جانب الضمير
العام ثانيا .. وجاء زمن خبا فيه صوت الضمير الى حد العدم ..
وباتت القيم والتقاليد والأخلاق عملات قديمة غير قابلة للتداول ..

محكمة الثورة

كان

إلغاء دستور ١٩٢٣ بعد نحو خمسة شهور من قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ مؤذنا بالصدام المباشر بين الثورة والوفد ، وسقوط شعرة معاوية التي كانت قائمة حتى ذلك الحين بين الطرفين ، لأن الكفاح من أجل الدستور كان خطا ثابتا في تاريخ الوفد ويسير في خط مواز لكاحه من أجل الاستقلال ، وكانت توضيحات الشعب - بقيادة الوفد - في سبيل الدستور ، وحمايته من العبث والعدوان ، لا تقل روعة وجلالا عن التوضيحات في سبيل انتهاء الاحتلال ، ومنذ بداية المرحلة الليبرالية في عام ١٩٢٤ كان الوفد يحارب في جبهتين : الجبهة الخارجية لاستخلاص حقوق البلاد الوطنية ، والجبهة الداخلية لمقاومة استبداد القصر ، وإحباط محاولاته الدائبة لاستعادة حكمه المطلق ، مما دعا الوفد الى خوض معارك دامية بلغت ذروتها في عهد اسماعيل صدقي ، وقد توج كفاح الوفد آنذاك بعودة دستور ١٩٢٣ في اواخر عام ١٩٣٥ .

وعندما قامت ثورة يوليو كان الشائع انها ستعمل على صيانة الدستور وتصحيح الأوضاع الديمقراطية واعادة الحياة النيابية وضمان الحريات الأساسية لجميع المواطنين ، خاصة بعد خلع فاروق المدبر الأكبر لكل الانقلابات والدسائس التي أدت الى الفساد السياسى ، ولكن قيادة الثورة ما لبثت ان تنكرت للدستور ، وكشفت عن نواياها المعادية له عندما تجاهلت النص الدستوري الذي يقضى بدعوة البرلمان الوفدى المنحل لى يؤدي أمامه أعضاء مجلس الوصاية على العرش اليمين الدستورية . ورغم أن انعقاد هذا البرلمان كان إجراء شكليا بحتا ولا يستغرق أكثر من بضع دقائق ، إلا أن الزمرة التي احاطت بضباط الثورة ، وكلهم من رجال الحزب الوطنى المعادين للوفد ، وجدوا في عقد البرلمان فرصة غير سارة تذكر الجماهير بالنظام البرلمانى الذى بيتوا النية على هدمه ، والسير بالنظام الجديد فى طريق اللاديمقراطية ، فكان أن تفتقت عقولهم عن فتوى شيطانية بإمكانية أداء اليمين أمام مجلس الوزراء ، ووجدت الفتوى ذات المنفعة المزدوجة قبولا عند الضباط الشبان ، فقد شجعت هؤلاء على الاستهانة

بالدستور والتحرر من قيوده ، ومن ثم المضى فى طريق الانفراد بالحكم ، وفى نفس الوقت حققت لمستشارى السوء فرصتهم للانتقام من الوفد وإقصائه نهائيا عن حقه الشرعى فى الحكم . وجاء الإجهاز على الدستور فى ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ علامة واضحة على أن الحكام الجدد قد اختاروا السير فى الطريق نحو الديكتاتورية ، ثم لم تمض ثلاثة اسابيع حتى اصدر مجلس قيادة الثورة فى ١٧ يناير ١٩٥٣ امرا بحل الأحزاب السياسية التى تعتبر ركيزة النظام الديمقراطي ، وازاء هذا المد الاستبدادى السافر ، قرر الوفد أن يخوض المعركة ايا كانت نتائجها رغم علمه بطبيعة القوى الجديدة التى يواجهها ، وانها عناصر عسكرية بحتة تستند الى قوة الجيش ، وانتهاز زعيم الوفد مصطفى النحاس فرصة ذكرى وفاة سعد زغلول فى ٢٣ اغسطس ١٩٥٣ فتحدى القرار الصادر بمنع الاحتفال بها ، وتوجه الى ضريح سعد والقى خطابا ساخنا هاجم فيه قيادة الثورة ، وندد بالاساليب التى اتبعها فى القضاء على الحرية والدستور والحياة النيابية ، وطالب بالافراج فورا عن المعتقلين ، كما هاجم سياسة حكومة الثورة فى التفاوض مع الانجليز بعد ان لفظت البلاد هذا الاسلوب ، كما ندد بموافقة الحكام الجدد على ما عرضه الانجليز من منح السودان الحكم الذاتى تمهيدا للاستفتاء على مبدأ تقرير المصير ، وقال النحاس إن أمانى مصر القومية قد أهدرت تماما على يد الحكام الجدد ، وحذر من مغبة التفريط فى حقوق البلاد ، وقال ان الأمة يقظة لما يديره لها اعداؤها فى الخفاء ، واختتم خطبته بهذه العبارة : ان حبل الباطل قصير .. وهو إن طال شقق صاحبه .

وسرعان ما تحول خطاب مصطفى النحاس الى منشور تداولته ايدى الجماهير بكثافة ، وفى يوم الجمعة التالية للخطاب ، ادى النحاس الصلاة فى مسجد ابي العباس المرسى بالاسكندرية فالتفت الجماهير من حوله رغم الحصار الذى فرضه البوليس حول المنطقة ودارت معركة ساخنة بين رجال البوليس والمصلين . ولمواجهة الهجوم الصريح من جانب زعيم الوفد ، لم تلجأ قيادة الثورة الى مقارعة الحجة بالحجة ، ولكنها لجأت الى النهج التعسفى لتصفية منتقديها وتلويث سمعتهم والتشهير بهم عن

طريق المحاكمات الثورية ، وفي ١٦ سبتمبر ١٩٥٣ أعلن اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية ورئيس مجلس قيادة الثورة في مؤتمر جماهيري بميدان عابدين الأمر الخاص بتشكيل محكمة الثورة ، وقدم صلاح سالم الذي كان يوصف بأنه « لسان الثورة وميزانها الحرارى » تحليلاً لخط العنف الذى قررت الثورة المضى فيه . وبعد أن شن هجوماً عنيفاً على الوفد وزعامته فاجأ الجماهير بوجود وثيقة « خطيرة » قال انها وقعت فى ايدى مجلس الثورة وتكشف عن التحالف الوثيق بين « الاستعمار الأجنبى والخونة الرجعيين فى هذه البلاد » ولكن صلاح سالم حذف - وهو يقرأ الوثيقة المزعومة - اسم الدولة الأجنبية التى تشجع المتمردين من رجال الأحزاب ، وقد جاء فيها ان هدف التحالف بين تلك الدولة (المجهولة) ورجال الأحزاب هو « بث روح السخط ضد النظام وتشجيع الأفكار التى تنادى بعدم صلاحيته وتدعيم الوسائل التى تؤدى الى تدهور الاقتصاد ، وذكر صلاح سالم أن العمل لقلب مجلس الثورة كان محدداً له مدة اقصاها يوليو ١٩٥٤ . وأعلن فى نهاية تلاوته لتلك الوثيقة قراران هامان يضعان سياسة الصرامة والشدّة محل التطبيق هما : إعادة الرقابة على البرقيات الصحفية الواردة والصادرة من مصر ، كما أن الرقابة على الصحف داخل مصر » ستظل قوية تضع سيفها فوق كل رأس مخرب يريد تبليبل الأفكار « ذاكرا » اننا سنظهر بقوة وعزم كل ركن من أركان هذه الدولة ، ولن ننسك فى هذا المضمار يا صاحبة الجلالة الصحافة « !! أما القرار الثانى فيقضى بتشكيل محكمة الثورة من عبداللطيف البغدادى رئيساً ، وأنور السادات وحسن ابراهيم عضوين .

وفى دراسة تحليلية لتلك الوثيقة التى قرأها صلاح سالم ، يقول صلاح عيسى ان الوثيقة لم تنشر ، ولم يواجه ايا ممن قدّموا للمحاكمة بوقائع محددة تستند اليها ، ثم يصف هذه الوثيقة بأنها نص للدراسات المشتركة التى جرت بين أجهزة السفارة الأمريكية - ومن بينها وكالة المخابرات المركزية - وبين أجهزة الأمن الناصرية ، على النحو الذى اشار اليه رجل المخابرات كوبلاند فى كتابه (لعبة الأمم) [وكان هذا قريباً من مسرح الأحداث المصرية فضلاً عن انه كان واحداً من المستشارين

المقربين لجمال عبدالناصر آنذاك [فقد ذكر انه في صيف ١٩٥٣ بدأت السفارة الأمريكية تقلق على الوضع في مصر بعد ان شعر السفير الأمريكي جيفرسون كافري بالقلق على نظام عبدالناصر إذ أن الحركات المضادة عادة ما تظهر - في رأى وكالة المخابرات المركزية - بعد مرور عام واحد على الحركة السابقة .

وبدأت محكمة الثورة تمارس نشاطها في جو مشحون بالسموم ضد الوفد ، بل يذهب أحمد حمروش الى « أن محكمة الثورة كانت موجهة أساسا ضد الوفد وبقايا الأحزاب السياسية » .. ولما كان الوفد أخطر هذه الأحزاب فقد ناله نصيب الأسد من القضايا ومن التشهير الذي لم يتعفف عن البذاءة والابتذال ، ويرى صلاح عيسى أن محاور الهجوم على الوفد تركزت في التأكيد بأن ثقة الشعب به - التي تمثلت في حصوله على الأغلبية المطلقة في انتخابات ١٩٥٠ لم تكن في محلها ، وفي الهجوم على النظام البرلماني وصولا الى تأكيد فكرة امكانية الاستغناء عن البرلمان ، وفي التشكيك في وطنية كل العناصر التي كانت مؤثرة على مسرح الأحداث ، وفي السعي لتلويث كل القيادات الحزبية وبالذات قيادات الوفد بحيث تبدو أمام الجماهير شخصيات تافهة ، وفي هذا الصدد نال زعيم الوفد مصطفى النحاس من التشهير ما لم ينله غيره ، ولكن الضباط الأحرار عجزوا عن تقديمه شخصيا للمحاكمة لإدراكهم صعوبة ذلك ، وربما خشيتهم من أن تؤدي محاكمة الرجل الى مزيد من التعاطف الشخصي والسياسي معه ، إذ لم يكن من السهل تجاهل المكانة التي ظل النحاس يشغلها في نفوس الشعب المصري منذ تولى زعامة الوفد عقب وفاة سعد زغلول .

وإزاء صعوبة محاكمة مصطفى النحاس فقد قرر الضباط الأحرار محاكمة أقرب الناس اليه : قرينته السيدة زينب الوكيل ، وساعده الأيمن فؤاد سراج الدين ، وابنه في حقل الجهاد ابراهيم فرج .

فصل وحكم



الساعة العاشرة من صباح الأربعاء ٩ ديسمبر ١٩٥٣
مثل فؤاد سراج الدين أمام محكمة الثورة المشكلة
برئاسة قائد الجناح عبداللطيف البغدادي وعضوية
البكباشي أنور السادات وقائد الأسراب حسن
ابراهيم أعضاء مجلس قيادة الثورة بالإضافة إلى البكباشي زكريا
محيي الدين الذي رأس مكتب الادعاء يعاونه ستة أعضاء نصفهم
من الضباط الحقوقيين والآخرين من وكلاء النيابة ، وكان صلاح
سالم وهو يعلن أمر تشكيل المحاكمة في المهرجان الشعبي بميدان
عابدين ، قد اقترح أن تعقد المحاكمة في ميدان التحرير لبث الذعر
في قلوب الناس ، ولكن مجلس الثورة لم يأخذ باقتراحه ، وقرر
عقدها في مقر مجلس قيادة الثورة الذي كان فيما قبل مقرا لخادي
اليخوت الملكية ، ويشغل أجمل بقعة على قمة جزيرة الزمالك
حيث ينفرع النيل ، وتنساب أمواجه الرقيقة تحت عتباته في جمال
وروعة وسكون .

في الطابق الثاني الذي خصص للمحاكمة ارتفعت لافتة مكتوب
عليها باللون الدموي (سكون) وتدل على باب القاعة رقم ٨
المخصصة للجلسات علم الثورة المثلث الألوان ، وكتب على
الجزء الأبيض منه (محكمة الثورة) بينما تناثرت على جدران
القاعة آيات قرآنية تم اختيارها بعناية مثل « اقتلوهم حيث
ثقفتموهم » « وليجدوا فيكم غلظة » « فاضربوا فوق الأعناق
واضربوا منهم كل بنان » .

وقد نص امر تأليف المحكمة على أن يتولى مكتب الادعاء
القبض على المتهمين واطصارهم بالتهم المنسوبة اليهم قبل موعد
المحاكمة بأربع وعشرين ساعة على الأقل ، ولا يجوز تأجيل
القضية لأكثر من مرة واحدة ولمدة لا تزيد على ٧٢ ساعة ،
ويتولى الدفاع عن المتهم محام واحد في جميع التهم المنسوبة
اليه ، ولا يجوز المعارضة في هيئة المحكمة أو أحد أعضائها ،
كما أن أحكام المحكمة نهائية ولا تقبل الطعن بأي طريقة من
الطرق أو أمام أية جهة من الجهات ، وكذلك لا يجوز الطعن في
اجراءات المحاكمة .

ورغم أن اللواء محمد نجيب يعترف في كلمته للتاريخ بأن هذه المحكمة أشاعت الفرع والرعب في نفوس الناس ، ورغم أنه يقول إنه اعترض على فكرة المحاكم الثورية لأنها تجعل من قادة الثورة خصما وحكما في نفس الوقت ، فإن معارضته لم تمنعه من توقيع أمر تشكيلها والمشاركة في الزفة التي صاحبت ذلك بميدان عابدين .

وفي حين يذكر بعض الكتاب أن محكمة الثورة كانت تعقد جلساتها في سرية ولا يحضرها إلا أعضاؤها والمتهم وزكريا محيي الدين هو ومعاونوه ، وأن المتهمين كانوا يواجهون المحكمة بلا تحقيق ويوجه الادعاء التهمة اليهم كنوع من المفاجأة (١١) فإن أحد الضباط الذين جمعوا وقائع المحاكمات الأولى يقول في صدر كتابه إن رجال القانون والتشريع في مصر كانوا يتهافون على حضور هذه المحاكمات ، وإنهم أعجبوا ببراعة المناقشات التي تدور فيها والأسئلة التي يوجهها أعضاء المحكمة كما لو كانوا من رجال القضاء العريقين (١٢) ثم يصف المحكمة بأنها ابتدعت نظاما جديدة في المحاكمات فهي تنجز في أيام ما تنجزه المحاكم العادية في شهور بل سنوات (١٣) ومع ذلك كان العدل رائدها وذلك بشهادة المتهمين أنفسهم حتى إن بعضهم تقدم بالشكر على معاملته بالعدل والقسطاس (١٤).

وكانت محاكمة فؤاد سراج الدين أطول محاكمات الثورة ، فقد استغرقت ٥٤ جلسة ، وكانت أقرب إلى محاكمة عهد ما قبل الثورة كله منها إلى محاكمة فرد ، وتطرقت المحكمة إلى قضايا لا علاقة لسراج الدين بها ، وطرحت أمورا خارجة على موضوع القضية ، وبلغ الابتذال بالمحكمة أن حشدت رهطا من السياسيين القدامى الذين كانت لهم مواقف معادية للوفد ، وأخذت تحرضهم على سرد قصص وحكايات تسيء إلى الزعامة الوفدية وتشوه صورتها في نظر الجماهير ، وبلغ الاسفاف بأحدهم أنه تطرق إلى الحياة الخاصة للزعيم مصطفى النحاس ، وكان بعضهم يتبرع باختلاق وقائع كاذبة لكي يشتري حريته وينجو من المحاكمة أمام نفس المحكمة عن جريمة العمالة للانجليز ، وكان هذا مسلك رئيس الديوان الملكي السابق حسين سرى الذي تبرع بفبركة قصة تقبيل النحاس ليد الملك عقب تشكيل وزارة ١٩٥٠ ، وعن طريق هذه الحملة التشهيرية الواسعة تحقق الهدف الاصيل من

المحاكمة - كما اعترف رئيسها في مذكراته بعد ربع قرن - من أن القصد من المحاكمة كان التشهير بالزعماء حتى يفقد الشعب الثقة بهم .

وتحولت محاكمة فؤاد سراج الدين - أكبر شخصية مؤثرة في الوفد بعد مصطفى النحاس - إلى مهرجان لتوجيه أقصى الطعنات إلى الوفد ، بل وإلى عهد ما قبل الثورة كله ، وانسأقت المحكمة في هوجة التجريح حتى عميت عليها الأمور ، واختلطت الحقائق بالضغائن ، ولم تعد تفرق بين الأحقاد السياسية والاعتبارات الوطنية التي تعلو فوق الخلافات ، فتحول الأبيض إلى سواد ، وأصبح العمل الوطني في نظر المحكمة جريمة يلام عليها فاعلها ، وبلغت المحكمة ذروة المغالطة عندما عابت على حكومة الوفد موقفها من معركة التحرير التي أعقبت إلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وعدم الاستعداد لها ، متجاهلة الدور البطولي الذي لعبته هذه الحكومة في تدعيم الكفاح المسلح وتسهيل مهمة الضباط - ومنهم رئيس المحكمة - في مقاومة الاحتلال البريطاني .

وقد استفزت هذه المغالطة البشعة الكتاب الأحرار الذين عاصروا هذه الأحداث بمن فيهم المنتمون إلى حركة الجيش ، فكتب أحمد حمروش منتقدا مسلك المحكمة بقوله : وهكذا تحول الموقف الذي يستحق الفخر في تاريخ الوفد .. إلى موقف يجلب إليه العيب والأسف (١) ووجهت الطعنة في غير موضعها ، وإذا كان الشر لا يخلو من بعض جوانب الخير ، فإن وقائع المحاكمة كشفت عن خطأ كثير من المقولات التي كانت شائعة حول العلاقة بين الوفد والقصر ، وقد ذكر صلاح عيسى بعض نماذج لهذه الحقائق في مقدمة الجزء الأول من وقائع محاكمة سراج الدين ، وقال إن المحاكمة أزاحت السار عن مواقف بطولة وهمية نسبها البعض لأنفسهم على حساب الوفد ومنهم زكي عبدالمتعال - الشاهد الذي أدانته محكمة الثورة في حكمها - وكانت بعض الصحف قد قدمته كبطل ، ثم ثبت بعد ذلك عمالته للسراى فضلا عن صلاته الوثيقة بالدوائر الأمريكية ، كما افترض موقف النائب العام الأسبق محمد عزمي من تحقيقات قضية الأسلحة الفاسدة التي ذهب بعض المؤرخين (الرافعي) إلى اتهام الوفد بأنه المسئول عن طرده من منصبه تلبية لرغبة السراى واعتبروه بطلا ، ثم ثبت فيما بعد أنه هو الذي تواطأ - على غير

رغبة الحكومة الوفدية ، لافساد قضية الأسلحة الفاسدة لحساب السراى طمعا فى مرتب كبير .

وتضمن الادعاء على فؤاد سراج الدين تهما من كل لون وجنس مثل خيانة أمانة الحكم واستغلال النفوذ ومهادنة الملك وعدم مراعاة مصلحة الوطن وعرقلة تحقيقات الأسلحة الفاسدة . وبالإضافة إلى الجهد الخارق الذى بذله محاميه الوحيد وصديقه عبدالفتاح حسن باشا ، فقد تصدى سراج الدين لتفنيد هذه الدعاوى فى شجاعة فذة لفتت إليه أنظار المؤرخين ، ووصفه بعضهم بأنه كان أشجع المتهمين الذين واجهوا المحاكم الثورية ، وأنه انبرى للدفاع عن نفسه وعن حزبه دفاعا مجيدا استغرق خمس جلسات كاملة فتجح فى ذلك نجاحا نادر المثال بما يؤكد ذكاه واقتداره السياسى .

ورغم أن رئيس المحكمة أظهر فى بعض مراحل المحاكمة تقديرا لشخص فؤاد سراج الدين وقال له أن المحكمة لا تشك فى نزاهتك ، وأيد الادعاء هذا الرأى ، ورغم وضوح تهافت الاتهامات المصوبة إلى سراج الدين فقد صدر الحكم عليه بالسجن ١٥ عاما لأنه كان لابد أن يختفى من المسرح السياسى ليخلو الجو أمام الضباط الشبان للانفراد بالحكم دون إزعاج ، وعبر جمال عبدالناصر عن هذه الحقيقة عندما صرح للذين تحدثوا اليه بشأن التصديق على الحكم فقال : «إن فؤاد سراج الدين كرجل سياسى ، يعرف لماذا حكم عليه .. ومتى سيخرج» .. وأوضح عبدالناصر لأسرة سراج الدين الضرورة التى حتمت عليه وضع زعيمهم خلف القضبان ، وهى تخضع لعاملين أحدهما خارجى وهو عودة الأحزاب السياسية فى سوريا بعد الإطاحة بحكم العقيد الشيشيكلى ، وهو الأمر الذى سبب أرقا لرجال الثورة بصفة عامة ، وعبدالناصر بصفة خاصة ، لأنهم كانوا يدركون أن مجرد وجود الأحزاب يشكل خطرا على سلطتهم .. أما العامل الداخلى فهو أن جمال عبدالناصر كان يستعد للقضاء على الإخوان المسلمين .

وهذا هو منطق العدل الثورى .

وقد أنجز عبدالناصر وعده .. ولم يغادر فؤاد سراج الدين السجن إلا بعد أن أجهز عبدالناصر على الإخوان .. وخلّص له حكم مصر .

مجزرة طرة

فى

يوم السبت الحزين الموافق للفاصح من يونية ١٩٥٧ وقعت أحداث هذه المجزرة فى ليمان طرة :

كان هناك ١٨٠ من رجال الاخوان المسلمين يقضون عقوبة الأشغال الشاقة المحكوم عليهم بها من محاكم الثورة من اكتوبر ١٩٥٤ ، وكانت مصلحة السجون قد اتخذت بعض الاجراءات الانسانية تمشيا مع سياسية تحسين حال المسجونين ، ومن بينها اعفاء المسجون من الصعود الى جبل طرة لتكسير الصخور بعد انقضاء سنتين من هذا العمل الشاق يحول بعدها للعمل فى الورش داخل السجن ، ولما طالب الاخوان المسجونون بتطبيق هذا الاجراء عليهم كغيرهم من المسجونين العاديين فوجئوا بالرد عليهم بان قرار الاعفاء من الأشغال الشاقة لا يسرى على الاخوان !! عندئذ طالب الاخوان بعرض قضيتهم على النيابة العامة ، كما تقضى لائحة السجون ، فرفضت ادارة السجن . وفى صبيحة اليوم المشؤم اعتصم الاخوان فى الزنازين ورفضوا الخروج إلى الجبل إلى أن يتحقق مطلبهم ، وانتدبوا اربعة منهم للتفاوض مع ادارة السجن ، وبينما المفاوضات جارية فى المكاتب ، كان خبر الاعتصام قد تسرب الى المراجع العليا فى الدولة فاصدرت قرارها التاريخى باستئناف سياسة الإبادة التى توقفت بعد مذابح السجن الحربى ، وضرب الاخوان فى المليون .. !!

وتقدمت فرقة من السجانة ففتحت بعض زنازين الاخوان واحدة بعد واحدة واخرجت من فيها بالقوة وربطتهم فى سلسلة جماعية ، وادرك الاخوان انهم سوف يساقون قهرا الى الجبل ليفتك بهم رصاص الحرس. ثم يقال انهم كانوا يحاولون الهرب . ! ولم يشأ الاخوان ان يستسلموا كالدبائح امام جلاديههم ، واستطاع احدهم ان يختطف المفتاح من الحارس واسرع إلى فتح الزنازين واخبر الاخوان بما يدبر لهم .

وحان وقت صلاة الظهر فاتجه الاخوان للوضوء والاستعداد للصلاة وفجأة تقدمت فصيلة من حرس السجون مسلحة

بالرشاشات وصعد الجنود السلم وتوقف نصفهم فى ممرات الطابق الثانى بينما واصل الباقون صعودهم فانتخذوا مواقعهم فى الطابق الرابع وصوب الجميع فوهات المدافع نحو الطابق الثالث ، ولم يابه الاخوان لهذا المشهد وظنوه مجرد تهديد ، ولم يخطر ببالهم ان يصل الغدر إلى حد قتل المسجون الأعزل وهو وديعة فى رقبة الدولة ، عليها ان تحميه وتصون حياته بمقتضى الشرائع والقوانين والأعراف واللوائح والتقاليد والعادات والأخلاق .. !! ولائحة السجون نفسها تتضمن اجراءات لمعاقبة المسجون اذا ارتكب خطأ أو امتنع عن العمل .. وليس بينها بالطبع قتل المسجون !!

وفى اللحظة الرهيبة دخل قائد السجن فاخرج مسدسه واطلق منه رصاصة كانت هى اشارة البدء انفتحت بعدها فوهات الجحيم على الاخوان الذين اصابهم الذهول والهلع والفرع وصاح احدهم : لا تخافوا يا اخوان .. هذا فشك .. !! وقبل ان يكمل عبارته عاجلته رصاصة فى راسه فارده قتيلا .. واخذ الاخوان يتساقطون .. ويتصايحون .. ويتدافعون نحو الزنازين للاحتباء بها .. ولكن الرصاص كان ينهمر عليهم كالطر من النوافذ فيتساقطون بين قتيل وجريح .. وكان بعض الاخوان يوصدون الابواب بظهورهم فتصدر التعليمات بصب النيران على الابواب فيحترقها الرصاص فيصيب مقتلا ممن يقفون خلفها ، وكان بعض الضباط يضع فوهة الرشاش على ثقب « النضارة » الموجود بالباب ثم يفرغ خزانة الرشاش على من بالداخل .. وهناك تفاصيل يقشع لها البدن يرويها جابر رزق فى كتابه التسجيلى عن المذبحة .

وبعد ساعة توقف اطلاق النار ، وغادرت فرقة الاعداد مبنى السجن ، ولكن عملية الابادة لم تتوقف فقد تقدمت فرقة اخرى من الاشواوس من حملة الشوم لتجهز على كل من يصادفها من الجرحى الذين تساقطوا فى الممر وعجزوا عن الحركة ، ثم تقدمت فرقة ثالثة فاقتحمت الزنازين واخرجت منها الجرادل والاولانى والقت بها فى ساحة العنبر حتى يبدو الامر امام المحققين وكأنه حصاد معركة « أخوية » بين فصائل الاخوان ، ولما وضحت سذاجة هذا

التفسير جاءوا برجال مباحث فى ثياب وكلاء نيابة وسجلوا أن
الاخوان كانوا يعتزمون القنك بحرس السجن .. رغم عدم وجود
جريح واحد من السجانة .. وتقرر حفظ التحقيق وإسدال الستار
على المجزرة التى راح ضحيتها ٢١ شهيدا و٢٢ جريحا .. وفقد
بعضهم عقله من هول ما رأى ..
وفى اليوم التالى .. وتحت جنح الظلام كان هناك طابور حزين
يغادر مبنى ليমান طرة تحت حراسة مشددة من البوليس ، وكان
الطابور يضم ٢١ نعشا انطلقت بهم السيارات نحو جهات مختلفة
من مصر ودفنواهم ليلا وكان شيئا لم يكن .

الفهرست

الرقم	الموضوع	الصفحة
	اهداء	٣
	تقديم	٥
	بين يدي القارئ	٧
١	عنزة السيدة نفيسة	١٣
٢	يا خفي الاطاف	١٦
٣	سنوات الحيرة	١٩
٤	نجم الزعامة المصرية	٢١
٥	مهرجان الدم	٢٤
٦	على موائد اللثام	٢٦
٧	عبد مامور	٢٨
٨	سياسة بلا اخلاق	٣٠
٩	شارع سليمان باشا	٣٢
١٠	قتيل بينها العسل	٣٥
١١	الثبا السعيد	٣٧
١٢	حادث على النيل	٤٠
١٣	ثائر من الازهر	٤٣
١٤	افراح الانتجال	٤٦
١٥	فرعون الصغير	٤٨
١٦	شيخ المنس	٥٠
١٧	سقوط فرعون	٥٢
١٨	ذو الاصابع القولاية	٥٤
١٩	نوبار باشا	٥٦
٢٠	نيللى وتوايعها	٥٩
٢١	ميرابو .. مصر	٦٢
٢٢	مجزرة همجية	٦٥
٢٣	حرق الاسكندرية	٦٨
٢٤	الشهيد البريء	٧١
٢٥	أبوالدستور	٧٤
٢٦	قصة مزعومة	٧٧
٢٧	مسرحية مثقنة	٧٩
٢٨	مذنب أم غير مذنب	٨٢
٢٩	امراء لكن شرفاء	٨٥
٣٠	كيرلس الخامس	٨٨
٣١	الكنيسة المصرية	٩٠
٣٢	اغاخان في مصر	٩٢
٣٣	قاطع طريق	٩٥
٣٤	عايد البقرة	٩٨
٣٥	اولاد تيمور	١٠١
٣٦	العفريت	١٠٣

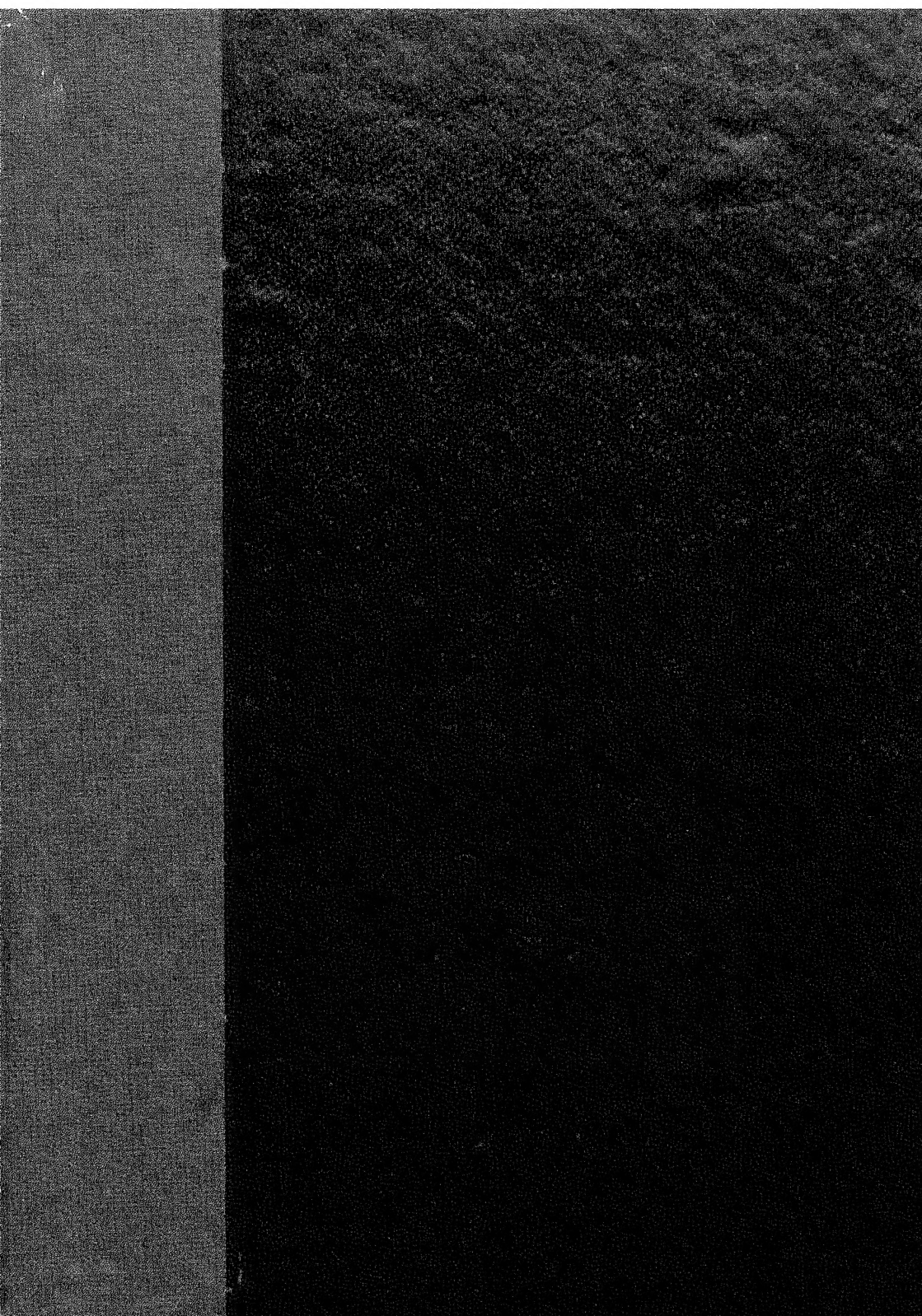
الرقم	الموضوع	الصفحة
٣٧	غرام الشيوخ	١٠٥
٣٨	عاشقان جريئان	١٠٨
٣٩	ابوخطوة يقلب المائدة	١١١
٤٠	إضراب القضاة	١١٤
٤١	نهاية المأساة	١١٧
٤٢	ادب البصل	١٢١
٤٣	سعد زغلول الافغانى	١٢٣
٤٤	بين ثورتين	١٢٦
٤٥	ثورة النساء	١٢٩
٤٦	شهيد أسير	١٣٢
٤٧	دولت فهمى	١٣٥
٤٨	نموت وتحيا مصر	١٣٨
٤٩	بنك مصر	١٤١
٥٠	سمنار المصرى	١٤٤
٥١	الوزارة الشعبية	١٤٧
٥٢	حزب العرش	١٥٠
٥٣	وفدية سعدية	١٥٣
٥٤	لطمعة مملوكية	١٥٦
٥٥	نزاهة النحاس	١٥٩
٥٦	اليد الحديدية	١٦٢
٥٧	حادث سرقة	١٦٥
٥٨	أمير فى المنفى	١٦٨
٥٩	بسرعة	١٧١
٦٠	فى خندق الشعب	١٧٤
٦١	انقلابات دستورية	١٧٦
٦٢	أكبر رأس فى البلاد	١٧٩
٦٣	البرلمان فى الأغلل	١٨٢
٦٤	مذبحة فى المنصورة	١٨٥
٦٥	مروعة نادرة	١٨٨
٦٦	المجاهد الزاهد	١٩١
٦٧	الصيف الساخن	١٩٤
٦٨	على رصيف بنى سويف	١٩٨
٦٩	أكذوبة رخيصة	٢٠٠
٧٠	صاحب المقام الرفيع	٢٠٢
٧١	النحاس أسيرا	٢٠٤
٧٢	رجل فلاح	٢٠٦
٧٣	محكمة الثورة	٢٠٨
٧٤	خصم وحكم	٢١٢
٧٥	مجزرة طرة	٢١٦



الكتاب .. والمؤلف

يعرض هذا الكتاب ٧٥ مشهدا من تاريخ مصر الحديث فى أسلوب جذاب .. وتحليل شيق .. يرضى هواة القراءة العميقة والبحث الدقيق .. ويلقى الضوء على أحداث هامة وشخصيات مرموقة كان لها دورها فى تاريخ مصر . والكتاب فى مجمله يقدم ثقافة تاريخية لا غنى عنها للجيل الجديد .

والمؤلف هو الكاتب الصحفى جمال بدوى مدير تحرير (الوفد) الذى تخصص فى الدراسات التاريخية . وقد سبق أن قدم للمكتبة العربية كتاب (الفتنة الطائفية فى مصر جذورها واسبابها) وكتاب (يوميات صائم) وكتاب (شهداء وضحايا من تاريخ الاسلام) فضلا عن العديد من البحوث الاسلامية والتاريخية المنشورة فى الصحف المصرية والعربية .



To: www.al-mostafa.com